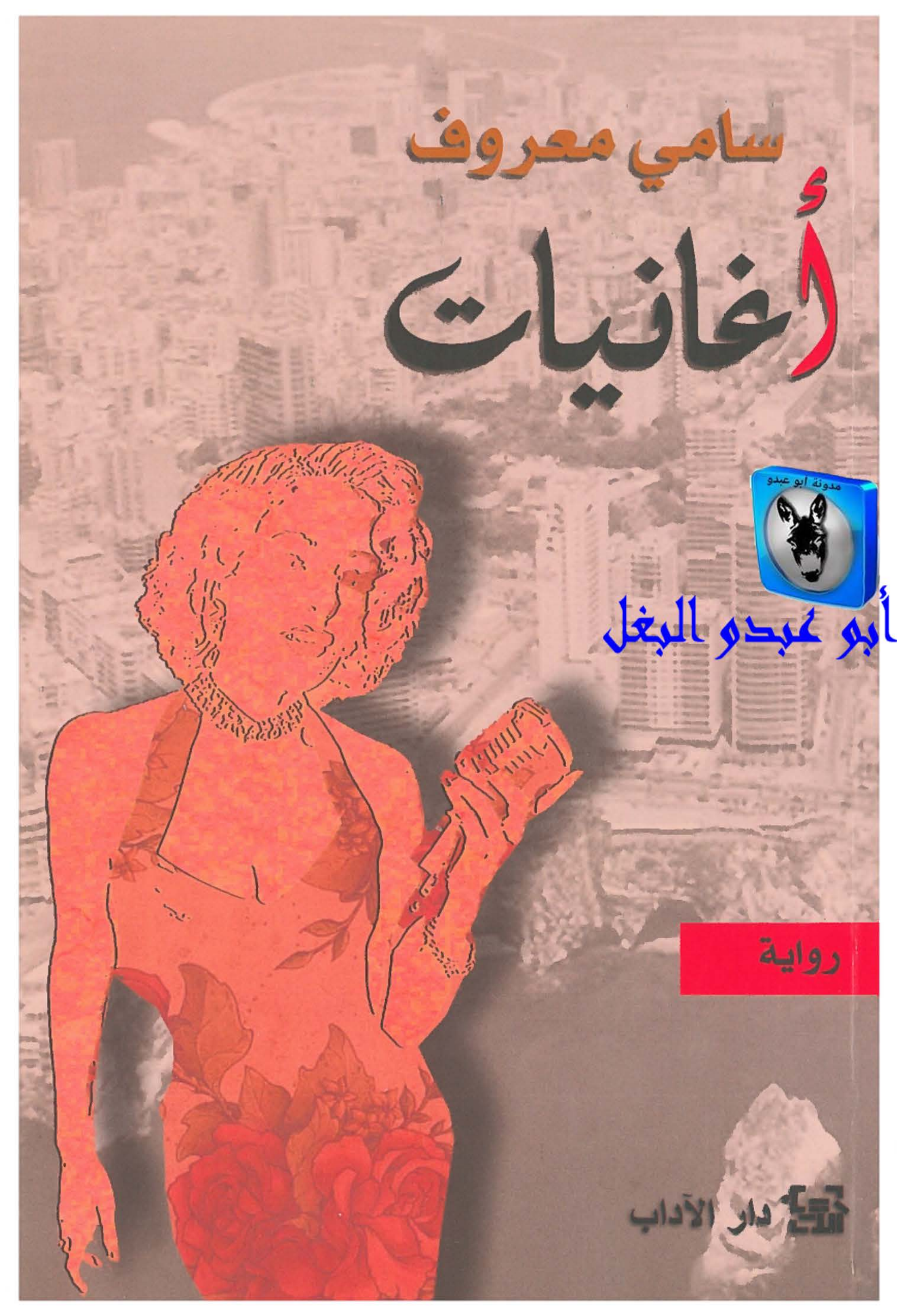


سامي معروف
أغانيات
مدونة ابو عبدو
أبو عبدو البغل
رواية
دار الآداب

أَغانيات



سامي معروف

أغانيات

رواية

دار الآداب ـ بيروت

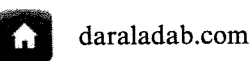
أغانيات

سامي معروف / روائي لبناني
الطبعة الأولى عام 2015
ISBN 978-9953-89-488-1



دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com


/Dar.Al.Adaab

@DarAlAdab

daraladab.com

أتمنّى على قارئي العزيز ألّا يعثر بحجارة كلماتي المسنّنة، أحيانًا، فتصبح عائقًا في طريقه.

ما أريد أن أقوله متوارٍ بين السطور، ومنكفئٌ وراءَ كواليس الضجيج، وملتحفٌ بعباءَةِ البيان الصاخب.

إنّ الأحداث الواردة في هذه الرواية واقعيّة وليست حقيقيّة. وإذا لاح أنّ هناك تشابهًا ما، في مكانٍ ما مع الحقيقة، فهذا من قبيل الصدفة لا أكثر. منعًا للالتباس، اقتضى التنبيه.

الحبُّ حادثٌ في حياة الرجُل،
لكنّه تاريخُ المرأة بكاملِه

مدام دي ستايل

الـحُـبُّ مُـواجَـهَـةٌ كـبـرَى إبـحـارٌ ضِـدَّ الـتـيَّـارِ
صَـلـبٌ وَعَـذابٌ ودُمُـوعٌ ورَحـيـلٌ بَـيْـنَ الأقـمَـارِ

نزار قبّاني

الجزء الأوّل

الإعلاميّة



١

رأيت وأنا أتمشّى بين المدافن ضريحًا كُتِبَ على حجر شاهدِه:

«هنا يرقد الزعيم السياسيّ والرجُل الصادق»،

فعجبت كيف دُفِنَ الاثنان في قبر واحد!

ونستون تشرتشل

هبَطوا الجَحِيمَ فرَدَّهمْ بَوّابُهَا إذ خَافَ مِنْ إبليْسِهِم إبليْسُهَا.

الأخطل الصغير

غرفة رقم ١٠٥

المصحّ العقلي في العاصمة

خريف ٢٠١٥

سيِّدي الرئيس،

تحيّاتي الطيّبة.. وتقديري.

وأرجو أن تغفر لعينيّ الخاطئتين.. حيث تجرّأتا وارتفعتا إلى عرين فخامتِك السامي.

أعرف جيّدًا.. لا وقت لديك لتسمع ثرثرتي هذه. فالوقت، وهكذا دائمًا، عباءَة ضيّقة على جسد الحراك الكثير. أدرك تمامًا أنّك تجاهد لتتصيَّد الدقائق والثواني، كأنّها أرانب فارّة من نارِ صيّادٍ عنيد، وأنت تقف وقفة رومنسيّة عاجزة إزاءَ كرة الزمن المتدحرجة بسرعة مخيفة إلى أسفل.. إلى المجهول! حصّة زوجتك وأولادك من زمنِك المتناثر هذا بدّدتها آلة مشغوليّات الحُكم كنثر الثلوج خارجَ الدروب، ولا عنوان لهم في هامش في زحمة أجنداتِك المتعبة. هذا قدَر الحاكم أبدًا، كما الجنديّ، يُخضِعه الواجب، حارسًا عند بوّابته وخادمًا له. ونداءُ الواجب في الضمير الشفّاف، حيث وجد! مطرقة عرّاف قاسي القلب، لا همّ له سوى تنفيذ وصايا الشريعة وحسب. هكذا القانون أيضًا.. إختراع قديم كمُخترعات البشر الحديثة، حركة بلا روح، توازنات وتناقضات لا «كهرباءَ» فيها، نظريّة رياضيّة ثار التطبيق عليها حتى أذعن لها في نهاية المطاف، قواعد لغويّة «تُصفِدُ» الفكر المجنّح، صخرة انتحار متوحّشة لملِكات الأمواج اليائسة، وأحيانًا كثيرة يا سيّدي الرئيس، سيّافٌ متحفّز ليمارس هوايته على برَكة التنزيل، والوحي المعصوم. هذا هو التاريخ.. عقل وعاطفة أبدًا يتساجلان، ديناميّة العقل المُلتهبة تذيب انكفاءَ الوجدان العاطفيّ، في النواتج الحتميّة. وانتفض مارد العقل محطّمًا قمقم العاطفة الهشّة ليبنيَ قلاع المجد الإنسانيّ. ولكنّ إنجازاته، عبر العصور، باتت ساحرة شرّيرة عجوز مسختِ الإنسان رقمًا.. وآلة خالية من دفء الذات الحسّاسة.

قد تصل إليك رسالتي وقد لا تصل، ستقرأُها ربّما، وقد لا

تفعل. ستلقي فيها نظرة كما ترمي حجرًا في بئر، ولا يُحدِث صوت الماء في نفسك شيئًا، فتحشرها في «قمامة» الحاسوب وتمضي. وأكتبها الآن ولكن.. سأعود حتمًا، من يعلم؟ فأمحوها من ملفّاتي، أو كانت مطبوعة سأمزّقها، وأنا أسمع أنينَ الورق كأنّه إيقاعٌ موسيقيّ رخيم. هل تدري؟ كلّ ما يسمعه الإنسان الطبيعيّ «كونتراستات»! «كونتراستات» في كلّ مكان.. في البيت وفي الشارع، في المتاجر والمقاهي، في الأندية والملاهي، في البحر وفي السماء، في الطبيعة وفي السياسة، ما خلا الشعر والفنّ والموسيقى. بيد أنّ المجنون يا سيّدي الرئيس، يستطيع أن «يستحلب» الموسيقى في كلّ ما يسمع، لأنّ الموسيقى هي عَينا خيالاته غير الواقعيّة. الجنون ليس بقايا عقل تداعى واندثر.. بل هو الزاوية المُخيفة في ثالوثٍ صاخب رهيب: العبقريّة والتعصّب والجنون. والثلاثة فكر منتظم.. ولكنّه يخالف الطبيعة. «خذوا الحكمة من فم المجانين»! قول مأثور، ولكنّه حقيقيّ. (أخوَت شاناي)[1] ألهمَ الأميرَ حلولاً عمليّة أدهشت عقول وزرائه. ويقول لنا التاريخ إنّ أشهر عشرة مجانين في التاريخ كانوا عباقرة زمانهم: السير إسحق نيوتن، الرسّام فنسنت فان غوغ، تشارلز السادس ملك فرنسا، لودفيغ فان بيتهوفن، والفيلسوف الألماني نيتشه... إلخ. عذرًا سيّدي، لا أريد أن أمنح الجنونَ دكتوراه فخريَّة! وهو جدير بها. فكلماتي هنا إن هي إلّا شُعاعات خافتة من أحلام يقظاتي الكثيرة.. أو رحلة من رحلات نوباتي الجنونيّة المؤلمة هي الأخرى. بيد أنّ ما أقوله الآن، على الأقلّ، له تأثير غريب.. كتأثير الإبَر التي تنحرني بها ممرّضات المصحّ اللواتي يشتغلن بجسدي كما يشتغل الميكانيكيّ بمحرّك

(١) يُحكى أنّ أخوت شاناي كان مقرّبًا من الأمير بشير الشهابي الثاني. وكان مأذونًا له بالدخول على الأمير ساعة يشاء، ويسمع الأمير أقواله بسرور.

السيّارة، وكما يشتغل الساسة. . وأدوات السياسة. . بالمواطنين! ومع كون هذه الإبَر تبدّد طاقتي، إلّا أنّ رقصات خواطري تشبه لبواتٍ تزأر في قفص عجزٍ جسديّ حزين، تمامًا كحِراك الشهوة في أفكار الرجل المَخصيّ أو العنّين.

العاقل يا فخامة الرئيس يُطيّر العقل في هذه الأزمنة السوداء، فكم بالحريّ فُصاميّة نفثتِ الأيّام المُرّة في وجدانها نسمة حياة. . فغرست حياةً ثانية تبزّ الأولى وجودًا وطموحًا. حياتان في جسد واحد ليستا بَرَكة البتّة. هما طفلان ولعبة واحدة، غريمتا حبٍّ في رجل واحد، بل هما ساديّان سجينا زنزانة واحدة ضيّقة. قال سليمانُ الملكُ الحكيم قديمًا إنّ الأحمق إذا سكت يُحسب حكيمًا، ومن ضمّ شفتيه فهيمًا[1]! فاطمئنّ يا سيّدي الرئيس، أنا كمَمت فمَ هذا الطّفل الجاهل والمريض فيّ، ولكنّي سأفسِح في الكلام أمام القديم والصّحيح. ولا تنسَ أنّ هذا القديم هو الكاتبة والصحافيّة والأستاذة الجامعيّة.

صنف آخر من التكنولوجيّات الحديثة. . يكتبك ويحفظك بدقّة مذهلة. . ولكنّه لا يشعر بك البتّة. كانت الكلمات البيضاء تتراقص على شاشة (الحاسوب الصوتيّ) السوداء عندما تتفوّه بها ريهام. هي رقصة الخواطر على أنغام الإحساس المتغرّب. لقد انتهى زمن (لوحة المفاتيح) في الحاسوب التقليديّ ليأتي زمن المفاتيح الصوتيّة. الحاسوب كاتم أسرار جيّد. . مُسلٍّ ممتع. . مُرشد رائع. . مُثقِّف مذهل. . ويكاد يكون صديقًا مثاليًّا لولا أروقتُه المُعتمة وأقبيته المُرعبة، ولولا كونه آكلة عملاقة عجائبيّة للوقت. الحاسوب مجسّم خارق الذكاء للدرامات القديمة الناشبة في الذات الإنسانيّة: الخير والشرّ،

---

(١) سفر الأمثال ١٧ : ٢٨.

الروح والجسد، الحياة والموت، النور والظلمة، الريح والتراب، الماء والنار، الشوق والخيبة، الانتصار والهزيمة، الصدق والخديعة، الحبّ والكراهية. . . إلخ. متوازيان قديمان من الثنائيّات المتحاربة لا يلتقيان إلّا بإذنه تعالى. وهناك خارج الحواسيب، طابوران آخران من الثنائيّات المتواطئة لا ينفصلان أيضًا إلّا بإذنه تعالى: الذكاء والمكر، الحبّ والجنس، الحرِّيّة والشذوذ، السلطة والظلم، الدين والتعصّب، المحبّة والمصلحة، النجاح والكبرياء، الطموح وحبّ الذات، المُصالحة والبازار. . . إلخ. هكذا عبَرَ الإنسان مخاضاتِه. . وتعيّناتِه. . حاملاً في خوابي وعيه ثنائيّاته المرهِقة هذه، كما يحمل الساحر في كيسِهِ النايَ والأفعوان في آنٍ معًا.

ريهام بدَوي أمام حاسوبها لابسة ثوبها الأبيض. والأبيض رمز السلام، وفي المستشفى شعار النظافة. . ربّما! وفوق المذبح هو عنوان القداسة. وأمّا في دور المجانين فهو بلا شكّ علامة العقل الأبيض! عقل المريض هنا، حاسوبٌ «مُفَرمَت» وصفحة بيضاء. تتدلّى من بين أنامل يُسراها لفافة دقيقة طويلة، يتداعى رمادها فوق منفضة معدنيّة مليئة بالسكاير، ويدُها اليمنى تداعب أذن فنجان الشاي بالزنجبيل الذي تهواه كثيرًا. إنّه مساءٌ لطيف هادئ. . ما خلا نقرات أمطار متناثرة على زجاج النافذة. . كأنّها أنامل روح حائمة حول الغرفة، تريد أن تضمّ حكاية ريهام بدوي إلى صدرها العاني. حكاية يذوب إيقاعها في إيقاع كلماتها الخافتة تمليها على الحاسوب، ويطبعها الحاسوب بدوره على الشاشة. الحُجرة بسيطة ذات ألوان باردة، موحشة. حمّام جانبيّ، سرير آليّ مبَرمج، طاولة من الستانلس ستيل مستطيلة وكرسيّان بلاستيكيّان، خزانة ملابس وتلفاز مسطّح كبير معلّق على الجدار. النافذة تخفي نصفَها ستارة سرياليّة الزخارف والألوان، مشرفة على

الجزء الشماليّ الغربيّ للمدينة. أصوات الأقدام الخافتة تُسمع خارج الغرفة، وأنغام هادئة لموسيقى غربيّة قديمة ذات «توزيع» حديث تنساب في فضاء الممرّات كضبابة، وتنسكب في الآذان مستحضرًا يخدّرُ العقل والأعصاب. بدأتِ الحياة تختبئ في أجحارها في المدينة، والأضواء تنبثق من العتمة كأنّها كلمات تذييل المقال، أو هي، على العكس، نقراتُ دوزنة على أوتار قيثارة الليل، قبل بداية أوپريت الظلمة. وذاكرة ريهام الصحافيّة الكاتبة تحبل بأشياء وأشياء.. والحاسوب أمامها قابلتها التي تساعدها على الوضع.

من أين تبدأ؟ ماذا تريد أن تقول؟ ولماذا تكتب رسالتها هذه؟ وهل هذا يغيّر شيئًا؟ أم أنّ الكتابة حلقة أخرى من مسلسل جنونها الذي استلهمت سيناريوهاته من حكاية حبّ ممزّقة مع جيلبير، لم يبقَ من خمر فصولها غير الدُردِيّ.. وترسّبات خيبة من محامٍ أو قاضٍ أو وزير؟ والرسالة هذه إلى فخامته إن هي إلّا رصاصة رحمة في قلب حكاية تلفظ أنفاسها الأخيرة.

* * *

في ثمانينيّات القرن الماضي. في مهبّ الحرب وفصولها الملتهبة الطويلة. في زمن ساديٍّ راح يُشوِّهُ أشياء هذا البلد الجميل، كان قلب عاشق مراهق يتشوّه، وحبّ أزغب تُحَطَّم ريشاته الطريّة بقسوة. ريهام الفاتنة.. فتاة التسع عشرة زنبقة، قدّ أهيف، عينان سوداوان مسافرتان.. شقار ثائر على تاريخ الجرمان بكامله، والشاميّة اللطيفة في أسفل خدّ الشمال كأنّها رنّة قافية القصيدة. غافلها الحبّ الأوّل، فجأة! واقتحم فارس أمير خيام عزوبيّتها المقفرة. لم تختبره.. أحاديث المراهقات حملت بريدَه إليها. بعضُهنّ ذقن نعيمَه وبعضهنّ جحيمَه. بدأت الحكاية عندما حطّت طيور أشواقها فوق غصون طلّةِ

نخله الشابّ المُحازب، في حُلّته الخضراء، وراء المنبر بين باقتي زهور كبيرتين، وشعار الحزب يزيّن واجهة المنصّة، يقول خطابَه، فسمعت فراخ الحبّ في قلبها تزقزق. مشاعر من نوع جديد بدأت تجتاح كيانها. هو الحبّ الأوّل! وعادة، يغيّر كلّ شيء، إنّه يلغي وجودًا ويصنع وجودًا آخر. جذبها نخله إلى متعة حروب الحبّ.. وهي قادرة أن تتصيّد ناظرَيه إليها، وأن توقعه في الغرام حتى. وكان نخله فَراشًا متألّقًا بتلاوينه، ومرجُ الزهور أمامه وَفر. الجمهور كبير على قدّ مساحة الباحة. في المقاعد الخمسة الأماميّة، أساتذة ومدراء وشخصيّات حزبيّة ومدنيّة، ويمتدّ الحشد الطلّابيّ وقوفًا حتى زوايا الملعب.. وفوق الجُدر المكتظّة بالشعارات الشبابيّة والحزبيّة.. وعلى السياج الحديديّ المشبّك. تتدلّى أرجل الجالسين فوق السياج بين رؤوس الواقفين مع الحائط، وعند هبوب موجات التصفيق تصفّق أرجل الجالسين فوق وتضرب رؤوس الواقفين تحت. اقتربت ريهام إلى وراء صفّ المقاعد الخامس، مباشرة في نصف الصفّ، مقابل الشابّ المتكلّم نخله، ورشقته بنظرة إعجاب.. أوجعته وألهبته في آنٍ معًا. والنظرة الموجعة تلك مضخّة طاقات سحريّة، فأجاد في الكلام وأبدع. وسرعان ما أنهى كلمته، فتلاها نشيد ختاميّ، وانتهى الحفل وفُضّ الجمع. وراح يجول بناظريه في أرجاء المكان باحثًا عن صاحبة الرشقة الموجعة، فعادت عيناه خائبتين. وفجأة! بينما هو خارج بصحبة رجُلين أخضرين هما أيضًا، عندَ البوّابة الخارجيّة تحت البلّوطة العملاقة، التي طالما خبّأت في قلبها همسات لوعة وبوحًا ووداعًا، ظهرت ريهام من وراء الشجرة كأنّها سرّ من أسرارها. فتعانقت العيون الأربعَ، ريهام ونخله، وارتعشت كهرباء الغرام تحت تأثير تصادم التيّارين. توقّف نخله ومضى رفيقاه إلى الخارج.

ـ كلمتكَ رائعة يا نخله! قالت وهي تتحدّاه بنظرتها الموجعة أيضًا.

ـ شكرًا لك يا حلوة. الله يخلّيكِ. هذا من ذوقك. هل أتشرّف بمعرفتِك؟ قال بشوق، والابتسامة تضوِّئُ وجهه.

ـ أنا ريهام بدَوي. السنة الأولى علوم سياسيّة.

ـ أهلاً وسهلاً بريهام السياسيّة الفاتنة. نحن متّفقان إذًا! أنتم الخلفيّة النظريّة والعِلميّة لكلّ ما نفعله نحن على الأرض.

هزّت ريهام رأسَها وأجابت متعمّدة أن تثير جدلاً:

ـ للأسف. لو كنتم تطبّقون القواعد النظريّة للسياسة لما كان ما كان.

دُهِش نخله بسرعة الخاطر. فمال برأسه إليها، وقال بصوت خافت:

ـ لا نظريّة قابلة للتطبيق يا حلوتي.

ـ وما الذي أتحفتَنا به اليَوم؟ سألت بنبرة مازحة، تريد إطالة عمر الكلام. فأجاب:

ـ النظريّة لعبة إعلاميّة لاجتذابِ التأييد والرأي العامّ. إنّها أسس الحاضنة الشعبيّة. السياسة في حقيقتها مهارة وليست عقيدة. السياسة هي القطبة الخفيّة، وليستِ الرسم المطرّز على وجه القماش.

ـ هه! ما أكثر أحزاب هذا البلد، وما أكثر عقائده! وهذا كلّه ليس سوى تطريز وتلوين!!

ـ العقيدة ليست قيودًا يا حلوة. إنّها جزء من «عدّة الشغل».

وكان موضوع العقيدة، في ذلك الزمن البعيد من بواكير عشقيّاتها، العُقدة التي شدّت قلبها بنخله. وصنّع الحبّ في قلبِها «عدّة شغلِه»، وراح يشتغل بها منذ حضور هذا الشابّ المُحازب في حياتها إلى النهايةِ الحزينة في المصحّ العقليّ. كان نخله النجمة الأولى المنبثقة في أوّل الليل.. ليل العاطفة المتغرّبة. ثم كانتِ اللقاءات بينهما والمواعيد، فأحاديث وسمَر، و«غيرَة وسَهَر» كما تقول الأغنية القديمة. وراحا يُرنّمان تلاحين الحبّ فوق مسارحه: السهرات، الأندية، السينما، المقاهي، الرحلات، الشواطئ، المهرجانات الفنّيّة والحزبيّة، ثم الكلام الدونجوانيّ الدافئ الطويل النفَس (وليلُ العاشقين طويلُ...) على التلفون حتى آخر الليل. ريهام ذات ميول أدبيّة، شخصيّتها عاطفيّة، يقلبها المزاج مئة قلبة في اليوم الواحد. ظنّت في نخله الفارس المنشود، وهو بالكاد كان الفصل الأوّل في دفتر تزامناتها الغراميّة الصاخبة. ستدرك فيما بعد أنّه الثمرة الفجّة التي غصّت بها في بداية صيف ليس حارًّا البتّة. كانَ شبابُ الحرب آنذاك نجومَ الساحة.. ملوكها! ولو كان واحدهم وسيمًا ومثقّفًا فهو يبزّ المطربين الفنّانين شأنًا، فيغدو قبلة أماني صبايا تلك الأيّام. أمّا بالنسبة لنخله، فيدركُ جيّدًا أنّ مشوار جهاده في هذه الدنيا لا زال في بداياتِه. والحرب مستمرّة. والقضيّة لا زالت طريدة نُشّابات الرؤى والأهداف. بيد أنّهم، ويا للأسف! طاردوا القضيّة حتى طردوها في نهاية المطاف، كزانيةٍ.. ورجموها خارج المحلّة. سبحَت قصّة الحبّ المشبوب هذه شهورًا على ألسنة الناس حتى ذيّلت الأيّام لها نهاياتها. فالزمن يصنع تاريخ البشر، هو الحرف البادئ وهو نقطة الختام. تذكر ريهام جيّدًا ذلك اليوم الضائع في روزنامة الحرب الطويلة.. اليوم الذي فطم لقاءاتها

بنخله، عشيّة ذهابه إلى الحرب، في آخر الحيّ، وراء جدار الثكنة ذي الأحجار الطبيعيّة البرتقاليّة. هناك كتب كلّ منهما على الورقة: «بحبِّك يا ريهام» و«بحبَّك يا نخله»، وطوى نخله الورقة بعناية وأدخلها بين الحجرين في الجدار. وقال: «هذا الجدار الصامت شاهد على حبّنا. إذا كان هناك نصيب.. سنلتقي يا ريهام ونقرأ هذه الورقة ثانية». وكانت القبلة الأخيرة الطويلة بينهما حتى بدأت تمطر.. (خِلصت القصّة بتاني شتي تحت الشتي ترَكو بعضون) الله يا فيروز! كأنّها معموديّة الفراق، وإعلان بَرَكة السماء لنهاية حبّ حائر. وكان العناق طويلاً.. صامتًا.. تتوحّد وتتماهى الدموع فيه بالأمطار. ثم عادت إلى البيت ومسحت دموعها. وأجرت الأيّام في قلبها جراحة، كما دائمًا، وانتزعت منه هذا المرض الغريب الذي يقتحم وجودنا بالقوّة، بوقاحَة! ودائمًا، ويخرج بلا إذن، هكذا.. سارقًا من رحلتنا في هذه الدنيا قطعة من عمر. ونسيَت ريهام الورقة، وتابعت قوافل الحرب مسيرتها. عادَ نخله بعد سنتين اثنتين وهاتف ريهام، وقيل له إنّها تواعد اسكندر، طالب رياضيّات سنة أخيرة. فعاد واختفى ثانية.. انشقّت الأرض وابتلعته. كأنّ اتّصاله هذا رسالة تعزية بالحبّ الذي مات بينهما. وانتهى الفصل الأوّل من حكاية القلق الطويلة. ولكنّ الشابّ اسكندر كان مقنعًا، وطلب الاستقرار. وشُدّ ما كانت دهشتها! حين باح لها هو الآخر بحبٍّ طفيليّ نبت على «كعب» علاقتها بنخله، حبّه هو وحده الذي لا يشاركه به أحد. وكم من قصص حبٍّ وُلدت.. ثم نمت.. وعصفت.. ودمّرت.. وشاخت.. وماتت.. وما سمع أحد صخبَها وضجيجها. للحبّ، أحيانًا، أنياب وأظافر حادّة! كما يفترس النمر الغزالة الصامتة، هكذا الحبّ يفترس أبطاله الصامتين بوحشيّة. حبّ

اسكندر غرسته يدُ الغيرة، وسقاه ليل الحرمان، وغذّته نار الشوق. للحبّ تعويذة مخيفة.. إنّه يمسخ المرأة رجلاً، مرّاتٍ كثيرة، والرجلَ امرأة! لقد باح اسكندر لريهام بحبّه العميق الذي مَسَخه، هو الآخر، متلصّصًا ذليلاً عند شبّاك السعادة الممنوعة عليه. خبّرها عن ذلك المشهد الذي جرح ناظريه وقلبه في آنٍ معًا، عندما مارس نخله العادّة السرِّيّة أمامها ذات يوم من أيّام حزيران، في حديقة الثكنة، وكانت الأعشاب عالية تكاد تلامس غصون أشجار اللوز. كان اسكندر يسترق النظر من تحت سقيفة درج الثكنة. وطمّشت هي عينيها براحتيها كأنّها لا تريد أن ترى شيئًا، وكانت تنظر من خلالهما: «عيب يا نخله. عيب يا نخله. عيب.. توقّف.. توقّف.. ذَكَرُك ثخين! خصيتاك صغيرتان» وكلماتها هذه ترقص على مستوى إيقاعات شوق المرأة إلى الرجل. ولوّن الخجل وجنتيها مئة لون ولون عندما حدّثها اسكندر بما سمعه ورآه.

ثم خفقت أجنحة الزمن بسرعة إلى الأمام وانتهت مرحلة الجامعة. وخطبا، ومرّ نال يقارب العام على الخطبة. هو يعمل مدرّس رياضيّات ويخطّط لفتح مكتبة، وهي تعمل في الصحيفة، بعد أن عدلت عن السياسة ودرست الآداب. ولا يدري اسكندر كيف أصبحت مسؤولة عن الصفحة الثقافيّة، وخلال أسابيع قليلة! لمْ تخبره آنذاك، ولكنّه عرف الحقيقة.. بالتقسيط.. كأنّها كلمة سرّ.. ومتأخّرًا.. والزوج آخر من يعلم. في صيف العام التالي، كان الزفاف، تزوّجا. حياة ريهام كانت كحياة أيّ صبيّة جميلة مثقّفة في هذا البلد، لا أحلام كبيرة ولا طموحات. كانت ناجحة في دراستها، سريعة الخاطر، جذّابة. والفتاة الجميلة الموهوبة والمثقّفة تشبه حبّة عنب شهيّة، تحَوّم

حولها دبابير السياسة والشأن العامّ. ثم وَلدت ريهام بنتًا جميلة أسمتها (رنين)، وكبرت رنين، وولدت أيضًا صبيًّا أسمته (نجاح) لأنّه تزامن مع صدور كتابها الأوّل الذي لاقى حفاوة إعلاميّة طيّبة: (أغنية آخر الليل) باللغة الإنكليزيّة، تحدّثت فيه عن الشباب المقاتلين في الحرب، وكيف انتهت حياتهم بعد الحرب إلى شتات وتيهٍ وخيبة. وتزامن نجاح الكتاب أيضًا مع افتتاح مكتبة زوجها الكبيرة. وكانت البهجة ربيعًا يتدفّق. لم تكن ريهام تدري أنّ سنواتها القليلة هذه هي شهر عسل عمرها، لن تذوق بعدها من حلاوته شيئًا في رحلة غربتها في هذا العالم. عُرض عليها فيما بعد أن تدرّس (الكتابة الإبداعيّة) في قسم الأدب الإنكليزي في الجامعة، فقبلت بسرور. وتحوّلت حياة الزوجين إلى معركة على جبهات متعدّدة: البيت، الأولاد، المدرسة، الجامعة، الصحيفة والمكتبة.. ثم الكتابة! هي تدرّس في قسم الآداب واسكندر في كلِّيّة العلوم. وكانت كلّ هذه الآكلات تقضم دفءَ الحياة العائليّة قطعة وراءَ قطعة. أصبح عمل ريهام غريمًا أوّلَ لاسكندر. وكان اسكندر المسكين يشعر يقينًا، ويومًا بعد يوم، وبغيرة الرجل المجروحة، أنّ الأيّام تيّار يجرف زوجته إلى دوّامة مخيفة. وعندما كان يقترب منها من وراء ظهرها معانقًا خصرها، كانت تقول بجفاء: «اسكندر. توقيتك غير مناسب» فيبتعد كمِدًا، وفي قلبه حيرة خائفة، وقلق ثقيل.. بدأ يتنامى مع الأيّام.. صامتًا كنموّ الخمير في قلب العجين. وذات يوم، أراد أن يعبّر لها عن حبّه وشوقه، فأحضر إلى البيت في ذكرى زواجهما قالب حلوى مكتوب عليه (بحبِّك)، مع قطعة من الحليّ هديّة في علبة أنيقة. فنظرت ريهام إليه نظرة استخفاف، وقالت:

ـ لست خلّاقًا يا اسكندر في الرومنسيّات، كما عهدتك دائمًا. فسأل بصوت عال، والحيرة تُرجِف قامته:

ـ في شي غلط يا ريهام؟! أنا خايف عا حياتنا. وأجابت هي باقتضاب وذكاءٍ هروبيّ، وبصوت عال أيضًا:

ـ ولدانا يكبران يا اسكندر: هما الآن أولى من أيّ شيء. فأوصدت باب الخيبة والمرارة في وجهه بقساوة. إلى أن زرعتِ الأيّام القنبلة الموقوتة في أساس بناء هذا البيت. ساعة «منحوسة» هي.. يومَ كانت توقّع كتابها الثاني (قلق الذاكرة)، في صالة المؤتمرات في اليوم الأخير من معرض الكتاب. إعلاميّون ورجال سياسة وشأن عامّ، ووجوه لبست الوقار قناعًا تخفي به النزوات الماكرة. والكاميرات تشبه حشرات عملاقة منتصبة في كلّ مكان. وكان ختامُ الحفل كلمةً لصاحبته تحدّثت فيها عن موضوع الكتاب، وهو نوع من السرد يتأرجح بين السيرة الذاتيّة والرواية والخواطر والتحليل الاجتماعيّ والسياسيّ. وتبدو الكتابة في هذا الزمن الأخير جامعة بين أنواع الكتابة كلّها في كتاب واحد. لويس آراغون في كتابه (مجنون إلزا) وهتلر في (كفاحي) وجبران في (العواصف) والعقّاد في (أنا) وتوفيق عوّاد في (حصاد العمر) وغوته في (من حياتي)... روافد كتابيّة متنوّعة تصبّ في بحر السيرة الذاتيّة. وقد تكون هذه من أكثر أنواع الكتابة غنًى وإمتاعًا. يبدو الكتاب، في البداية، أحيانًا، كأنّه سيرة ذاتيّة ثم يتحوّل إلى رواية، فآراء وخواطر، ثم تاريخ فكر، ودراسة تحليليّة ونقد، إلى أن ينتهي بخلاصة ما، وربّما لا. جلست ريهام وراء طاولة تكدّست عليها رزمات الكتب الخارجَة من المطبعة بغلافٍ بنفسجيّ جميل، وراحت توقّع على الورقة الأولى لكلّ من يشتري الكتاب. ويقترب منها سيّد

أنيق وسيم، بدا لها في منتصف أربعينيّاته. نظرت إليه ولمْ تعرفه، لم تدْعُهُ إلى الحفل! ولكنّ عينيه الجريئتين كانتا تفضحانها أمامه، كأنّهما الأشعّة السينيّة.. قادرتان على اختراق أحشاءَ الإنسان وأحلامه.

ـ أنا جيلبير عَزوري. ألف مبروك. أتمنّى لك النجاح والتألّق. أنتم الصحافيّين لكم قدرة على قول الأشياء بطريقة مميّزة.. ومؤثّرة. قال. فأجابته بعفويّة وهي تنظر إليه، نظرة الغزال في عينيّ النمر الذي يفترسه، خائرة إزاء جرأة العينين:

ـ شكرًا لك سيّد جيلبير. ولكنّك ضيف هذا الحفل، ويسرّني جدًّا حضورك.

ـ أنا مدير عامّ، وأهتمّ بالعمل السياسيّ.

ـ ما إنتو السياسيّي أشطر منّا «بالحَكي»! ما شالله عليكم.. سجالاتكم تقيم البلد وتقعده ثانية.

وراح يغوص في لجين جبهتها وخدّيها. من بعيد.. وراء المنبر يخبو الجمال في المسافة.. كالشراع في الأفق. ولعلَّ البُعد يجعل الجمال قبحًا، أحيانًا، والقبح جمالاً. وعن قرب تقفز التفاصيل الصغيرة من مخبئها، كدَوزنةٍ تبدو، لوهلة، متناثرة متنافرة، وسريعًا تُشكّل بانسجامها وإيقاعاتها ما يدهش. هناك نوع من الجمال يشبه فخًّا للإحساس.. سرعان ما ينكفئ وينساك. وهناك نوع من الجمال يفجّر فيك لغزًا يُبقي العقل لاهثًا لحلّ أسراره. بيدَ أنّ ريهام لا تبدو صاخبة، في البداية. وشيئًا فشيئًا.. تجد نفسك أسير تينك العينين السوداوين الواسعتين والشعر الذهبيّ المجنون. تبدو ريهام قليلة الاهتمام بمظهرها. وأكثر الجمال تأثيرًا هو الذي لا يعي نفسه. حياة

الجمال في وحشيّته، فإذا دُجّن مات. قال أحدهم إنّ المرأة كثيرة التبرّج تشبه حشرة الـ «أمّ ٤٤» التي كلّما تأمّلت أرجلها الكثيرة، لتعرف أيًّا منها تحرّك أوّلاً، عجزت عن المشي. وهكذا المرأة الناسية مظهرها هي امرأة حرّة. . واثقة ومنطلقة.

ـ أنتِ أستاذة الكتابة الإبداعيّة في الجامعة، أليس كذلك؟

ـ أجل. يبدو أنّك تعرف الكثير سيّد جيلبير؟

ـ لقد سجّلتُ اسمي كتلميذ مستمع في حصّتِكِ، أتمانعين؟

ـ أنت ظريف! وهزّت رأسها وهي تبتسم.

ـ لست أمزح. أريد أن أدرّب نفسي في الكلام والإلقاء.

ـ ولكنّي أستاذة أدب إنكليزي!

ـ لا يهمّ. آخذ منكِ المبدأ وأطبّق في العربيّة.

ـ العربيّة الفصحى صعبة.

ـ الخطابة بالعامِّيّة هي موضة هذه الأيّام يا أستاذتي. لن آخذ منك وقتًا. الجميع هنا يحتاجون لتوقيعك. هذه بطاقتي. نلتقي في الجامعة بعد أسبوعين.

وكان هذا اللقاء بالنسبة لريهام بداية مرحلة «ترهّب عقليّ بطيء» سوف ينتهي حتمًا في أدياره. بعض الناس الأقوياء يقتحمون حياة الآخرين فقط لأنّ عندهم أدوارًا شاغرة في مسرحيّاتهم، أو عندهم معادلاتٍ رياضيّة تنقصها بعض الأرقام «المجهولة»، أو جملة موسيقيّة تنقصها بعدُ اللازمة. وأمّا من هو هذا الإنسان، وماذا عن حياته ومعاناته وآلامه. . فيبقى هذا خارج حسابات الربح والخسارة. الناس الأقوياء يخشون العواطف والضمير لأنّه فقط! يُنفق من حساب

التخطيط زمنًا ضائعًا، لا أكثر. بمعنًى آخر لا وقت لديهم للمشاعر والأخلاق، والنجاح دائمًا حليف القوّة. المشاعر والأخلاق والإنسانيّة أثقالٌ يحملها الرياضيّ أثناء التمرينات، ولكنّه يرميها بعيدًا في حلبة السباق.. وينظر الناس إلى النجاح، في نهاية المطاف، وليس إلى أدواته. الناس دائمًا مع الظافر. دخل جيلبير عَزوري حياة ريهام بَدَوي بقوّة مفاجئة، وكان حليفَه الجيّد في التمهيد لهذا الدخول فتورٌ موحش، تعصف أرياحُه بين عالم الأرقام الذي هو عالم اسكندر زوجِها، وعالم الكلمات الذي هو عالمها.

لا تدري ريهام متى زحف جراد الجفاف إلى ربوعهما ـ هي واسكندر. لا حادثة، لا خصام.. لا نقطة ارتكاز «موضوعيّة» أرَّخت لبداية العهد الرماديّ بين الإثنين. بدأت الأرقام تتحوّل إلى أصنام مرعبة، والعاطفة المجنّحة إلى جنوح يُرفرف خارج الفُلك، ولم يجد بعد غصنَ زيتون يحطّ عليه. التفاهم السريع بين «عالمَين» أحيانًا، لا يبشّر بالخير. وثمّة غرام ناريّ، أيضًا، ينتهي بعد الزواج بطلاق قريب. اسكندر عشق ريهام، جذّابة مثقّفة، و«متكوّنة» ذاتيًّا. وهي قبلت به ولم تحبَّه. بيدَ أنّ الوجدان القلِق لم يعثر بعد على مرآةٍ آدميّةٍ تعكس صورة جوهره. قال أحدهم إنّ الزواجَ بلا حبّ صداقة موثّقة بالقانون أو الدين. يبدأ الزواج عادة مشعًّا وسرعان ما يخبو في عتمات الضجر. تعود له حيويّته ثانية، مع الأولاد، وعند بعض المُحبّين هم مقبرة الحبّ، فيتحوّلون إلى عباءة للحبّ القديم بتلاوين وحُلّاتٍ من نوعٍ جديد. الأولاد عمر ثانٍ للحبّ. ولكن ماذا حيث لا حبّ؟ اسكندر في المكتبة والرياضيّات وعالم الأرقام، وريهام بين الجامعة والصحيفة والكلمة المجنّحة. وتأتي أنيسَة، قريبة ريهام لأبيها، إلى البيت لتهتمّ بالتنظيف والطبخ وحاجات الولدين. لقد حجب هذان الوالدان عن

ولديهما ما هو أعظم من الحاجة الجسديّة، لأنّ النموّ في ناحية دون سواها، بشكلٍ غير متوازن، نموّ كاريكاتوريّ ممسوخ يؤسّس لحياة تبدأ منذ الطفولة رحلة تشوّهاتها.

ـ أنيسَة.. هذه كلّها تلزمنا اليوم للمطبخ. خذي المال من المكتبة وأعطي الفاتورة لاسكندر. إعملي ثلاث صينيّات بيتزا اليوم، وشمّسي الملاحف، ولا تنسي الولدين في صفّ الموسيقى عند الساعة الرابعة والنصف.

تقول ريهام كلماتها هذه بعد أن تضع اللائحة المكتظّة بالحاجات المطبخيّة، وتمسك جزدانها بيد والفايل بيدها الأخرى وتخرج إلى الجامعة. ليس بسيّارة اسكندر، بل بسيّارة أجرة. وتترك البيت وراءَها في عهدة أنيسة.

ـ أين ريهام؟ قبل طلوع الضوء تختفي! الجامعة، الجريدة، الأوراق، الكتب!.. إنّي أغار من الجريدة والكتب يا أنيسة. ريهام مهووسة بما ينسيها زوجها وأولادها. كلمات اسكندر لأنيسَة وهو «يتصَحصَح» منزعجًا من تقليد غريب موحش يسير عليه البيت منذ زمن. حركة بلا بركة. جليسُه الوحيد في صُبحيّاته على فنجان القهوة ورقة أرقام خرساء.. كأنّها، أحيانًا، تمدّ لسانها وتُجحِظُ عينيها ساخرة من وحدته الكئيبة. ولم يخطر في باله يومًا، أنّ أرقامه هذه هي «بُعبع» ريهام. تركته، أيضًا في هذا الصباح، مع أرقامه وقفزت وراءَ حيرتها المسافرة عبر المجهول. الولدان يسمعان تذمّرات الوالد، يُكثران دائمًا من السؤال عن أمّهما ووالدهما. وتبقى، أبدًا، سيّدة المنزل، زهرة البيت، ضرورةً صباحيّة يوميّة لترشف منها فراشاتُ الأسرة طاقاتها ليوم عمل طويل.

ـ زوجتك يا سيّدي مُدرّسة جامعيّة، والأجيال تنتظرها. وأنا أبذل كلّ ما بوسعي للاهتمام برَنين ونجاح، ولا ينقصهما شيء. تقول أنيسة لاسكندر مؤاسية.

والصورة تنسخ أختها في طابور مخيف من الرتابة القاتلة: الزوج غارق في حساباته وأرقامه، والزوجَة في أوراقها ومقالاتها، والولدان محاصران في «رفاهٍ خادع» لا يؤنس ولا يُروي طفولتهما المتوَثّبة. يلوم اسكندر زوجته على ضعف اهتمامها بالأقارب والواجبات. حدود مساحة علاقاتها الجامعة والصحيفة. ودورَة حياة هذين الزوجين كدورة شراع يقترب ببطء إلى تخوم الدوّامة. وما الهدوءُ الظاهريّ الذي يراه كلّ الناس غير سكون ما قبل العاصفة. يومًا بعد يوم تلتهب الحاجة في ذاتِ ريهام إلى رجُلٍ على قدّ وجدانها الرحب.. وخيالها المنطلق. والأحلام المستحيلة.. كواسرُ تحوّم فوق جسد يلفظ أنفاسه، ونسور تريد أن تطير به إلى الفضاء لترميَ به إلى أسفل. كسكران يقود سيّارة، هكذا الأحلام الصعبة تسوق الذات القلِقة. كيف السبيل إلى التخلّص من هذه الأحلام؟ تكون البداية عادة فكرة، والفكرة تصبح إلحاحًا، والتعوّد على الإلحاح يصبح حاجَة، والحاجة حقيقة كالصخور! والحاجات الحقيقيّة أحيانًا جلّادٌ قاس عنيد. كان اسكندر وريهام، في بداية الزواج، يستحمّان معًا تحت الدوش، ويستمتع واحدهما بجسد الآخر. واعتادت بعد ذلك أن تفركَ له ظهرَه، من وقت لآخر، حين يأخذ الدوش لوحده. ولكنّها بعد سنوات الزواج القليلة في كَمِّها والطويلة في همِّها، شعرت كأنّها انتهت كأنثًى! هكذا بسرعة! الكتابة والتدريس إدمان آسر.. ومخدِّرٌ قاتل للشوق والرّغبة في الجنس. بدل أن تبرّدَ الأرقامُ محرّكَ اسكندر وتشعل الكلمات أشواق ريهام، حدث العكس! لقد سَحَرَ لريهام «فانوسُ» الكلمات عشيقًا بديلاً. واسكندر

المسكين أراد أن يحطّم أصنام الأرقام والحسابات، وأخفق. لقد أدرك أخيرًا، وبعد فوات الأوان، أنّ عبادة الأصنام خيانة في حقّ زوجته.

وذات مساء، كان اسكندر في الحمّام يأخذ دوشًا. شعر بحاجة ملحّة إليها. ناداها:

ـ ريهام. أرجوك تعالي افركي لي ظهري. قالها ليس بدلع، بل بما يشبه الأمر. ودخلت الحمّام، فرأت شيئَه منتصبًا، وقد تعمّد إبراز ذكورَتِه الملتهبة إليها. عرفت ما يريد. فقبضت على ذَكَره كما تقبض على شوبك العجين، وخلال دقيقة قذف قذفًا قويًّا. وذهلت هي من سرعته! هو الذي كان قبلذاك يحافظ على نفسه مدّة كافية حتى وصولها إلى الذروة. فأدركت أنّه يشتاقها بعمق. فأرسل صرخة عالية من قوّة النشوة. وسمِعا رَنين تنادي من خارج الحمّام:

ـ بابا! ماما! ما به بابا؟! وأجابت ريهام:

ـ لا شيء يا عزيزَتي. لقد قرصتُ البابا في ظهره.

ولكنّ اسكندر يعرف جيّدًا في قرارة نفسه أنّ ريهام لم تفعل هذا عن رغبة.

ومرّ بعد ذلك الأسبوعان، كلّ دقيقة بسنة! ما الذي حدث في داخلها؟ ريهام لا تعرف. انفجار غريب من المشاعر الحذِرة لم تذق مثلها قطّ. «ترى ماذا يُريد جيلبير هذا؟ هل هو راغب حقًّا في دراسة الكتابة الإبداعيّة؟! أم أنّه مُعجب متوارٍ وراءَ ادّعاء تافه»؟ «الرجل أربعينيّ ولا بدّ هو متزوّج وله أولاد» تقول في سرّها، «يكفي تفكير بهذا السياسيّ الناشئ، فلأقفل هذا الشبّاك علّ منه ريحًا لا بَرَكة فيها». حاولت أن تنسى.. ولكنّ القلق الحذِرَ بات زائرًا وقحًا ثقيلاً.. يطرق شبّاك خواطرها كلّما رمت رأسَها فوق وسادة. والإنسان يكون دائمًا،

حيث تكون خواطره، عندما يبدأ في الاستسلام للنوم. هي كانت مع جيلبير. لأنّ كلّ وسادةٍ خبّأت صورة جيلبير تنتظرها. وفي بداية الأسبوع الثالث يوم الاثنين، كان صباحًا غير عاديّ. كلّ دقيقة فيه لها وقعها وتواقيعها.. وجدت نفسَها تقف أمام المرآة تسألها ما هي الحُلّة؟ تجهل ذوق هذا الرجل، فاختارت زيّ الصبيّة المثيرة. مهما كانت أذواق الرجال في المرأة، يبقى الجنس نقطة تقاطع كلّ الشهوات. جينز ضيّق وكعب عال وقميص أخضر فاتح، وفولار مزهّر يمرح حول العنق الأسمر الناعم بغنج، مسحة بسيطة من الحمرة، وضربة كحلة زهريّة اللون حول العينين السوداوين، وسترة ربيعيّة قصيرة زيتيّة اللون. كان الانسجام الجماليّ أخّاذًا ينمّ عن ذوق وثقافة. وعندما نزلت من سيّارة الأجرة ودخلت حرم الجامعة، شعرت بنُشّابات العيون الفضوليّة تصوّب نحوها. كانت قبلة عيون وقلوب الشبيبة، بل أصبحت رمزَ الأنوثة في الجامعة. حاولت إيقاف دقّات قلبِها وأخفقت. كانَ اسكندر والولدان أبعد الطيور عن فضاء وعيها. ولم تشعر بتأنيب الضمير! فالفَراش الذي يطير من زهرة ويحطّ على أخرى، عابثًا بعطرها وورقاتها، لا يشعر بتأنيب الضمير. والولد الذي يرسم فوق الورقة خطّين ثم يمزّقها ليرسم خطّين على أخرى ويمزّقها أيضًا، لا يشعر بتأنيب الضمير. كأنّ نوعًا غريبًا من هيستيريا المغامرة شرع يعصف في وجدانها الضّجِر. هي غير قادرة على تحديد الهدف.. والقلقُ الممتع، يصبح أحيانًا عند بعض النساء، كأنّه النشوة.

من عادتها أن تنتظر التلاميذ في الحصّة جالسة وراء مكتبها، كأنّها ملكة على عرشها. سِعة الثقافة والإلقاء الجذّاب وسرعة الخاطر والوجه الفاتن والقدّ اللدن.. إكسير مخدّر يسحر الشباب ويحرّك غيرة الصبايا. وتبقى المعلّمة، أبدًا، المنافسة الأولى لتلميذاتها في الجاذبيّة

والجمال. وشدّ ما كانت دهشتها! عندما دخلت إلى غرفة الصفّ، فوجدت السيّد جيلبير عَزوري جالسًا في مقعد خلفيّ قرب النافذة المشرفة على الباحة، التي يفصلها عن المنحدر الطبيعيّ باتّجاه المدينة سياجٌ وشِبَاك حديديّ عال.

ـ سيّد جيلبير؟! قالت بدهشة.

ـ أنا تلميذكِ الآن أستاذتي. أحبّ لو تناديني جيلبير «حاف».

ـ أهلاً وسهلاً بك سيّد جيلبير في حصّة (الكتابة الإبداعيّة).. يا للمفاجأة! إسمع.. ما رأيُك لو أقدّمكَ للتلاميذ؟

ـ لا. لا. أرجوك لا أريد بروتوكولات.

ـ بالمناسبة في أيّ وزارة أنت مدير؟

ـ ستعرفين ما هي وظيفتي في الانتخابات.

ـ لماذا؟ سترشّح نفسَك للانتخابات؟ قالت والدهشة تشدّ قسمات وجهها، فتبرز جمال سواد عينيها.

ـ أجل. ولهذا أنا هنا سيّدتي الجميلة.

ـ أنا لست مراهقة. كلمات الغزل لا أطرب لها.

ـ ليس من عادتي الغزل. الغزل مقبّلات الحبّ.. وهي ريائيّة بعض الشيء. أنا أسمّي الأشياء بأسمائها.

ـ ولكنّي أعلّم الكتابة الإبداعيّة هنا لا الخطابة الانتخابيّة، قالت.

ـ حبّذا لو كان في بلدنا معاهد للخطابة. هذه منتشرة في الغرب. وطلّابها من رجال السياسة والاقتصاد والدين، ومدراء الشركات والمؤسّسات. يجب على القائد، دومًا، أن يكون حاضر الكلمة والبيان، لكي يكون مقنعًا.

ـ هناك كتب تعلّم هذا الفنّ، وهي موجودة في كلّ مكان.

ثم رنّ الجرس في باحة الجامعة.

ـ سيحضر تلاميذكِ. أرجوكِ لا داعي للمقدّمات بشأني، قال جيلبير باقتضاب.

ـ حسنًا كما تريد. ولحسن حظّك موضوعنا اليوم، هو: عناصر الجمال في الكتابة، قالت له مشجّعة.

وخلال دقائق، راح التلامذة يفدون ويجلسون كلٌّ في مقعده، وعيونهم تحدّج هذا الرجل الذي يكاد يكون في عمر والدهم. حلّة سوداء أنيقة وسكسوكة نصف شائبة وسالفان طويلان، والشعر الأثيريّ اللمّاع مشدود إلى الوراء حيث ينتهي بعقدة «ساموراثيّة» لطيفة. وما إن جلسَ الجميع حتى وقف جيلبير، وقال:

ـ أقدّم نفسي إليكم أيّها السادة. أنا جيلبير عَزوري طالب جديد مستمع وليس ملتزمًا. أرجو قبولي بينكم ناسين فارق العمر بيننا. فقالت ريهام وراءَه:

ـ أهلاً وسهلاً بك سيّد جيلبير. دعونا نقدّم ترحيبًا. وصفّقت فصفّق الجميع معها. وابتدأت الحصّة.

* * *

بعد أيّام، مساءً، وبينما كانت ريهام جالسة في المطبخ تتناول العشاء، وحدَها كالعادة، رنّ الهاتف. . أجابت من سمّاعة الهاندي في المطبخ:

ـ آلو.

ـ آلو. أنا جيلبير أستاذتي العظيمة. قال الصوت الرجولي مداعبًا.

ـ سيّد جيلبير كيف حظيت برقمي؟! كانت دهشتها ممزوجة بفرح شجاع يُمثّل دورَ متواضع.

ـ حْزَري يا معلّمتي.

ـ من الجامعة طبعًا.

ـ لا.

ـ كعيت.

ـ من دار النشر الذي رقمه وعنوانه على بطاقة الكتاب. هل نسيتِ؟ أنا الآن أقرأ في كتابِك.

ـ أوه.. فعلاً نسيت. وما رأيُك؟

ـ لديّ سؤال.

ـ تفضّل.

ـ تقولين يا أستاذتي في الصفحة ٣٥ إنّ لحُبّ الماضي نكهة خاصّة، وحبّ الحاضر أيضًا، وكذلك الحبّ الذي سوف نذوقه في المستقبل، له نكهته المميّزة.

ـ صحيح..

ـ سؤالي سيّدتي: هل هذه النكهة المميّزة مرتبطة بالزمن أم بالشخص المحبوب؟

ـ لا بالزمن ولا بالشخص المحبوب. لم تحسن قراءَة الكتاب، أجابت ريهام ناسية كلّ ما حولها.

ـ كيف؟ أحتاج توضيحًا.

ـ إنّها مرتبطة بالظروف التي قام فيها هذا الحبّ. الظروف

جيلبير.. هي «الـ Palette» التي مُزجت بها ألوان هذا الحبّ وأبدعته. الظروف هي اليد التي شكّلت وروده. بالنسبة للمرأة تذوب الأشياء كلّها في لحظة الحبّ.. تمامًا كذوبان الكلمات عندما تتلاقى الشفاه الأربع. الظروف هي غذاء الحبّ. الغيرة.. الشوق.. الأمكنة.. الأسماء.. اللون والرائحة، الموسيقى، موضة الثياب وتسريحة الشعر، الأحداث المحيطة سياسيّة واجتماعيّة. رائحة عطر أحيانًا تقيّدنا في خزانة الغرائب، وتسافر بنا جيلاً إلى الوراء. فنعيش للحظات قليلة جدًّا، كالحلم، ما أشقانا وأبهجَنا لشهور أو سنوات، وتحوّلَ إلى دُرديٍّ في قعر الذاكرة. وإذا تكرّر ظرفٌ ما فإنّه يستحضر معه الحالة الوجدانيّة من «القمامة» التي علكتها يد النسيان منذ زمن بعيد.

ـ ما هذا؟ سؤالي شكّل مادّة محاضرة هو الآخر!

ـ الظروف يا جيلبير هي «الـ Negatif» غير المُظَهّر لحياتنا الحقيقيّة، لأنّها التحضيرات التي تُعمَل في الكواليس لنؤدّي، نحن في يوميّاتنا وجدول حياتنا الطبيعيّ، أدوارَها الحقيقيّة.

ـ أنت تنظرين إلى الحياة بطريقة لا تشبه الآخرين.

ـ لا تنسَ أنت تلميذي. ويجب عليّ أن أقدّم لكَ المُدهش والطريف.

ـ بالمناسبة.. كان الدرس الأوّل جميلاً.

ولم يكن هذا الحديث الهاتفيّ الشفّاف عصيًّا على جهاز استشعار الخيانة لدى الزوج اسكندر. لقد طوّرت فيه الغيرة نظامًا ترصّديًّا مخيفًا لكلّ أحاديث زوجته على الهاتف. وعندما يسألها عمّن تحادث كانت تجيبه باقتضاب «في الصحيفة» أو «في الجامعة». ولكنّ ترصّدات

حدسه أنبأته أنّ «الصحيفة» و«الجامعة» صندوقتان خبّأت زوجته فيهما أفاعي جنوحاتها المجنونة. وهما اللعبة الظاهريّة فوق الطاولة التي تخفي حقيقة البازار من تحت. وكم هي المرأة حاذقة في «الظاهريّات»! ريهام تنساب من بين أنامل اسكندر كالزئبق ولا يقوى على الإمساك بها، وهو سيّد الأرقام والمعادلات الرياضيّة الصعبة. بيد أنّ عقدة ريهام لا تحتاج إلى الرقم الصعب لحلّها.. بل إلى الحضور المدهش، لكنز ثمين، في كهوف ذاتها «العذراء» كغاباتٍ أمازونيّة بعيدة. والحضور المدهش في مستحيلات وجدانها بات الآن، وبحتميّة وقحة، جيلبير عَزوري.

ـ إنّي أتّصل بكِ الآن يا ريهام، لكي أدعوَك كصحافيّة، إلى حفل عشاء يقيمه الحزب على شرف المنتسبين الجدد في المُجمّع الثقافيّ. تابع جيلبير الكلام. ورتّبتُ أن تكوني ضيفتنا على الطاولة. فقالت والبهجة تسوق الكلام:

ـ طبعًا سيكون الحضور الإعلاميّ كبيرًا؟ سألت ريهام وكلماتها تتمايل على وقع الموسيقى الراقصة في داخلها.

ـ بالتأكيد. وأثق بك.. وبقلمك الساحر في تغطية الحدث.

ـ الله يخلّيك، هذا من ذوقك. حسنًا قبلت الدعوة. وأشكرك لثقتك بي، قالت ريهام.

وحمل بساطُ الشوق مساءَ الحفل كأنّه رسول مطيع. وبرزت ريهام في جاذبيّة متدفّقة، قِرانٌ خلّاق بين الستايل التقليديّ والألوان الصاخبة. المكانُ فسيح وأضواؤه كثيرة والكاميرات نعاماتٌ جامدة.. أصنام ومعبودات وثنيّة، تأخذ منك حياتك ولا تعطيك شيئًا. يدخل الوافدون كلّ بصحبة شريكه زوجًا كان أو صديقًا، والأناقة هي الضيفة

الأميرة التي لا شريك لها هنا. شعرت ريهام كأنّها شذّت عن القاعدة! فكان شفيعَها كونُها صحافيّة، وحضورُها حضورًا إعلاميًّا. كان جيلبير ينتظرها عند المدخل الكبير ذي المِساحات الزجاجيّة العملاقة. بناءٌ حديث الهندسة تمّ إنجازه منذ سنوات قليلة، تعدّدت صالاته ومسارحه بتعدّد وظائفها. المرسح الكبير نصف دائرة، تتقدّمه المكبّرات الصوتيّة كأنّها أبراج حصن منيع، تدور المقاعد قبالته أنصاف دوائر، كالدوائر التي تُحدثها رمية حجر في الماء الساكن. وبين نصف دائرة وأخرى، تتناثر الطاولات ذات الأحجام المختلفة، وعلى إحداها جلس جيلبير وريهام إلى جانب شخصيّتين بارزتين وزوجتيهما. النشيد الوطني هو مازة الجلسة، كلمة لعرّيف الحفل، ثم تقدّم أحد شعراء العامّيّة وألقى قصيدة، تلاها صوَر وأفلام قصيرة لمناسبات ومحطّات حزبيّة هامّة في تاريخ الحزب، والوطن. ثم كانت الكلمة النهائيّة لزعيم الحزب. وأصداء الحفل ليست بشيءٍ جديد بالنسبة للمجتمع. فالأحزاب كلّها في مرحلة ما بعد الحرب راحت تلملم شتاتها وتطيّب جراحها من حرب طويلةٍ كان الجميع فيها خاسرًا، والوطن الصغير أوّلهم. والشيء اللافت في النشاط الحزبيّ، ما بعد الحرب، هو ازدياد عدد الأحزاب إلى جانب الأحزاب التقليديّة القديمة. بيد أنّ الأحزاب الجديدة سحقت الأحزاب التقليديّة من حيث تأثيرها في الشباب، وحسن التنظيم، واللجوء إلى وسائل الدعاية الحديثة. شعرت الأحزاب التقليديّة بانكفائِها، وراحت «تشدّ حالها» بيدَ أنّ البريق الماضي خبا وانطفأ. لقد انتهى زمن ديناصورات الأيديولوجيّات العابرة للقارّات.. ليبدأ عصر سلاحف الواقعيّة البسيطة.. ما خلا ديناصور وحيد.. مخيف.. هو الأيديولوجيّة الدينيّة.

كانت عينا ريهام وأذناها تخزّن فقرات ومشاهد الحفل في ذاكرتها

القويّة، كما يلتقط منقاد العصفور الحشرات الطائرة، لتطبعه حدثًا في يوميّات الصحافة. وفاتها أنّ هذه اليوميّات سوف تسجّل لها أيضًا «لقطة» إلى جانب جيلبير عَزوري، مع تعليقاتٍ تحوي تأويلات جمّة. وسيزيد هذا من طينة خلافها مع اسكندر بلّة. وهكذا كان. بعد أيّام، عصرًا، كان اسكندر جالسًا في المطبخ وأمامه مجلّة أسبوعيّة. وعادت ريهام من عملها:

ـ أنا هنا. لقد وصلت. نادت بصوت عالٍ ليسمعها من في البيت، وأجابها اسكندر من المطبخ: ـ أنا هنا عزيزتي.

فجاءت إليه وسألته:

ـ أين الرَّبع؟ لا أسمع حِسًّا!

ـ لقد أخذَتهما أنيسة إلى النادي، هناك مباراة كرة سلّة. واقتربت ورمت نظرة وامضة في المجلّة:

ـ ما هذه المجلّة؟ ماذا تقرأ؟ سألت غير آبهة، وفتحت البرّاد لتأخذ الماء وتشرب.

ـ إنّي أتأمّل صورتكِ إلى جانب حضرة المدير العامّ السيّد جيلبير عَزوري، والتعليق تحتها.

أربكت الدهشة حركتها! فاستدارت مذعورة.. واقتربت تحدّق في صفحة المجلّة.

ـ حقًّا! ما هو التعليق؟ وقرأت: «المدير العامّ السيّد جيلبير عَزوري والصحافيّة ريهام بدوي، الصحافة ضيفة السياسة».

ـ وماذا في الأمر؟ تعليق عاديّ، قالت.

ـ من هما هذان السيّدان على الطاولة؟ سأل.

ـ السيّد فكتور والسيّد بلال. . .

ـ والسيّدتان؟ تابع اسكندر في السؤال ملحًّا.

ـ زوجتاهما، أجابت ريهام.

ـ من المفترض أن يكون على الطاولة ثلاثة «كوبلات». أليس كذلك؟ وها أنتِ جزء من «الكوبل» الثالث.

ـ الله يا اسكندر. لا تعمل من الحبّة قبّة. ألا تلاحظ؟ أنت تغالي كثيرًا!

ـ أنا رجل يحبّ زوجته يا ريهام. وأنا خائف على حياتنا.

ـ الذي يدور في رأسك يا اسكندر أوهام. أنا لا أفهم غيرتك هذه. أنت بإلحاحاتك هذه تدعو الشيطان إلى الداخل. أرجو ألّا نتساجل في هذا الموضوع بعد الآن. تدور وتخرج. ويدرك اسكندر عميقًا في نفسِه أنّ مخاوفه ليست وهمًا بل حقيقة، ويصحّ قول المتنبّي هنا (ذكيّ تَظنّيه طليعةُ عينه، يرى قلبُه في يومِه ما ترَى غدا). بدأ اسكندر يخاف. هذه الغربة تزداد اتّساعًا بينهما. وبدأت غربان الكآبة والوحشة تحوّم وتنعب في زوايا البيت. زوجة غريبة عن زوجها، وولدان يعيشان في العراء حيث يتوارى دفء المحبّة الزوجيّة!

ومرّت الأيّام. وتابعت ريهام عملها في الجامعة، والسيّد جيلبير يستمع إلى محاضرات (الكتابة الإبداعيّة). . ويطرب للمناقشات والأسئلة التي تدور في الحصّة. قال لها عند بوّابة الباحة ذات يوم، وكانت عيون الطلبة تحاول أن تقرأ الكلام في نظراتِهما وحركة شفاهِهما:

ـ إيه. . لقد عدتُ شابًّا ابن عشرين. . والسبب أنّي تلميذ في صفّك طبعًا.

ـ وهل أنت «ختيار» يا جيلبير؟ أرادت بدهشتها هذه أن تشعره أنّه شابّ.. ولا كأيّ شابّ.

ـ قبل أن أنسى. أنتِ أيضًا مدعوّة إلى مأدبة حزبيّة يقيمها الحزب في فندق «الغرينستايل».

ـ دعواتك مربكة جيلبير.

ـ غريب أمركِ! وهل تُربك الثعلب مزرعة الدجاج؟ أنت صحافيّة والحدث المستجدّ في رأس قائمة أولويّاتك. المقال السابق كان رائعًا. وأنا أتوقّع مقالاً آخر أكثر روعة. ولديّ مشاريع أخرى لك..

ـ لا أهرب من عملي. ولكن لا تنسَ أنا سيّدة، ربّة منزل، ولديَّ زوج وأولاد.

ـ وهل أنت مختلفة عن الصحافيّين الآخرين؟ هذا صليب المهنة. قالها بنبرة واثقة.

وأزفّ موعد «المأدبة السياسيّة» بسرعة. وحضرت ريهام بملابس اشترتها خصوصًا للمناسبة. ولم يكن أمامها إلّا أن تجلس في المكان المعدّ لها، إلى جانب السيّد جيلبير عَزوري. قال عندما سحب لها المقعد لتجلس:

ـ أنت «غير شكل» اليوم.

ـ كلامك بدأ يخرج عن دائرة الحاجة، أجابت بوقار. لكنّها مبتهجة في قلبها.

ـ أيّ حاجة تقصدين؟ سأل.

ـ حاجة السياسة للصحافة.

ـ إنّي أتهيّب الموقف، قال.

ـ أيّ موقف؟

ـ موقف المحارب الشجاع أمام حصن منيع.

ـ . . . !

ـ ما بالكِ سكتِّ؟

ـ يظهر أنّك تطبّق دروس التورية والتلميح ببراعة.

ـ أعتبر هذا تقديرًا عظيمًا منك أستاذتي الفاتنة. وسوف أقدّم لكِ الآن إمتحاني الأوّل، وأريدك أن تضعي لي علامة أيضًا.

ـ الآن؟!

ـ أجل سألقي كلمة بعد قليل.

ثم راحا يتناوشان في الاجتماعيّات والمستجدّات، طوال الوقت، ويتناولان المازة مع الكأس. إلى أن صدح صوت عرّيف الحفل: «الكلمة الآن سيّداتي وسادتي لحضرة المدير العامّ السيّد جيلبير عَزوري». وضجّتِ القاعة بالتصفيق والصفير. ثم وقف جيلبير وراء منبر بليكسي شفّاف عليه شارة الحزب، وأمامه ثلاثة ميكروفونات لثلاث محطّات إعلاميّة. كان حضوره مهيبًا. جيلبير رجل قارب الخمسين متوسّط القامة أنيق، قويّ العارضة، جذّاب الابتسامة والنظرات. لم تكن كلمته طويلة. استهلّها بالترحيبات بالقادة ورؤساء الأقسام ورجال الدين والاقتصاد والشأن العامّ. ثم تحدّث عن واقع الحزب ودوره في الحركة السياسيّة المعاصرة في البلد، وتأثيره على الناشئة بفضل اعتماده الأساليب التنظيميّة الحديثة. وردّ على بعض الاتّهامات من الخصوم بعرضه الوثائق والأرقام. بيدَ أنّ الفقرة «الأدبيّة» التي أراد أن يلفت انتباه ريهام إليها كانت هذه:

«أيّها الحضور الكريم. أريد أن أحدّد الآن مفهومي للسياسة، وهذا رأي خاصّ قد لا يوافقني عليه الحزب، أو يراني بعض منهم صاحب هرطقة سياسيّة، مبتدعًا. والحقيقة أنّ هذا البلد أصبح كبادية الشام في العصور الأولى.. حيث عزلت الكنيسة الهراطقة وأتباعَهم، وتحوّلت الصحراء إلى بؤرة آسنة للبدَع. فإذا كنت مبتدعًا فأنا في بلد الغرائب والعجائب، وما أكثر البدع في بلدنا! إنّها الحرّيّات! ولكن للحرّيّات سقفًا. يفهم السياسة بعضُهم أنّها فنّ الممكن، وأنا أراها فنّ الإطاحة بالعقبات. ويراها بعضهم حذاقة ومناورة ودهاء، وأنا أقول بئس أمّة حكّامها خبثاء دهاة! وآخرون يرَونها قوّة.. والقويّ يحكمُ والضعيف يُحكَم، وأنا أقول ما قاله سعد زغلول، زعيم حزب الوفد، في أيّامه: «فسادُ الحكّام من فساد المحكومين». ويراها آخرون إدارة لحاجات الناس، والحقيقة أنّ الناس في بلدنا باتوا يديرون شؤونهم بأنفسهم، مستغنين عن خدمات القادة بالكامل، ممنونين. ويرى آخرون السياسة أنّها صراع الأكفّاء، والكفء يصل، ولكن حتى تاريخه لم أرَ بعد رجلاً مناسبًا في المكان المناسب، فالبازارت هي التي تحدّد المواقع، وتعيّن القابعين فيها. والسياسة هي المُحاسبة. ولكنّ المُحاسِب من يحاسبُه؟ ويقول إرنيست رينان «إنّ السياسة حربٌ باردة والحربَ سياسة ساخنة»، والخاسر، دائمًا أبدًا، في الحربين هو الشعب.. الوقود الأوّل والأخير للصراعات السياسيّة. ما هي السياسة إذًا يا قوم؟ السياسة هي (التقدّم والارتقاء). التقدّم أيّها السادة هو دائمًا البحث عن الأفضل. والتقدّم يشمل الهرم بكامله من الرأس حتى القاعدة. السياسة ليست فنّ الممكن بل فنّ الأفضل. وليست مناورة ودهاء بل صدق ووضوح. ليست للقويّ دون الضعيف بل تشجيع

الضعيف ليواكبَ القويّ. ليست إدارة الحاجة بل إدارة الذات والعقل والمفاهيم والثقافة. ليست للأكفّاء بل هي تدريب لغير الأكفّاء ليصيروا أكفّاء. ليست محاسبة للآخرين بل مُحاسبة للذات أوّلاً. من هنا طريقنا طويل وشاقّ، وهو خلق ثقافة سياسيّة جديدة في العقول، تسعى إلى تطوير الجوانب كلّها بالتساوي والتوازن. ربّ قائل هذا شعر وأفلاطونيّة، فأقول بصراحة، هذه رؤيتي الشخصيّة للسياسة «إرادة الأفضل». جاءت الديموقراطيّة نتيجة «إرادة الأفضل»، والثورة الفرنسيّة أبدعت «إرادة الأفضل»، والحرب الأهليّة الأميركيّة شرّعت «إرادة الأفضل»، والفاشيّة أصّلت «إرادة الأفضل»، والشيوعيّة طوّرت «إرادة الأفضل»، والاشتراكيّة هذّبت «إرادة الأفضل»، وشعوب عالم الثلثين، يا للأسف، لا زالت تحلم بهذا الأفضل.. والأمثلة كثيرة عن إرادة السعي إلى الأفضل، وكيفيّة الخروج عن الطابور الأرستقراطي المُخيف الذي ساد لقرون طويلة. ينقصنا في بلدنا يا قوم هذه «الإرادة نحو الأفضل».

وتابع السيّد جيلبير خطبته وفلسفته الشخصيّة في السياسة. وصدى خطبتِه، في الجمهور، إطراءٌ هنا واستحسان هناك.. إلى أن ختم كلامه بتذييلات بروتوكوليّة، كعادة الخطب. وعاد إلى جانب ريهام وسط عاصفة من التصفيق الحادّ.

ـ أنتظر منك العلامة أستاذتي، قال لريهام وهو يضع ورقته في جيبه.

ـ يسلم تمّك. كلمتك ممتازة. لست بحاجة لدروسي بعد اليوم. أعطيك العلامة الكاملة.

ـ العلامة الكاملة من الامتحان الأوّل؟! هذا كثير.

ـ الحقيقة أنّي أفكّر أن أشارك في حصص سياسة على يديك أنتَ لو سمحت.

ـ يبدو أنّنا شكّلنا فريقًا منسجمًا (السياسة والصحافة).

ـ أنت طالب بلاغة وأنا طالبة سياسة.

وكما في الحفل الأوّل، كانت الكاميرا على موعد مع هذا اللقاء بين السياسة والصحافة، فتصيّدت هذين النجمين الصاعدين في الميدانين، مرّة ثانية. ومنذ ذلك الحين، بدأت ريهام تظهر كوجهٍ إعلاميّ مميّز يتعاطى الشأن العامّ، لسبب طلّاتها الإعلاميّة مع جيلبير. وهذا أيضًا كان زيتًا فوق نار الزواج المُتداعي: اسكندر وريهام.

* * *



٢

الطرُقات الجميلة لا تؤدّي إلى مكانٍ بعيد.

حكمة صينيّة

في الحكومة، كما في الجسم البشريّ،
الأمراض الأكثر شرًّا مصدرُها الرأس.

مثل بلجيكي

«لقاؤنا المقبل يوم الخميس مساءً، الساعة الثامنة والنصف، عند المستديرة قرب السنتر التجاريّ ذي اللون الكُحليّ. جيلبير». قرأت ريهام هذه الكلمات على ورقة صغيرة وجدَتها في ملفّها عندما وصلت إلى البيت. إنّها تعويذة جيلبير تسلّلت واندسّت بين أوراق حياتها المتناثرة. هكذا! دعوة غامضة.. لا مقدّمة ولا تعقيب ولا تذييل. بل هو فرَمان من السلطان.. وأمر ملكيّ. هذا موعد آخر يطرق باب الحبّ بلجاجة، وهي الخطوات الأولى المرتبكة في دروب القلق

الواغلة في ملكوته المخيف. وهل الحبّ إلّا إبحار ضدّ التيّار؟ إنّه ركوب المغامرة برُعبها ومجهولها، ولذّة إخفاقاتها وانتصاراتها. شعرت ريهام بهذه الدعوة تغريها لتقطف من جنّة «التابُوات» تفّاحتها الأولى. وعندما يستولي قرصان الحبّ على مركِب القلب، تصبح الخطوط الحُمر مراسيَ نجاةٍ تشدّه إلى أسفل بأثقالها الحديديّة. غريب أن تكون أعظم حكايات الحبّ هي «الخارجة على القانون»! والتمرّد، يبقى أبدًا تربة خصبة لنموّ بروليتاريا الغرام.. لأنّ الغرام ثورة على رتابة العاطفة المتخاذلة، بدأت ريهام تشعر بجاذب قويّ إلى جيلبير، خصوصًا عندما وقّع رجولته الجريئة في دفتر وجدانها وأنوثتها.. على إيقاع نبرته الخطابيّة وراء المنبر. إنّه رجل يدرك تمامًا ما يريد. وأرادت أن تلبّي هذه الدعوة الغريبة، شاعرة بعيون غيرة اسكندر تواكبها كأرواح حارسة أنّى ذهبت. بيد أنّ الحُجّة حاضرة دائمًا عندها، الجامعة والصحيفة صندوقتا ذرائعها، وأكثر من هذا، هما العملة التي يشتري بها المُدمنُ المخدّر، هما كنزها. وعندما حطّ مساءُ يوم الخميس رحاله، كانت هي قد بلغت حلّة أنوثيّة من الدرجة الأولى. لا تعرف شكل المكان المقصود.. ولا المضمون. لقاء ثقافيّ.. حفل سياسيّ هو الآخر.. ندوة حزبيّة.. جلسة رومنسيّة لطيفة ربّما.. عشاء عمل!! أرادت أن ترتدي زيًّا «passe partout» لكلّ المناسبات، يكون مفتاحًا لكلّ قلوب الرجال. لم تشأ أن تكون باكرًا عند المستديرة قرب السَنتر الكُحليّ، فتعمّدت أن تتأخّر ربع ساعة. الانتظار جزء من توابل الحبّ، يجعله طيّبًا أكثر. وصلت ووقفت في الردهة الداخليّة للسَنتر بين المتاجر، متوارية قليلاً عن الشارع. وما عتم حتى أومأت لها سيّارة المرسيدس وهي تدور دورة حول المستديرة تحت الأمطار

الخريفيّة المتفرّقة، فصبغ خجل المطر هذا الحبّ بلونه الخريفيّ الشاحب. وقفت السيّارة، ووثبت ريهام بسرعة إلى داخلها.

ـ هاي. ظننت نفسي متأخّرة، قالت بكلّ ابتهاج.

ـ أهلاً أستاذتي. أنا تأخّرت أيضًا. أشكركِ على تلبية الدعوة.

ـ حفل سياسيّ هو الآخر أم عشاء عمل؟ سألت ريهام.

ـ لبّيتِ الدعوة ولا تدرين ما الموضوع. أسجّل لكِ هذه.

ـ الدعوة مرتبطة بالداعي وليس بالمناسبة، أليسَ كذلك؟ قالت هذا وحدّجته بنظرة حمّلتها رسالة.

ـ يومًا بعد يوم يطلع لي منكِ ما يُدهش. أنت امرأة حرّة. نبرة صوته مغمّسة بثقة الرجولة التي حظيت بصيد أنثويّ ثمين.. وبسهولة. وتابع:

ـ هل أنت منجذبة للماضي أم للمستقبل؟ ورأت فيه ريهام عند هذا السؤال عرّافةً تريد أن تتكشّف أبعاد أنوثتها. وها هو حصن أنوثتها المنيع تنهار أسواره.

ـ الإنسان يتوقّع الأفضل.. والأفضل يختبئ في المستقبل، أجابت ريهام.

ـ أنت امرأة حرّة وتبحثين عن المستقبل، بقي أن أسأل عن الظروف. ألا تشكّل الظروف لك عبئًا؟

ـ عندما تكون الحرّيّة راسخة في الداخل، فهي مضخّة طاقاتٍ تدفع الحياة لتدوس الظروف. الحرّيّة الراسخة تقلب الجُبنَ فينا شجاعة.

ـ يبدو أنّنا نشكّل ثنائيًّا رائعًا! قال جيلبير والبهجة تومض في ناظريه.

ـ ونستطيع أن نخلق الظروف التي نشاء، قالت وهي تبتسم ابتسامة حمّلتها أيضًا رسالة «ملغومة» هذه المرّة.

وتابعا تجاذب أطراف الكلام.. وترصُّدَ الأفكار المدغومة بينها. كأنّ الحديث بينهما نصّ أدبيّ مليءٌ بالتلميحات والكنايات. وكانت المرسيدس تتّجه شمالاً على الطريق الساحليّ، حيث تغطّس الجبالُ في بلدنا أقدامَها في البحر، وتدور حول الهضبات الساحليّة حينًا، وبين الصخور البحريّة القريبة من الماء أحيانًا، نحو التلال تارةً وقرب هدر الأمواج طورًا. تمامًا كصعود وهبوط رحلة القلق في ذات ريهام. شدٌّ وتأرجح بين فوق وتحت. كان جيلبير يريد إطالة عمر الرحلة. وأدار موسيقى كيني روجرز وتقسيمات قيثاره الهادئ. جرعة بسيطة من الموسيقى تشفي من التوتّر، وتفسح في المجال لبنات الأفكار أن يخطرن.

ـ أنت متزوّج بلا شكّ؟ سألت سؤالاً لم يفاجئه قطّ.

ـ تركت زوجتي منذ سبع سنوات. الولد معي والبنت معها.

ـ الروتين والضجر خطران يهدّدان الزواج.

ـ لا. ليس الضجر.

ـ ما هو السبب؟ سألت وقد سرّتها هذه الحقيقة وهي ليست صعبة البتّة.

ـ لقد اكتشفتُ أنّها سحاقيّة!

ـ ماذا؟!

ـ أجل. سحاقيّة مزمنة وليس لعشيقة واحدة. الانفصال كان حتميًّا. هل تعانين أنت من الملل والرتابة؟

ـ أجل، هناك ملل. وتجاسرت وقالت: لقد اكتشفت أنا أيضًا، بعد سنوات، أنّي أنا وزوجي مِثليّان.

ـ مِثليّان! قال بدهشة.

ـ أجل. ويخون واحدُنا الآخر من زمان. عشيقتي أنا هي الكلمة، وعشيق زوجي هو الرقم.

ـ الكلمة.. الرقم! ههههها! يا ليت العشّاق الشاذّين جميعًا كالكلمة والرقم. ولكنّ الكلمة والرقم يكمّل واحدُهما الآخر! برأيي. الرقم هو كلمة تعبّر عن معنًى ما، والكلمة تشير أيضًا إلى رقمٍ أو عدد في معنًى من المعاني.

ـ لا. أنت مخطئ. الكلمة حرِّيّة، والرقم قيود. الكلمة جناح والرقم قفص.

ـ ولكنّ الحرِّيّة بلا قيود مدمّرة.

ـ الحرِّيّة بلا قيود أكثر جمالاً. حيث الحرِّيّة هناكَ الإبداع والجمال والرقيّ، وحيث القيود تخلّف وعصبيّة وقبح. ثمار القيود أكثر دمارًا من ثمار الحرِّيّة. عندما يتربّى العقل على ثقافة الحرِّيّة يستحيل أن تثمر دمارًا. الحرِّيّة قبول واحترام الآخر. الحرِّيّة ليست تصادم الذوات، ولكنّها تخمُ التلاقي بينهما. إنّها كالزيت في محرّك السيّارة الذي يجعل تصافح المُسنّنات ممكنًا. وعندما تنشأ العقول في دوائر

القيود يصبح الآخر غريبًا غير مفهوم..

ـ ولماذا الحرِّيّة برأيك؟

ـ لأجل السعادة، أجابت.

ـ هذه هي الفلسفة الإغريقيّة القديمة. وأرسل الجِهاز اللاسلكيّ إلى جانبه إشارات وصول رسالة:

ـ إيه.. ماذا هناك يا أيّوب؟ سأل جيلبير.

ـ كلّ شيء جاهز، تستطيع أن تحضر ساعة تشاء. أجاب أيّوب وريهام تسمع ضجيج صوته على الجهاز.

ـ شكرًا لك يا أيّوب أنا قادم. وأسكت جيلبير الجِهاز وأضاف:

ـ أيّوب ساعدي اليمين. إنّه رجل مخلص.

وهكذا أوغلا في الحديث، كلمة في السياسة، كلمة في الفلسفة، وكلمة في الأدب، ثم كلمة في الاجتماعيّات. وعندما يتحادث مثقّفان يتعمّدان البطء في لفظ الكلمات، كأنّ الصمت بين كلمة وأخرى لحظات انتظار هبوط الوحي. أحيانًا تغدو الثقافة قطعة ثياب ثمينة أو حِلية باهرة، لا أكثر! وخرجت بهما المرسيدس من الشوارع المكتظّة نحو الشمال عبر الطريق الساحليّ الجميل، زُهاءَ نصف ساعة. ومسّاحَتا الزجاج في حركتهما البطيئة مع بطء الأمطار، كأنّهما عصفورا الحبّ يجرّان السيّارة إلى عُشّ الغرام. ثم انعطفت في طريق فرعيّة تدور من تحت الأوتوستراد كسُحليةٍ عملاقة، وتتّجه إلى الأبنية المتشابهة المنتصبة كرجال الحَرَس الإنكليز، تحدّق في صمت، إلى الأفق الرماديّ المثقل بالغيوم. ثم عطفت السيّارة ثانية في مسلكٍ

إسمنتيّ ضيّق طويل، تحيطه الأشجار العارية التي تحاول أن تسرق من كلام الحبّ ثوبًا لعريها. ومرّت السيّارة بمحاذاة الأبنية المتشابهة، وسارت أيضًا حتى انتهى بها المطاف وراء بناءٍ من ثلاث طبقات، جميل الهندسة، مهيب.

ـ هل نحن آتون إلى شاليه أم شقّة؟ سألت ريهام.

ـ شقّة فخمة.

ـ ومناسبة الدعوة؟

ـ لقد أصبحنا شريكين. ألم تدركي بعد هذا؟ أنا بحاجة لمواهبك.

ركن السيّارة في مرأب العمارة. وكانت هناك سيّارات كثيرة. فتح الباب لريهام وأمسك يدها لتخرج، ثم دخلا المصعد.

ـ كيف تشعرين الآن أستاذتي؟ سأل.

ـ بألف خير، قالت بمرح. ولكنّ السيّارات هنا كثيرة!

ـ حضّرتُ لكِ مفاجأة.

ـ مفاجأة! من أيّ نوع؟

ـ لن يطول انتظارُكِ.

وما إن فتح جيلبير باب الشقّة، وخطَوَا خطوة إلى داخل العتبة، حتى هتف جمهور واقف في الردهة كالعساكر ينتظرون ساعة الصفر:

ـ سنة حلوة يا جميل. هابّي بيرث داي تو يو.

ـ آه. . ! بيرث داي مَن هذا! سألت ريهام وقد أذهلتها المفاجأة.

ـ لا . . إنّها ذكرى طلاقي من زوجتي. وفي هذه المناسبة أحبّ أن أعيش كعازب وأرتوي من شبابي.

ـ ما هذا؟ لقد دعوتني إلى ذكرى طلاقك؟!

ـ ألم تعجبكِ المناسبة؟ إنّه الطقس الأوّل عندنا، وسترين أشياء غريبة بعد هنا. هذه المناسبة فرصة للفرح والابتهاج. . والشبَع من الشباب. الشباب كالحلم يا ريهام، صدّقيني كأنّه خارج الزمن. أنظري الجميع هنا. . إمّا عازب، أو مطلّق، أو منفصل، رجال ونساء. لا تخافي، إنّها سهرة أكل وشرب وموسيقى.

وجالت ريهام بنظرها في الحضور فإذا هم في كامل التأنّق والتألّق. بدا الجميع أغنياء. . وجوه مشرقة. . والابتسامات ليست بروتوكوليّة البتّة. الحرِّيّة! والحرِّيّة فقط. . هي الأنامل التي ربطت كرافاتات الرجال هنا، وهي فرشاة التبرّج التي وشّحت خدود النساء، وهي الكأس التي يرتشفون منها لذّة فيض الحياة وتجدّدها. وهي القبلة التي تتدفّق روحًا ونشوة. كانت الحياة قبلذاك مع الشريك قوافلَ رتابة وملل. غريب! يبقى الحبُّ نبعة فيّاضة طالما يدا شريكيه لا تطالانه، وعندما يمتلكانه يصبح لذّة منتهية الصلاحيّة. رجل في بحر أربعينيّاته وفتاة تصغره بعشرين سنة يحسوان الويسكي. إمرأة خمسينيّة وشابّ في الثلاثين، يتسامران، وأنامله تسافر في ضفائر شعرها المصبوغ. طيرا غرام في الثلاثين يختبران حركة أجنحتهما ثانية خارج القفص. وتناثر الحضور في رحاب هذه الشقّة ذات الرياش الفاخر الثمين، داخلاً وخارجًا، بين الرجال والنساء بالمناصفة، أي لكلّ رجل امرأة. ولمْ يبقَ إلّا هي وجيلبير، لونان بارزان في نسيج هذا اللفيف الغريب.

ـ أهلاً وسهلاً بالأستاذة ريهام بدَوي الصحافيّة اللامعة. هتف الجميع.

ـ أرأيتِ؟ عندك «شعبيّة» في عالمي الصغير أيضًا.

ـ فعلاً. يبدو أنّ لك عالمًا آخر غيره في الواجهة، قالت ريهام وقد أربكتها الحيرة.

ـ لكلّ واحد عالمان يا ريهام. العالم الخارجيّ والعالم الداخليّ. وهذان يتصارعان. كلّ يريد أن يحقّق ذاته.

ـ ها أنا أخطو خطوة أخرى في عالمك الداخلي هذا، قالت.

ـ أحبّ أن تأخذي راحتك بالكامل. وافرحي. شرّفتِ أستاذتي في عالم جيلبير عَزوري الداخلي. قال هذا وبسط راحته، فرأى الجميع السيكار بسهولة بين أنامله والساعة الذهبيّة وزرّ قميصه الفضّيّ. وأحنى رأسه انحناءة بسيطة، وابتسم لها ابتسامته المشرقة. ثم رفع صوته إلى الجميع وقال:

ـ أصدقائي الأعزّاء.. أريد ترحيبًا آخر حَفيًّا بصحافيّتنا اللامعة ريهام. وصفّق الجميع بحماسة.. وهتفوا: «أهلاً وسهلاً بالصديقة المتألّقة ريهام». هتفوا وهم يرتّلون هذه العبارة بلحنٍ شرقيٍّ غامض.

بدا لريهام كأنّها تنضمّ إلى جماعة سرِّيّة لها طقوسها وعقيدتها! وما هذا الترحيب الغريب سوى طقسٍ من طقوس أولى للمنتسبين الجدد. إنّه «معموديّة التجديد» أو هو «تعويذة المشاركة». ومهما كان اضطرابُ المَرَّةِ الأولى، فريهام لا زالت تراهن على تعويذة.. أو سِحر ما.. يخلق لها كونًا آخر.. ودنيا جديدة.. تلجأ إليها عندما تعضُّها

نوبات الفراغ والرتابة التي كانت مثل ظلِّها مع اسكندر. أرادت أن تصنع لنفسها قبوَ لذّاتٍ وابتهاجاتٍ تخفيه عن الجميع، تُربّي فيه ديدان الشغف والنزوة. شعرت هنا بالقلق الممتع كأنّه مرشد سياحيّ إلى جَمالات مشوّقة. بيد أنّ رهانها هذا لم يكن خيارًا صائبًا. ويبقى المستقبل، دائمًا أبدًا، مشعوذًا خبيثًا يتلاعب بالأحداث والكلام والعواطف حتى تصل النقود إلى جيبه. المستقبل المتواري وراءَ تحدّياته يريد سرقة أعمارنا «بالتقسيط» على مراحل. يقول فيكتور هيغو: «الغد شبحٌ ذو يدين فارغتين يَعِدُ ولا يملك شيئًا». من هؤلاء القوم؟ هل هم سياسيّون؟ هل هم مثقّفون؟ هل هم شاذّون؟ هل هم طالبو كيف ولذّة فقط؟ المظهر أنيق ينمّ عن ثراء وثقافة. راحت تنظر إلى الجميع.. وابتساماتهم. وجذبَ ناظريها أيّوب الرجل الأربعينيّ، حليق الرأس، ذو العينين الزرقاوين الذكيّتين، والجريئتين كعينيْ جيلبير. لا يخلو أيّوب من بعض هيبة وجاذبيّة، متوسّط القامة، يرتدي سروالاً أسود، وقميصًا ملوّنًا مضلّعًا بلا ربطة عنق، مطويّ الكمرين فوق ساعديه. ورأت ريهام خاتمًا جميلاً في خنصره، أهو متزوّج.. أم تراه طلّق امرأته هو الآخر؟ ولكنّه رجل غامض. كان ينبثق من العدم.. ويأتي بحاجات الضيوف، ثم يختفي دون أن ينبس ببنت شفة. لقد أوصد باب الصمت وراءَه واحتجب. المنزل شقّة فسيحة فخمة الأثاث، لا جدران داخليّة لها. أو ربّما، حُوّلت إلى نوع من ملهًى ليليّ. ثمّة غرف ثلاث رحبة وثلاثة حمّامات كبيرة، عرفت ريهام هذا عندما استخدمت أحدهما. ولغرفة الاحتفال تيرّاس واسع مشرف على صخور الشاطئ المقبّبة، كأنّها مغروسة في الحصى غرسًا لكي يُؤَدّى عليها طقسٌ ما هي الأخرى من نوع طقوس جيلبير. المَسبح مسوّر،

على بعد رمية بصر قبالة الشرفة، يشكّله بالأبنية الخاصّة بالشاليهات القريبة مسلك طبيعيّ ضيّق، تحيطه الصخور البيضاء والنبات القصبيّ العالي. ودنا جيلبير من ريهام، وفي يديه كأسا شامبانيا وهمس:

ـ إشربي نخب الصداقة الراقية؟

كانت واقفة على درابزون التيرّاس ذي الألواح الزجاجيّة المضلّعة، تنظر إلى الليل.. والمراكب البعيدة كأنّها خنافس مضيئة في قلب الظلمة. توقّف المطر الخريفيّ الخجول، وتواثبت بعض النجوم من وراء الغيم، وهالة القمر الفضّيّة.. كأنّ سماء الليل غلاف هديّة للعواطف الشفّافة. قالت:

ـ راقية!

ـ السياسَة والصحافة والأدب. ثالوث راقٍ. أليس كذلك؟

ـ أنتَ محقّ. لا بدّ هناك قطبة خفيّة تشكُل الثلاثة.

ـ بل الثلاثة واحد. كالثالوث (السلام على اسمِه) تمامًا. ألم تكتشفي بعد أنّ السياسَة أدب؟

ـ هذه جديدة عليّ. قل لي أنت. تكلّمت وابتسامة التعجّب تزيد ملامحها هيبة. ثم راحت تحسو الشامبانيا.

ـ أليس الأدب خَلْقَ علاقاتٍ جديدة بين الأشياء؟

ـ أجل. قالت ريهام وهي تحاول أن تترصّد ما يجول في رأسه.

ـ السياسة أيضًا خَلق وإبداع! بل هي صناعة العلاقات بين المتناقضات. إيجاد الحلقة الواصلة. وبالمصطلح الشائع (تدوير الزوايا). ليس هناك من عدوّ أو صديق في السياسة. ليس أبيض ولا

أسود. لا يمين ولا يسار. لا نافع ولا ضارّ. بل هناك، دائمًا، الجيّد البارحة، والنافع اليوم، والضروري غدًا.. والحتميّ بعد غد.

ـ ولكنّ الخَلق في الأدب هو ابتكار العلاقات الجميلة المدهشة!

ـ صحيح. ألا ترين أنّ علاقة السياسيّ بالأديب علاقة جميلة؟ كعلاقة الشاعر بالموسيقيّ، وعلاقة المغنّي بالفكاهيّ، وعلاقة الهندسة بالطبّ.. أليست علاقة الرأسماليّة بالشيوعيّة أثناء الحرب الثانية مثلاً علاقة جميلة.. مُدهشة؟! علاقة الفاشيّة باليقظات القوميّة في بلاد عالم الثلثين؟! وعلاقة النظام السوري الاشتراكي باليمين المسيحي في لبنان مع بداية الحرب الأهليّة؟! ثم علاقة اليمين باليسار في بعض الدول ضدّ الإرهاب؟! ثم ما أكثر الأدباء السياسيّين، والسياسيّين الأدباء! الأنظمة وأشكال الحُكم، على تنوّعاتها، إن هي إلّا علاقات متنوّعة بين عامّة الناس وخاصّتهم، وهي من ابتكار السياسة.

ـ قلتَ الهندسة والطبّ! ما الجمال في هذه؟

ـ في فرنسا يُدعى الطبيب بـ «مهندس الجسد البشري». إنّه يعالج المرض كأنّه إشكاليّة هندسيّة. وحقيقة الجسد، فعلاً، أنّه مُركّب هندسيّ عجيب.

ـ أنت سياسيّ فيلسوف. هل قرأت كتاب سبينوزا (رسالة في اللاهوت والسياسة)؟

ـ هه! هذه علاقة أخرى جديدة مُدهشة. اللاهوت والسياسة.

ـ لا تقل لي إنّ اللاهوت سياسة أيضًا؟

ـ اللاهوت سياسة، والسياسة لاهوت. بالتأكيد سيّدتي! لاهوت

السياسة هو العقيدة/ النظريّة. العقائد لاهوتيّات. القوانين والدساتير كذلك. وكما أنّ اللاهوتيّ عاجز عن تطبيق اللاهوت، هكذا في السياسة لا تطبيق للنظريّة! هذا هو الواقع. أمّا أنّ اللاهوت سياسة.. فقد قرأت قليلاً في تاريخ اللاهوت، فإذا هو نظريّات لا تعدّ ولا تحصى.. وهي أيضًا متصارعة متناحرة، ومرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالظروف السياسيّة هي الأخرى، ومواقع السلطة. والتركيبة الدينيّة إن هي إلّا نظام آخر من جملة الأنظمة البشريّة وأشكال الحُكم. لأنّ الدين يبقى دائمًا أبدًا، أداةً من أدوات اللعبة السياسيّة. والفكرة اللاهوتيّة الصهيونيّة، مثلاً، ما هي إلّا ديباجة ظاهريّة تخفي حقيقة الأبعاد السياسيّة. غريب عقل الإنسان! إنّه يُعيد إنتاج المضامين ذاتها بمسمّيات وعناوين جديدة. وهكذا الفكر البشريّ يدور حول نفسه.. وأنا من هذه النظريّة، أنّ سير التاريخ ليس تصاعديًّا ولا انحداريًّا، بل هو دائريّ.

ـ لم تأتِ بي إلى هنا لتسمعَني خطبَك الفلسفيّة، أليسَ كذلك؟

حدّق جيلبير في سواد عينيها.. وقد زادت الكُحلة الشديدة السواد بياضَ العينين، وهو يرفع كأسه في الهواء، قال:

ـ كاسِك. وَنقرا كأسيهما. ويبدو أنّ صوتَ القبلة بين الكأسين كان عاليًا. عاد فقال:

ـ كأسان صغيران أحدثا هذا الصوت العذب. فكم بالحريّ لو أنّ روحين عاشقين تصادما! فأيّ زلزال غراميّ يمكن أن يحدث؟

ـ زلزال كبير! ولكن لا يشعر به أحد سواهما.

قرّب شفتيه من شفتيها وهما لا زالا حاملين كأسيهما، وفرقعت

الشفاه الأربع فرقعة قويّة. وعلى غير قصد منهما وضعا الكأسين على الدرابزون وأكملا بوابل من «المفرقعات». . كروحين في جسد واحد.

ـ اطمأنّي. هذه لن تصل إلى الصحافة، قال وقد مسح شفتيه بإصبعه ورشف من كأسه.

ـ من هؤلاء الناس؟ سألت. هل أنتم تنظيم سرّي؟

ـ لماذا تسألين هذا السؤال؟

ـ هذا يشبه حفلة توديع العزوبيّة.

ـ هذا احتفال بالعودة إلى العزوبيّة ثانية، كاحتفال العودة إلى الحرِّيّة تمامًا.

ـ ألن تُريني الشقّة بكاملها؟

ـ بلى. تفضّلي.

ودخلا الردهة الفسيحة. . حيث تتهادى موسيقى غريبة شبيهة بالجاز، وقد خدّرتِ الأخيلةَ الآدميّة المنتشرة في أرجاء المكان. بعض الأجساد تتمايل، وبعضها غارق في لجّة القبل والشاعريّة. والأحاديث خافتة من رهبة حضورها في هيكل اللذّات. والبيت يعبق بالدخان كأنّ الضباب واغل فيه.

ـ رائحة الدخان غريبة هنا! قالت ريهام.

ـ هذه «الحشيشة»، أجاب جيلبير مقتضبًا.

ـ ماذا! صعقتها كلمته.

ـ شعارنا هنا: «أعطِ ما لِلسياسة للسياسة وما لِلذّة للذّة». هنا نعيش الحرِّيّة الخام.

ـ الحرِّيّة الخام!

ـ يعني إفعل ما يطيب لك من دون أن تؤذي الآخر. أنظري هذه الجدران مجهّزة بعازل صوت. مهما كانت الموسيقى صاخبة فهي تبقى هنا. نحن حريصون ألّا نزعج أحدًا.

ـ وتمارسون كلّ أنواع الملذّات هنا؟

ـ أجل.

ـ كم تبدو مثاليًّا في الحياة العامّة! وها أنت هنا أشبه بشيطان.

ـ في كلّ واحد منّا شيطان. وأنا متأكّد أنّك مشتاقة إلى حياة الحرِّيّة الخامّ. لماذا أنتِ هنا؟ لأنّك تبحثين عن هذه الحرِّيّة. أنت الآن في سبيٍ مُزمن، وأنا مسيحُ خلاصك.

ـ أنت شديد الثقة بنفسك، قالت هذا وهي عاجزة تمامًا عن إدراك الدوّامة التي تشدّها إلى الأعماق. وعندما فتح باب إحدى الغرف الثلاث، ليُريَها إيّاها، رأت جسدين عاريين يتعمّدان في بَرَكة الحرِّيّة الخامّ.. ويُصعّدان نغمات أنشودة اللذّة الخامّ. شهقت وأدارت وجهها إلى الوراء. ثم راحت تتأمّل برهبة حائرة ديكورات هذا المنزل الذي تتقمّص نمنماتِه آلهاتُ المجون وربّات العربدة. الموكيت الملوّن، والجدران المدفوفة بالزخارف الخشبيّة، واللوحات ذات الطابع الإيروتيكي، ثم التماثيل السوداء العارية، كأنّ حقيقة الإنسان في حالة العري الكامل.. سوداء بالكامل! الأضواء ذات الألوان الداكنة، وهذه الموسيقى الأثيريّة التي ترافقهما في ردهات البيت ومعابره، كأنّها تلاحين الجِنّ تحاول أن توقعهما في السكرة القاضية. ثم صعدا أخيرًا، الدرج الدائريّ المعلّق في السقف، إلى الطبقة العلويّة حيث

غرفة مكتبة كبيرة، وأجهزة الموسيقى في كلّ مكان، والمناخ الإيروسيّ ذاته. في زاويتيّ الصالون تمثال لآمور إلٰه الحبّ عند الرومان وأفروديت إلٰهة الجمال، وفي الزاويتين المقابلتين تمثالان آخران لإيروس إلٰه اللذّة عند اليونان وفينوس إلٰهة الحبّ والجمال. وفي الوسط، جهاز سلايدشو سينمائيّ موجّه إلى الجدار الأبيض الذي تحيطه من جانبيه لوحتا عري كبيرتان من الخشب المُطعّم. واقترب من المكتبة وتناول كتابًا، وهو يقول:

ـ إنّنا نقرأ في هذه المكتبة السياسة والعلوم واللاهوت والتاريخ والأدب.. والجنس أيضًا. أنظري هذا الكتاب. ونظرت، فإذا صورة الغلاف صورة جنسيّة بدائيّة لرسم جداريّ لإحدى الحضارات القديمة. الغلاف باللغة الإنكليزيّة. قال:

ـ هنا تاريخ الجنس. وقاطعته ريهام سائلة:

ـ أهذه طريقتك لشدّ الأنثى إلى الفراش؟ فانفجر جيلبير بالضحك وأجاب:

ـ طقس آخر من طقوسنا: «لا شيء عنوة. ولا بالحيلة أيضًا. كلّ شيء بأخلاق».

ـ أخلاق!

ـ يبدو أنّكِ لن تتعوّدي طقوسنا بسرعة.

ـ ألا تخشى أن تؤثّر حياتك هنا على سمعتك كرجل شأن عامّ؟ ماذا لو سُرّبت طقوسك المَرَضيّة هذه إلى الرأي العامّ؟

ـ الطقس الثالث: «الإخلاص». الجميع هنا مخلصون، ومنفتحون

الواحد على الآخر. فإذا سقط واحدنا سقط الجميع.

ـ ما هذا؟! أنت تعيش هنا حياة شرّيرة مغلّفة بديباجات فلسفيّة وأخلاقيّة. إنّك منحرف بأخلاق! هذا ما أفهمه من كلّ شيء هنا.

ـ حياة شرّيرة! وما هو الشرّ أستاذتي الذكيّة؟ ليس هناك شرّ وخير. على المرء أن يعيش طبيعته محترمًا طبيعة الآخرين. وإذا تصادمت «الطبائع»: المَصالح، الحاجات، الظروف، الأهداف، ينتصر القويّ على الضعيف. القويّ انتصر لأنّه قويّ وهذه طبيعته، والضعيف انهزم لأنّه ضعيف وهذه أيضًا طبيعته. الوجود كلّه، سيّدتي الفاتنة، يرتكز على هذه المعادلة.

ـ لماذا التصادم؟ أليس هناك تسوية ما؟

ـ التصادم سيّدتي هو طبيعة الوجود. ديناميّة الكون هي هذه الحركة. حركة الصراع والتصادم والنواتج. إنّها محاولة شخصيّة متواضعة لتطبيق هيغل وهيدغر وماركس في البزنس والسكس.

ـ أنت تكاد تقنعني بأنّ الشرّ فضيلة.

ـ أنا لا أقنعك. أنا أشرح لك فقط قناعاتي.

وفيما هما يتحادثان، كجِنّ خرج من الجدار بصمت، مَثَلَ أيّوب وفي وجهه عينان نشّابتان. ولا عالم نفس أو فراسة يقدر أن يعرف أهذا الرجل سعيد أم حزين؟ وهكذا فيما بعد، في المراحل الأولى من علاقة ريهام بجيلبير، بقي أيّوب لغزًا محيّرًا. راحت ريهام تنظر إليه بعمق وهو يلفظ كلماته:

ـ سيّد جيلبير. الجميع ينتظرونك على مائدة العشاء. فقالَ جيلبير لريهام:

ـ حسنًا. تعالي وشاهدي طقسًا آخر من طقوس مجتمعنا «الحرِّيّة الخامّ».

ثم دلفا إلى غرفة مائدة الطعام الفسيحة، والجميع واقفون حول المائدة البيضاويّة الشكل منتظرين وصول جيلبير. وقف جيلبير في المكان المخصّص له، ورفع كأسه وقال:

ـ كالعادة أيّها الرفاق، ليبدأ المنفصل الجديد بيننا عن شريكه.. بشُرب النخب.

وأخذت حسناء فاتنة لم تتجاوز الثلاثين كأسَها وشربت.

نظرت ريهام جليًّا في هذه الفتاة الرائعة وقدّها اللدن، وحدّثت نفسها: «ما سرّ هذه الفتاة المنفصلة عن حبيبها؟! سينتهي بي المطاف يومًا ما كهؤلاء.. وهذا الرجل ذو الجاذبيّة المنحرفة والجَريئة.. كم هي الجماهير مخدوعة بالساسة وقادة البلاد! إنّهم مريضون.. منحرفو المزاج.. أتُرى أنا أيضًا أعاني من المرض نفسه؟!» أفكار كانت تحوّم فوق قلقٍ متعب.. منجذب إلى دنيا قاتمة مجهولة.. هي عالم المدير العامّ جيلبير عَزوري. وبدأ الطقس التالي. وسأل جيلبير:

ـ من يريد أن يكون رفيق جُهَينة؟

ورفع أحدهم كأسه بيده، وقال: «أنا». فسأل جيلبير جُهينة عندئذ: «هل قبلتِ يا جُهَينة غانم؟» وأجابت: «أجل». فقال جيلبير: «الحرِّيّة الخامّ بانتظاركما». وجلس الشابّ بجانب جُهينة، وجلس الجميع لتناول الطعام. والرجل أيّوب يقوم بخدمة المائدة تساعده فتاة سوداء. تحادث الجميع في كلّ شيء، وتبادلوا الأنخاب والضحك، والبذاءة طبعًا.. لأنّ النكتة البذيئة تشبه الزيتون «شيخ سُفرة» المائدة.

رقص بعضهم على أنغام الجاز والروك الهادئ. وفي النهاية، بدأ كلّ ثنائيّ ينسحب. لقد اختفى الجميع، ولكنّ أحدًا لم يغادر البيت! كأنّهم أشباح.. شربتهم الجدران أو انشقّت الأرض وابتلعتهم. لم يبقَ على المائدة غير ريهام وجيلبير. ورغم غرابة الموقف لم تشعر ريهام بالخوف. هذا الرجل عاشق لذّة ليس إلّا. إنّه رجل ماجن لا يريد شيئًا غير الكيف. وحادثت نفسَها أيضًا: «هكذا نوع من الرجال ليس ذا أصالة ووفاء.. بيد أنّ شخصيّته آسرة.. وهو فوق ذلك مثقّف فيلسوف.. وذو منصب رفيع.. ورجل خطابة.. هؤلاء لا يصلون إلى المراكز العالية بالأوادميّة.. بلا شكّ! إنّ سحرًا ما، دائمًا، يكون جاهزًا لحملهم على بساط الريح إلى حيث هم. وكما يقول ماركس: «لا أثرياءَ أثرَوا من العمل الصالح».

ـ ألا تخاف أن يفضح أحدُهم حياتك هذه؟ سألت ريهام.. هكذا بعفويّة وبدون أن تحسب حساب أبعاد هذا الرجل الذي يشبه السراب، يشعر المرءُ أنّه قريب منه، فإذا هو بعيد.. بعيد جدًّا.

ـ ليس هناك من فضيحة. «الفضيحة دعاية لي». أجاب وقد ابتسم بسمة دهاء، وأضاف:

ـ أنا لا شيء بالنسبة للآخرين. بحوزتي ما هو أكبر من «فضائح» لهم. لا يستطيع أحد أن يؤذيني.

ـ كيف يمكن أن تكون الفضيحة دعاية لك؟! سألت ريهام.

ـ الفضيحة في البداية توقع بي وأسقط. ولكن في النهاية أخرج خروج بريءٍ.. بطل! بمقدوري أن أجعل من الفضيحة الخميرة التي أعجن بها نجوميّتي. لا تنسي اللعبة.. لعبة «طبائع.. مصالح..

حاجات.. تناقضات»، وطبيعة القويّ، حتمًا، رابحة.

ـ أنا أتعرّف الآن على شخصيّة جديدة.. لم أرَها فيكَ من قبل.

ـ لست إنسانًا سلبيًّا، صدّقيني. أنا ذو عقليّة مرنة واقعيّة. قال هذا وهو يقف ليسكب لهما كاسين. وتابع كلامه وهو يحمل كأسه وينظر من الزجاج إلى «خنافس» البحر البعيدة.

ـ لقد بنيت حياتي على مجموعة مبادئ. لم أؤذِ أحدًا، لم أغتصب امرأة، لم أسرق، لم أزوّر، لم أتاجر بالممنوعات، لم أمارس إرهابًا. ولكنّي عملت كلّ هذا! فقط لأنّي استطعت أن أعزف بحكمة على أوتار «الطبائع» وتناقضاتها.

ـ لا أفهم ما تقول.. أحيانًا تخيفني بعض الشيء. وهذا يروق لي! أشكرك على كلّ حال. ضيافتك لي في هذه الحفلة الطقوسيّة كانت لطيفة. وجوه جديدة، موسيقى تراثيّة عجائبيّة، فلسفة وقناعات عبثيّة. أنت تحاول أن تجعل للعبث قواعد. حان وقت ذهابي، أليس كذلك، هل تسمح؟

ـ أهلاً وسهلاً بك. شرّفتِ أستاذتي الفاتنة، هل كان الطعام على ذوقك؟

ـ بلى. شكرًا. ثم دخلت إلى المرحضة تهيّئ نفسَها للخروج.

ومرقت هذه السهرة على خير. بيدَ أنّ كابوسًا لا نهاية له، راح يذوّب كلّ أحلامها ليبقى وحدَه الوَهمَ والحقيقة في آنٍ معًا. بعض الناس ذوو جاذبيّة شيطانيّة. إنّ هيبة النمر تخدّر سرعة ومقاومة الغزال، فيعجز عن الإفلات من الأنياب القاتلة. طوال الطريق لم يتكلّما. كان

يمسك المقود بشماله والسيكار بيمينه، وموسيقى كيني روجرز الهادئة تواكب عطفات واقتحامات المرسيدس عبر الساحل الهادئ، في ليلة أرّخت لبداية رحلة ريهام نحو القلق والحيرة والمجهول.

وصلت إلى البيت، فإذا الكلّ نائم. خلعت ثيابها واندسّت تحت إحرامِها، وأطلقت غزلان أحلامها في حقول جيلبير عَزوري، غير مدركة أنّ نمِر غيرَةِ اسكندر أيضًا، الذي يرقد بجانبها، يطارد هذه الغزلان الشاردة.

* * *



٣

ليس عارًا أن يسقطَ الإنسانُ أمام الألم،

بل العار أن ينهارَ أمام اللذّة!

باسكال

وراحت علاقة ريهام وجيلبير تخطو خطوًا مُغامرًا، مفخّخًا بالمُدهشات.. والاقتحامات «شبه الإرهابيّة». جيلبير كأنّه يركب بحر العواصف إلى جزيرة كنز ما.. بعيدة.. وريهام خارطة الطريق. وأمّا هي، فكانت كمن يشورُ العسل من وكر الدبابير، أو يصطاد السمك في بركة التماسيح. كان هناك تقاطع حتميّ في المسارين، بيد أنّ سير الواحد سريع جدًّا، وسير الآخر خطوٌ خجول.. مُوَتّر بين أجنحة الحرِّيّة من فوق وأثقال الواجب الزمنيّ من تحت. واحد ساخر ممّا يريد وآخر خائف ممّا يريد. وسرعة الواحد قد تؤذي، «ميكانيكيًّا»، بطءَ الآخر. وسرعة الشجاعة، بلاشكّ، تسأم بطءَ الحذر. ودارت

رَحى الأيّام دوراتِها. وذابت ريهام في مستحضرات جيلبير وطبخاته الكيميائيّة المذهلة. لقد ذاقت معه كوكتيل رجولةٍ من نوع غريب! مثير وممتع. والأنوثة لا تصل إلى كامل مساحاتها بغير رجولة مدركةٍ لكلّ امتداداتها هي الأخرى. الأنوثة الكاملة تعانق الرجولة الكاملة، لأنّ نقطة الكمال مغناطيس يشدّ إليه معدن الأشواق الملتهبة. جاءت إليه في الشقّة الساحليّة مرّات.. وفي ڤيلّا الريف مرّات ومرّات.. أيضًا وأيضًا في الفنادق المتوارية وراءَ هضبات الضواحي.. (البريستول ٧) و(الريدلاند) وغيرهما.. ويرتجلان قصائد العري المجنونة، وأحيانًا كثيرة، لضيق الوقت، في السيّارة، أو في الطبيعة! الاجتماعات الطقوسيّة الغريبة كان يُدوزنها على أوتار المناسبات الرسميّة والأعياد: الميلاد، رأس السنة، عيد مار مارون، عيد الفصح، عيد العمّال، عيد الصليب، عيد السيّدِه.. فكان يمسح نجاسة طقوسه السوداء بقفّاز الطقوس التقليديّة النظيفة. وفي يوم من الأيّام، في مسلسلٍ طويل لأيّامٍ شَبِقة في الشقّة الساحليّة، كان جيلبير يتعارك مع ريهام فوق سرير خشبيّ في الغرفة الإيروسيّة على أنغام الجاز، وكانت الستارة تغطّي نصف النافذة الغربيّة الواسعة المشرفة على الأفق البعيد. أيّوب الرجل الصامت، وهو يعرف جيّدًا أجندات جيلبير، والمتعلّقة منها بالصولات الكازانوفيّة و«الهمشريّات». أيّوب الذي يذكرُ أيضًا ليلته الشرهة هو الآخر مع ريهام! في غرفة جيلبير وهي تحت تأثير المخدّر، حيث صوّر الفيلم المتوحّش، هو وهي، بناءً على طلب جيلبير نفسه، وهذه عيّنة من قذارات جيلبير الكثيرة التي كان يُؤَدلجُها بدهاء، لينفّذها الحاجب المطيع أيّوب. كان هذا الأخير، منذ شهور، يترصّد النافذة الواسعة المكشوفة بفارغ الصبر. وكان خبيرًا في المناظير بعيدة المدى من

ماركة VIK 300 ومناظير التصوير الحراري JIM 2R وJIM MSR، المجهّزة بالأشعّة السينيّة، وكاميرات متطوّرة، وقد ابتاعها له جيلبير من أوروبا لأغراض جاسوسيّة. جاء أيّوب ومعه أحد مناظيره الخارقة إلى رأس الخليج الذي يمتدّ منه «السنسول»، هناك حيث البيت القديم المتهدّم، والجوزة الغضّة على بعد كيلومتر واحد تقريبًا من وَكر الحبّ حيث ريهام وجيلبير. صعد أيّوب الجوزة متواريًا بين أوراقها، وراح يصوّر ريهام وجيلبير، وهما يجهلان، حتى جيلبير، أنّهما باتا ممثّلين بطلين في فيلم غراميّ يخرجه المبدع الصامت أيّوب. فنّ الإخراج هذا تعلّمه على يدَي جيلبير. تُرى ما سرّ هذا الإنسان المُغلق؟ ومَن وراءه؟! وقدّمت ريهام لأيّوب أفضل المشاهد إثارة. ثم نهضت عارية من السرير واقتربت تنظر من النافذة المفتوحة، فبرز وجهها وثدياها بوضوح في عدسة المنظار الخارق مباشرة. فكان المشهد «قدس أقداس» الفيلم. ثم عاد أيّوب بصيده الثمين إلى البيت، وراح «يُمَنتِج» إبداعه ليصنع منه السلاح اللازم في صراعه القديم. مادّة مواجهة وابتزاز لسيّد ظالم قاس. وسلاحه هذا يشبه سلاح داوود النَبيّ أمام العملاق جُليات الجبّار[١] ليس إلّا. ولكنّه الآن يملك من الشجاعة ما يجعل لحربه قيمة عظيمة، من جهته هو. وريهام فرق عملة في حساب قديم، ووقودٌ لنار مزمنة حاقدة. ستسحقها طبيعة القوّة الغالبة، حتمًا، كما سَحَقته هو في الماضي القريب.

«لقد قرّبت نهايتك يا جيلبير عَزوري» قال أيّوب في سرّه، وهو يجمع ما حصل عليه من صور وأفلام ووثائق عن جيلبير. وكان منذ زمن يجمع من هذه الأسلحة وينتقي أفضلها وأقواها. وفي همساته هنا

---

(١) سفر صموئيل الأوّل ١٧.

تختبئ أسرار ماضيه الشَقيّ مع حضرة المدير العامّ. مارد من الحقد يختبئ في فانوس الانتقام. وفي غرفة اللذّة هناك... تركَ أيّوب الصحافيّة والسياسيَّ يغرقان في لجّة الجنس كما تغرق النحلة في رُحاق الزهرة، فتسكرَها النشوة التي تستحيل ثمرًا طيّبًا. بيدَ أنّ غرام ريهام وجيلبير ليس مثمرًا البتّة، لأنّه من النوع الذي ينظر الواحد فيه إلى وجه الآخر! والحبّ المثمر، الذي يعمّر طويلاً، أن ينظر الإثنان إلى الغاية الواحدة. عندما تعانقُ روحان رؤيا واحدة.. سوف يتلاقيان، حتمًا، على الدرب عينه الذي يقود إلى تلك الرؤيا. كانت ريهام واقفة عارية عند النافذة تنظر إلى الغروب الجميل، وأسراب طيور البحر تدور دورتها قافلة واحدة، متقاربة، متوازية لا تتصادم، كحركة نيّرات الفضاء، تطير هكذا في سرّ أعمق بكثير من أن تحوزَه العين المجرّدة. هكذا القلوب الدالهة تسير متوازية محكومة بقانون الحبّ الخفيّ، وجاذبيّته، حتى الرؤيا البعيدة. ونظرت إلى الأجمة الصغيرة البعيدة عند رأس «السنسول».. إلى النقطة حيث قبع أيّوب يتصيّد المشاهد الحميمة بمنظاره الخارق. فارتعشت بشرتها الرطبة تحت أنامل النسيم اللطيف يداعب ثدييها اللذين لوّحتهما أشعّة الشمس. كانت ريهام تتعرّى بالكامل تحت الشمس، منذ المراهقة، لتكسِب جسمَها ذلك اللون البرونزيّ الذي يُبرز الجسد كأجساد آلهات الإغريق. لقد نحت النقّاشون اليونان القدماء وأبدعوا ربّات الجمال، اللواتي كنّ يزرن خيالهم ويقضضن عليهم مضاجعهم. وهكذا أيضًا ملاحمُهم، إن هي إلّا إسقاطات للصراع الناشب في ذواتهم بين الخير والشرّ من جهة، وبين الروح والجسد من جهة أخرى. وثب جيلبير عاريًا هو الآخر من السرير إلى البار ليأتي بكوبيْ عصير بارد وسيكارهِ. وقال لريهام:

ـ كوكتيل بارد. من الفواكه التي يجلبها أيّوب من الريف، ويحضّرها بنفسه. إنّه لذيذ.

وأخذت ريهام الكوب وذاقت، ثم قالت:

ـ مممم.. كتير طيّب!

ثم عاد جيلبير وجلس على السرير وأخذ القدّاحة الفضّيّة وأشعل السيكار. قالت ريهام وهي تنظر إلى ذَكَرِهِ المرتخي:

ـ إنّ شَيْئَكم أنتم الرجال يذكّرني بـ «هالك HULK.. المسخ العجيب»[1].

ـ HULK! قال جيلبير مستغربًا.

ـ كيف يتحوّل هذا الإنسان اللطيف الحسّاس دايڤيد بانر ـ هل تذكر؟ إلى هذا الوحش المسخ الأخضر! إنّها لحظة الألم والغضب. هذه اللحظة تضاعف حجمه وقوّته على حدّ سواء. وَذَكَرُكم أنتم الرجال يتضاعف حجمه وتزداد صلابته في لحظة الوَجع.

ـ لحظة الوجع! قال.

ـ عندما تقع أبصارُكم على جسد أنثويّ صارخ.. أليست هذه لحظة وجع؟

ـ ليست لحظة وجع. إنّها قدّاحة، كهذه القدّاحة، لإشعال الرغبة.

ـ نعم.. نعم.. وتابعت: الألم واللذّة هما النبعة الحقيقيّة

(١) (المسخ العجيب) مسلسل أميركي من سبعينيّات القرن الماضي.

لانفجار الطاقة عند الإنسان. عند لامارتين وجبران والرومنسيّين عمومًا الألمُ هو سبب انفجار الطاقة. أمّا عند أبي نوّاس فهو لذّة الخمرة. عند رامبو وفيرلين هو لذّة الشذوذ. عند نيتشه هو الجنون، وعند المتنبّي هو الكبرياء.. وجع المتنبّي العظيم كبرياؤُه.

ـ يبدو أنّكِ الآن تحت تأثير هذه اللذّة العارمة. قال لها وهو يدقّ سيكاره على المنفضة.

ـ لماذا؟

ـ لأنّ طاقتك الأدبيّة في قمّة خلقها وإبداعها. إسمعي! في الأسبوع القادم سنلتقي في الجبل في مكان ساحر، وعندي مشاريع نناقشها سويّة بهدوء.. والأرباح «حرزانة».

ـ وما نوع هذه المشاريع؟ لن تغريَني في أشيائك الوسخة أيضًا. قالت هذا، وسحبت لها لفافة وأشعلتها وراحت تزفر الدخان في الفضاء.

ـ عدنا لقاموس المفردات العتيقة. ألم تقولي إنّ للإبداع مفرداته الخاصّة؟

ـ وما هي مفرداتك أيّها المبدع؟ فأجاب:

ـ البزنس، البزار، كول وطعمي، ضربة العمر، حياة الـ **TOP**، فوق الطاولة وتحت الطاولة، الأقوى يربح، القانون إلى جانب القويّ دائمًا، التناقض هامش للمناورة، لا عدوّ البتّة في البزنس لأنّه الوسيلة، البارحة إلى القمامة، اللذّة هي السعادة، العواطف وَهم، الأرقام هي الحقيقة، الجُبن حماقة... إلخ.

ـ هل أنت جادّ في ما تقول؟

ـ لقد اخترتكِ من بين الكثيرات. . أنتِ الأفضل.

ـ «يا ساتر يا ربّ» من مشاريعك المجنونة! تلك هي الغاية من وجودي إذًا؟

ـ أنتِ حَصاة واحدة لأرمي بها عصافير كثيرة. نشّابة واحدة لطرائد متنوّعة. عندي لك فرص العمر. الأشغال تتوسّع، وأنا سأترك تلك الوظيفة المملّة، وسأشتغل في السياسة إلى جانب فتوحاتي الجديدة في البزنس. أنا أحتاج للإعلام والإعلان. سأنشئ صحيفة وإذاعة. وقريبًا سأحصل على الرخصة لتأسيس حزب سياسيّ.

ـ وهل ستدخل الانتخابات بحزبك هذا؟

ـ في الانتخابات سيظهر الحزب إلى العلن، وهذه مهمّتكِ الأولى. ولكنّ المحازبين لا زالوا قيد التحضير.

ـ وهل هم من جماعة الطقوس الغريبة هذه؟

ـ بعض منهم، أجاب باقتضاب.

ـ ها أنا أدرك الآن أنّ مشكلة هذا البلد في سياسيّيه. . إذا كانوا على شاكلتك! قالت ريهام بنغمة مازحة. بيد أنّ جيلبير أدرك أنّ إقناعها بمفاهيمه قضيّة وقت. وسألت باهتمام:

ـ ألا تخاف منّي؟ أنا صحافيّة. . ولديّ الآن الكثير من أسرارك وخصوصيّاتك! وضحك كأنّه سمع نكتة، وقال:

ـ ألا تخافين أنتِ منّي؟ سأعكس السؤال. أنا أيضًا عندي كثير من خصوصيّاتك، أجاب بمزاح مشوب برسالة جدِّيّة.

ـ وما هي خصوصيّاتي التي تخيفني بها؟

ونهض جيلبير عن السرير ولبس الأوفرهول.. فيما كانت هي ترتدي قميصها. واقترب من الخزانة ذات الرفوف الزجاجيّة التي يتوسّطها جهاز التلفزيون الكبير، وأشار بيده إلى دائرة زجاجيّة سوداء صغيرة فوق التلفزيون، وقال بهدوءٍ ماكر، وكان كاذبًا في كلامه! لأنّه لا يصوّر نفسه مع إحداهنّ البتّة في فيلم غراميّ، بل يصوّر من يستعملهنّ مع «زلمِهِ» للسيطرة عليهنّ:

ـ هناك عين ثالثة تراقب معاركنا الغراميّة هنا وتحفظها في أشرطة.

ـ هل هذه كاميرا؟! صرخت ريهام بذعر. واقتربت من هذه الكاميرا المزعومة لتتفحّصها. لا. لا يمكن أن تكون شيطانًا إلى هذه الدرجة! كم أنا حمقاء! يا إلٰهي.. ماذا فعلت بنفسي؟ ووثبت إليه وراحت تضربه على صدره وهي تهذي وتبكي. فأمسكها بقوّة، وقال:

ـ اهدأي.. إهدأي ريهام. الأفلام في مكانٍ آمن، ولن تصل ليد أيّ إنسان، طالما...

ـ طالما ماذا؟ وانهارت واقعة عند قدميه وهي تهذي. لقد ختلتني ودمّرت حياتي يا جيلبير.. لماذا؟ لماذا؟

فأمسكها بيديها وساعدها لتجلس فوق السرير، وقال:

ـ لا تنسي.. أنا البطل الثاني في الفيلم أيضًا! وهذه الأشرطة وثيقة ضدّي كما هي ضدّك تمامًا.

هدّأت كلماتُه روعَها ومسحت دموعَها، وسألت وهي تتمالك:

ـ لقد انتهت حياتي. . قتلتني.

ـ هذه الأشرطة معي، وسوف أتلفها. . أمامكِ. . إذا كنت لطيفة وملتزمة بالشغل.

ـ أنت تبتزّني. وسوف تستعملني لوساخاتك. كم أنا حمقاء! قالت ونبرة الهزيمة تسوقها الدموع المرّة.

ـ هذا قليل من الضغط لتزييت عقليّتك غير المرنة.

ـ هذا ليس إقناعًا. . هذا إرهاب فكريّ. أصبحت أنت السيّد. . وأنا خادمتك.

ـ طريقة التفكير هذه هي سبب حزنِك. فلو فكّرت بأسلوب الربح والخسارة. . حتمًا ستفرحين. قال وهو يمسك بساعديها ويُنهضها.

ـ وهل هناك خسارة أكثر من أن يصبح المرء عبد إنسان آخر، يجبره على فعل ما لا يريد؟

ـ أنا أعرف. لن تستطيعي أن تري الأمور كما أراها أنا بسهولة. سأنتظر. . مع مرور الوقت ستذعنين.

ـ صدّقني هذه الأشرطة ستكون دمارًا، يومًا ما. . لكلينا. سوف تصل لأيدي زِلْمك وأعدائك أيضًا. لم تترك لي خيارًا. قبلت المغامرة. . ولكن ليس إلى درجة الهلاك الكامل. كانت كلماتها المتهدّجة رايةً بيضاء وإعلان استسلامها.

ـ لا. لن يكون هناك هلاك، قال هذا وهو يزفر الدخان في الفضاء. العمل معي ربح دائمًا. إليكِ مثلاً من صغيرات أشغالي: أنا صيّاد الكنوز النادرة والثمينة. . والقديمة جدًّا. أنا تاجر أثريّات وتحَف ومخطوطات الملوك والرؤساء والسلاطين، هذه زاوية من أعمالي. .

هواية أكثر منها عمل! لقد حصلت على نسخة من الطبعة الأولى لرواية البؤساء لڤيكتور هيغو وبعتها بخمسمائة ألف دولار. وبعت رسائل المفوّض السامي الفرنسي هنري أوجين غورو إلى الرئيس اللبناني الأوّل شارل دبّاس (بخطّ يده) بمئتي ألف دولار. وعندي الآن بندقيّة صيد الشاه ملك إيران، نُقش عليها بالحرف الفارسيّ، مسروقة من قصر الرئيس كميل شمعون في السعديّات قبل خرابه. والآن، أنا باحث عن الكنز العظيم! وأنت ستكونين الشريكة البطلة في الوصول إلى هذا الكنز. لا يستطيع دخول القلاع المنيعة لمواجهة السلطان، غير امرأة جميلة مثقّفة تشبع فضول رجولته النزقة، وتقبض على خواطره الذاهلة بيد من حديد.

ـ لديك قدرة ساحر على قلب مزاجي. أنت موهوب. هواياتك غريبة كشخصيّتك.. وأشعلت سيكارة ثانية. ثم راحت تتساءل، وقد هدأ روعها: ما الذي يقنعها بهذا الرجل. مغامراته وغرابته، طموحاته وفلسفته المنحرفة شكّلت إكسيرًا أذاب مناعتها، الذاوية أصلاً. هذا الشوق الغامض في داخلها هو الذي شَكَلَها برُزمة تهوّساته. كومة من رماد فتور تجمّعت في موقد ذاتها، وراحت تبحث لها عن عيدان، بعيدًا عن اسكندر، تشعل بها نارها الخامدة، فلم تحظَ بعيدان البتّة، بل جاءَت بقنبلة!

ـ أيّ كنز هذا؟ سألته.

ـ كنز الرئيس اللبناني الراحل كميل شمعون.

ـ ماذا تقول؟! هل أنت علي بابا زمانك أم ماذا؟! أخبارك كأخبار ألف ليلة وليلة. أحيانًا أشعر أنّك لست رجلاً سويًا، وأحيانًا

أراك خارق الذكاء. أنت أوريجينال بامتياز.. ولكنّك مشوّق! أين هو هذا الكنز؟ وهل للرئيس كميل شمعون كنز؟

ـ أجل. خارطة هذا الكنز سُرقت من قصر السَعديّات، قبل إحراقه على يد فدائيّين ينتمون للجبهة الشعبيّة. وأحد القادة الفلسطينيّين باعها، فيما بعد، لأحد رجال السياسة المهمّين في البلد، وهي الآن بحوزته. ومشروعي هو الحصول عليها.

ـ ومن قال إنّ هذه الخارطة حقيقيّة وتؤدّي إلى كنز؟ لقد مرّت عشرات السنين.. هذه الخبريّة غير مقنعة.

ـ وما سرّ احتفاظ رجل السياسة المهمّ بها حتى الآن؟

ـ لا أدري.

ـ إذًا، القضيّة تستحقّ الاهتمام.. بل المجازفة.

ـ أنتَ عاشق مغامرات. ولم تحبّني قطّ.. بل أنا ساحرة من ساحراتك اللواتي يقدنك إلى كنوز أحلامك المضطربة. ألديك خطّة؟

نظر إليها بإعجاب، وقال:

ـ بدأتِ الآن تعجبينني.

ـ صدّقني.. أنتَ قرأتني منذ البداية قبل أن أفهم أنا نفسي. في داخلي نارٌ أيضًا إلى المغامرة. لا أستطيع أن أعيش حياة عاديّة، زوجة وزوج وأولاد وكفى. أنا كما تقول فيروز في الأغنية.

ـ وماذا تقول؟

ـ «أنا عندي حنين وما بعرف لمين».

ـ كلانا عنده حنين، أجل. حنيني أنا يشبه غراب نوح الذي خرج

من الفُلك باحثًا عن مكان يحطّ عليه[١]، فما وجد غير الجثث الطافية على وجه الغمر، وحطّ هناك. ولكنّ أشواقك أنتِ هي يمامته التي طارت ورجعت، لأنّها أبت أن تحطّ على هذه القذارات. ولكنّكِ مثلي تعانين قرفًا وفتورًا من الحياة داخل الفلك.

ـ تشبيه طريف!

ـ لديّ نوعان من الأعمال، فوق الطاولة وتحت الطاولة. وأنت تقدرين على الإثنين معًا. فوق الطاولة أنت مديرة مؤسّسة إعلاميّة، وهذا غطاء ممتاز. القادة الناجحون هم الذي يديرون اللعبة بين فوق وتحت بشكل جيّد.

ـ ألا تخشى الوقوع في يد القضاء؟

ـ القضاء! القضاء سياسة هو الآخر. وابتسم شاعرًا بالزهو. المغامرة نسر والقانون سلحفاة، أستاذتي.

ـ أنت لستَ إنسانًا طبيعيًّا.

ـ أنا فوق طبيعي. لن أخبرك كلّ شيء. الأمور خطوة بخطوة، قال بغطرسة.

هكذا كانت بداية العمل مع جيلبير. وبداية الرحلة أمتعتها.. بيدَ أنّ الأمور تطوّرت، وتمدّدت، وتعمّقت، وتعقّدت. والأعباء النفسيّة الثقيلة المتواصلة كانت بداية أزمة طويلة.. راحت مع الأيّام والشهور تعرّش وتتشابك حول بنية ريهام النفسيّة.. السكيزوفرينيا! أشغال المدير العامّ مسختها غانيةً محترفة من الدرجة الأولى. لقد ربّى فيها جيلبير

(١) سفر التكوين: الإصحاح الثامن.

شخصيّتين: الإعلاميّة المثاليّة والغانية السارقة، وهذا كافٍ لتمزيق الوجدان إلى وجودين متنافرين متصارعين. المديرة الناجحة وسارقة «الاعترافات الخاصّة» من سياسيّين ورجال اقتصاد ومتنفّذين بوسيلة «الفراش». كانت تؤدّي دورًا خارقًا جسديًّا وعقليًّا. وزاوجت بين خبرتها في الفراش ومهارات فنّ انتزاع المعلومات، وهذه لقّنها إيّاها جيلبير. «يستفرغ» شريكُ فراشها المعلومة التي تريد قبل وصوله بدقيقة إلى نشوته، بحيث تدغم أسئلتَها في كلماتِها الجنسيّة أثناءَ المجامعة، فتخرج «الكلمة السرّ» بالتزامن مع القذف. يا لها من حيلة شيطانيّة! وابنُ الشيطان شيطان مثله. وعندما تنتابها نوبات الجنون هذه.. كان جيلبير يعطيها «الحبّة الساحرة» التي تقيّد الجنون، إلى حين، وتُخرج المزاج في نزهة إلى عالم اللامعقول الرائع. تفاقمت المشكلة النفسيّة مع الزمن، ومرّت سنوات. سنوات طويلة شاقّة. وأصبحت ريهام، فوق الطاولة، وجهًا إعلاميًّا باهرًا مُخيفًا؛ وتحت الطاولة، الجنِّيّة الغانية سارقة أسرار الكبار. وتوغّلت حياتها في هذا العالم الكواليسيّ الذي لا يراه الجمهور، العالم الذي يتهندس فيه كلّ ما يحدث فوق الخشبة. ولجأت بعد ذلك إلى صديقة قديمة، زميلة لها في الجامعة أيّام التدريس، المعالجة النفسيّة شروق عبد الله التي قصدت إليها، أي هذه الأخيرة، ذات يوم في مكتبها في المؤسّسة الإعلاميّة، طالبة المساعدة في ورطة وقعت فيها هي الأخرى، فعادت الصداقة القديمة إلى الحياة. كانت تذهب لتزورها في عيادتها حينًا، أو تأتي شروق أحيانًا لزيارة ريهام. وأحايين أخرى يلتقيان في مقهًى أو مطعم، أو على البحر، أو في الطبيعة. وأصبحت هذه الجلسات الكثيرة «فضفضة» نفسيّة منعشة لريهام، وحاجة ملحّة كحاجة المدمن إلى المخدّر.

وتعمّقت العلاقة بينهما. ولشروق حكاية قاتمة هي الأخرى.. وحشيّة! مثل حكاية ريهام. إمرأة جنسيّة هيفاء، جرّحت مُدى السياسة حياتها، وجعلتها غانية من الغواني المرهبات. ويبدو صحيحًا أنّ المتشابهين يتصادقون.. تدبير «غيبيّ» يصطادهم عند تقاطع أهداف معيّن، ويجعل خطّهم واحدًا.

وهكذا، عبر مركب الزمان عبورًا ثقيلاً بريهام، عبورًا ممضًّا. وعبرت معه الليالي الملتهبة، كأنّها ظلاله، في مخادع الرجال الذين لا يرون في المرأة غير كمين.. أو مكافأة. وها هي الليلة الغراميّة العاشرة بصحبة السياسيّ الكبير ح. ص. مالك «خارطة الكنز»، في قصره المنيف في ضاحية إحدى البلدات النائية. وقد عرفت ريهام مكان الخزنتين في هذا القصر. لم يكن الإيقاع بهذا الإنسان صعبًا. فقد دنت ريهام، في حفل تدشين أحد المراكز الحزبيّة، وأخذت من هذا الرجل حديثًا. كلمات قليلة مغلّفة بالتعويذة المغوية، كانت كافية لاستنفار رجولة واغلة في برِّيّة خمسينيّاتها.. متعَبة.. تحنّ، كما دأبها، إلى الرياض الخضراء المبهجة. وكانت ريهام قد زُوّدت أيضًا بمعلومات عن غراميّات ح .ص. الشاذّة هي الأخرى.. والمُرعبة! أخبرها جيلبير أنّ هذا الرجل يستخدم السياسة أداة للحصول على المرأة، لدرجة أن يتنازل عن موقع سياسيّ، لصالح خصمه، ليحظى بزوجته الشابّة المغرية. ولكن هذه الزوجة الذكيّة.. الثائرة! أي زوجة خصم ح. ص. استطاعت أن تحقّق الكثير لزوجها من السيّد ح. ص. بأخذها منه المعلومات الهامّة أثناء الجماع. أدهشت هذه الحيلة جيلبير وشرع يطبّقها مع خصومه. ولكنّه الآن لا زوجة له، عنده ريهام! وهي الآن الرقم السرّي.. النرد الرابح.. وإفتح يا سمسم للوصول إلى

الكنز. مَهمّة ريهام البحث عن الخارطة في الخزنتين، وإذا لم تكن الخارطة فيهما.. فهناك الودائع في المصرف، أو مكان سرّيّ آخر. وهنا المسألة أكثر تعقيدًا. كانت ريهام كلّ ليلة تضع «الحبّة الساحرة» في كأس السيّد ح. ص. وتروح تخبّئ أسئلتها الخبيثة في أجمل كلام جنسيّ يمكن أن تقوله امرأة في الجماع، ويجيب وهو فاقد روحه. ثم تتمدّد إلى جانبه تنتظره حتى ينهض معافًى من تخديراته. وعلمت فيما بعد، في ليلاتٍ لاحقة، أنّ الخارطة ليست في الخزنتين، بل هي في قبو البيت العتيق الذي نشأ فيه ح. ص. وأصبح يستخدمه، بعد موت والديه وخُلوِّهِ، للجلسات الخاصّة، والمزاج، والطبخات السرِّيّة. واستدرجته ريهام إلى هناك، حيث أمضيا ليلتين حمراوين صاخبتين. وبقي مكان الخارطة سرِّيًا. وقصّة «الحَبّة الساحرة» تكاد تُفضح. وأنجدها الوحيُ الشيطانيّ بفكرة تساعدها أن تبحث في هذا المكان بهدوءٍ عن الخارطة الملعونة. فأقنعته، في ليلة أخرى ملتهبة، بأن يُجري تجديدًا لديكورات هذا البيت القديمة، ويصبح لائقًا بهما كعشّ غرام. فاقتنع وطلب منها أن تشرف على تنفيذ الديكورات. وربّما مَثّلَ عليها أنّه اقتنعَ هو الآخر، فيكون طابخ السُمّ آكله! وهكذا كان. وحصلت ريهام أخيرًا على خارطة كنز الرئيس كميل شمعون، المرسومة بقلم أزرق على خارطة مساحة عقاريّة عتيقة، ومعها نسخة عنها جديدة، أسود أبيض، في ظرف ورقيّ جديد من الحجم الكبير. ولم توقف ريهام لقاءاتها بـ ح. ص. إلّا بعد حين حتى لا ينتبه للعبتها، بيد «أنّ الفار لعِبَ في عبّه»، أو مَثّلَ عليها أنّ الفارَ لعبَ في عبّه! وبعث جيلبير برسالة إلى هذا السياسيّ الهامّ ح. ص كأنّها من مجهول: «لقد انتقلت ملكيّة خارطة الكنز إليّ. لاعب سياسيّ». وتدرك ريهام جيّدًا

أنّها بحاجة لحماية جيلبير وشبكته، وهكذا دائمًا طوال رحلة القلق، لأنّها طير تراسلاته المغامرة. وهو يحتاجها بلا شكّ، حاجة الساحر إلى نايه الذي يجعل الثعبان يتمايل راقصًا على نغماته. سرقة الخارطة أرّخت لمرحلة جديدة، فارتبطت حياة الأستاذة بحياة المدير العامّ لأعوام طويلة. وطلّقت زوجها اسكندر وتخلّت له عن الولدين، ما خلا اللقاءات بحسب الفسحة الممنوحة قانونيًّا. وغرقت في لعبة المشاريع والصفقات «البزنوسياسيّة» و«السِّكسوسياسيّة»، وأتقنت اللعبة. وباتت الرهان العجيب في وجه السياسيّين والإعلاميّين، لأنّها أصبحت مديرة مؤسّسة جيلبير عَزوري الإعلاميّة SGLL التي فرضت وجودها بقوّة في الساحة الإعلاميّة.

وتدافعتِ السنوات تدافع فاكونات القطار المتشابهة والسريعة. سنة مشكولة بأختها. والزمن، أبدًا، طريدة تحسن الفرار من قبضة وعي الإنسان. ذات مساء، كانت ريهام تشرب كأسًا، وهي تتصفّح مجلّة في الشقّة التي أهداها إليها جيلبير، في السفح الكسروانيّ المشرف على الشاطئ الجميل، رنّ جرس المدخل، فتح الخادم، وسمعت ريهام صوت أيّوب الرجل الصامت في الباب. صوت كأنّه من الماضي! لم تسمعه من زمان:

ـ هل السيّدة ريهام موجودة؟

وكانت الدهشة غريبة على قدّ غرابة هذا الإنسان. لقد جاء أيّوب أخيرًا لكي يزيح النقاب عن أسرار صمته القديم. قامت وجاءت لاستقباله بنفسها، ورأته واقفًا في الباب أنيقًا وسيمًا، يحمل بيده الشمال، حيث الساعة السبور البارزة نفسها، ظرفًا وَرَقيًّا. وكانت هي

ترتدي غلالة شفّافة.. لم تشعر بالحياء أمامه. لم يعد جسدها لغزًا. أصبح العملة والعمولة في الصفقات «السّكسوسيّاسيّة» الكثيرة التي تبرمها، وأيّوب يعرف كلّ شيء. لا تدري إذا كان لا يزال يرغبها هو الآخر، كالمرّات المعدودات أيّام زمان في الشقّة الساحليّة. سيحتاج حتمًا إلى الثمن.. هو البازار! تراه جاء لعقد صفقة؟ ما نوع صفقته الآن؟ كانت العلاقة القصيرة آنذاك لغة جسديّة بحتة، لم يلج واحدهما في عالم الآخر. بقي الصمت بينهما تخمًا آمنًا لا يعكّره اضطراب، بل ربّما كان أيّوب آلة تدريبيّة لا أكثر. والشخصيّة الغامضة عمومًا إمّا شديدة الذكاء والكبرياء، أو هي متمسكِنة ماكرة، أو أنّها عاركت آلامًا كثيرة في الماضي. وقد يكون أيّوب كلّ هذه. لسنوات طويلة لم تكترث له، وهي لم ترَ له وجهًا من زمن بعيد لسبب انشغالها بالـ SGLL. حدّقت مليًّا في وجهه الذي خبّأتِ الأيّام في ملامحه حكاية من حكاياتها المُرّة. قالت له بابتسامة لطيفة، وحفاوة:

ـ أيّوب! ألا زلتَ حيًّا يا رجل، كيف جرى وتذكّرتنا أخيرًا؟
وأشارت بيدها إلى مكتبها بمحاذاة غرفة الجلوس. وقالت لخادمها:

ـ اثنان قهوة يا عصام واثنان سڤن آپ. تفضّل هنا إلى المكتب يا أيّوب.

وسار أيّوب وراءَها. وجلسا أمام طاولة مكتبها، تفصل بينهما منضدة مربّعة منخفضة. أزاحت ريهام الستارة، فإذا الواجهة الشماليّة تشرف على أبنية الحيّ ذات الهندسة التقليديّة، ويبدو النخيل والحور متناثرًا بينها، كأنّه الجند وأسنّة رماحهم. ثم جلست مقابله.. ونظرت في عينيه، وقالت:

ـ كيف حالك يا أيّوب؟ كيف الشغل؟

ـ نشكر الله. كلّ شي تمام. أهمّ شيء الصحّة والشعور بالطمأنينة.

ـ طمأنينة! وهل أنت مطمئنّ يا أيّوب؟! لن يرتاح بالنا طالما نحن أحياء. الطمأنينة كذبة كبيرة.

ـ أنت تقولين هذا؟ الجمال.. الثقافة.. الشهرة.. والمال..

ـ هذه كلّها أكاذيب. هذه تؤلّب علينا المُتعِبين. الطمأنينة خجولة، لا تجالس كلّ هذه «العَجقة» التي تقولها.

ـ يبدو من نبرة كلماتِك أنّكِ لستِ مرتاحة. سمِعت أنّ صحّتك ليست على ما يُرام.

ـ أقول لك بصراحة.. ما إن دخل جيلبير حياتي حتى بدأت معاناتي الطويلة.. لقد سُبيتُ إلى صحارى موحشة مرعبة.

ـ مِمّ أنتِ خائفة يا ريهام؟ سأل أيّوب وهو يسافر في عينيها الساحرتين.

ـ عندما يصل المرء إلى القمّة.. لن يكون فوق رأسه شيءٌ يحميه. والذي يحيط به، فقط، بل حتمًا، منحدراتُ الانزلاق إلى الهاوية. أي أنّ أخطر نقطة هي القمّة. لا تحسد الأغنياء ولا المشهورين يا أيّوب. فقال:

ـ إذًا، فالذي حدثَ لك حدث لي أيضًا، وحكايتك هي حكايتي بالتمام.. في مضمونها.. ولو كان تواتر الأحداث مختلفًا. كلانا سُرق من جنّة الطمأنينة ليعيش مجدًا كاذبًا في قفص الخوف.

ـ أنا مدركة أنّ لك قصّة يا أيّوب. منذ أن رأيتك للمرّة الأولى

في تلك الشقّة الساحليّة. رأيتك كثيرًا.. ومارسنا جنسًا غيرَ مرّة.. وبصمت. كالعادة! أنت قليل الكلام. وبقيتَ كالغابة العذراء بالنسبة لي، قالت وعيناها تفحصانه مليًّا.

ـ وأنا كلّما رأيت فراشة جديدة تقترب من نور جيلبير الحارق، أعرف جيّدًا أنّ نسخة عن قصّتي قد بدأت.

قال هذا وأمسك الظرف الذي بيده، وفتحه وأخرج منه مجموعة من الصّوَر. ثم أشعل لفافة من قدّاحه Signé ونفث الدخان في الهواء، وتابع الكلام:

ـ أتمنّى ألّا تكوني سريعة الانفعال. يؤسفني أن أستعمل معك الأسلوب الذي غرسه جيلبير في حياتنا بالقوّة.

ـ ما هذه الصور؟ ماذا تريد أن تقول يا أيّوب؟ هيّا تكلّم. قالت ونبرة صوتها تُظهر انفعالها الشديد. ثم دخل الخادم ليضع القهوة والمشروب الغازيّ على المنضدة، وخرج بهدوء.

ـ شكرًا لك يا عصام. ماذا تريد يا أيّوب؟

ـ أريد الانتقام. لا شيء غير الانتقام.

ـ الانتقام! ممّن؟

ـ من جيلبير عَزوري.

ـ جيلبير! قالت بدهشة. حساب قديم بينكما. كنت أشعر دائمًا أنّ صمتك مخيف.

ـ ألم يخبركِ جيلبير عنّي شيئًا؟

ـ لا. أشياء قليلة.. جيّدة.

ـ جيلبير سبب شقائي. أنتِ الشخص الوحيد القادر على

مساعدتي، أو أفعل أنا بنفسي. ولكن.. قد تطالكِ نارُ انتقامي. ومدّ يده وناولها مجموعة صوَرِه لها. وشهقت ريهام لما رأت. وراح التوتّر الشديد يهزّ قامتها هزًّا. وقالت:

ـ الابتزاز! كيف تجرّأت عا هيك عمْلِة؟! صوَر قديمة.. في الشقّة الساحليّة.. كيف استطعت التقاطها؟

ـ سرّ المهنة. أنا لا أريد أن أؤذيك يا ريهام. قليل من الضغط لا أكثر.

ـ أنا مديرة مؤسّسته الإعلاميّة، وهو سبب هذا النجاح كلّه. لن أخون جيلبير بعد هذا العمر. ثم لماذا أصدّقك؟ ألا تخشى أن أخبرَه عنك؟ ستكون عاقبتكَ وخيمة حتمًا.

ـ أنتِ لست سعيدة معه. وهو سبب دمار عائلتِك. في النهاية لن يتزوّجكِ، وأنت تعرفين هذا.

ـ لا شأن لي في حساباتكما يا أيّوب. أرفض الدخول معك في هذه، ولا أثق بك. وقد يكون لديك نسخات مثل هذه. يا ربّي.. إنّها فضيحة! كم هي نهايتك بشعة يا ريهام! مِن أنجح إعلاميّة في البلد إلى أكبر غانية في البلد. كم أنا شقيّة بائسة! وانتابتها نوبة توتّر شديدة. ورأى أيّوب توتّرها، فقال:

ـ كان لديّ خطّة من زمان لهذه الصور، والأفلام أيضًا. وكنت عازمًا على المضيّ في مشروعي لوحدي. ولا أدري لماذا كنتُ دائمًا أتريّث وأؤجّل. شيء ما أيقظ ضميري نحوك. ما ذنبكِ أنتِ؟ إنّي آسف حقًّا. قال هذا، ووقف مستعدًّا للخروج.

ـ إجلس. لم نشرب القهوة بعد. لا بدّ من تسوية. قالت ريهام وهي تشير براحتها أن يقعد.

ـ هه. . التسوية ممكنة، قال أيّوب وقعد.

ـ لن أسلّم لكَ حياتي لتضع لها تذييلاتها المذلّة يا أيّوب. خبّرني أوّلاً ما حكايتك معه. قالت هذا للمناورة. والثقة نبتة لا تعيش في أحواض الخوف، أبدًا. ذهنها المضطرب يفتّش بسرعة عن مخرج ما لهذه الورطة الجديدة، هي التي تعوّدت الأشدّ والأدهى. راح أيّوب يتكلّم، وأعطته سمعها بدقّة:

ـ والدتي من أقرباء جيلبير. قرابة بعيدة. عندما كانت تعاني داء السرطان، مدّ يده لمساعدتنا، ووقف وقفة جميلة إلى جانب العائلة حتى أعطاكِ الله عمرها. والدي مات بعد وفاتها بأربع سنوات في الذبحة القلبيّة، وجيلبير هو السبب المباشر لموت والدي. ومرّت الأيّام ولم نعد نرَى له وجهًا. كبرتُ أنا وكبرَت أختي أيضًا. أختي حلوة وصوتها رائع، وطالما حلمت بأن تصبح فنّانة مشهورة. طلعت في التلفزيون مرّة، وغنّت أغنية ونجحت. . في برنامج فنّي لتشجيع المواهب آنذاك. وبعد أيّام، أتى جيلبير لزيارتنا، وكان عازبًا بعد. وراح يلاطف أختي. سُرّت أختي المسكينة بهذا، وقلنا عريس ممتاز لأختنا الجميلة، وهو أحد الأقرباء. بيدَ أنّ أسلوبه بدأ، شيئًا فشيئًا، يأخذ اتّجاهاتٍ لاأخلاقيّة. أغدق عليها هداياه، وخرج وإيّاها كثيرًا. ولكنّه راودها عن نفسها حتى حصل عليها. واستسلمت له رغمًا عنها، وفي بيته، ويوم دعانا للعشاءِ عنده. قال لي: «سوف أكرّمكما بالمال الكثير وكلّ شيء. ستعيشان كأميرين معي، دَع أختك تسلسْ لي». كانت أيّام القِلّة والقهر، وكنت «شلفونًا» مراهقًا، غرّني المال والمجد والقوّة. في النهار، كنت أعمل موظّفًا في البنك، وأدرس إدارة الأعمال في الجامعة مساءً. احتجنا دائمًا للمال، وهو قريبنا وأحواله مرتاحة. كان أسلوبه مزدوجًا: الترغيب والترهيب. فأذعنّا، أنا

وأختي، مرغمَين لمشيئته النزقة وشذوذه. فيما بعد، أصبحت أختي عشيقته. وأرغمها مرّة أن تجهضَ حملَها منه بوحشيّة. ولكنّ الزمان دار بأختي ذكريات.. وغيّر عقلها وروحَها وسلوكها. وبعد جيلبير صارت عشيقة المقدّم شكيب أبي نادر ضابط المخابرات. كان يمكن أن تصبح أختي مطربة كبيرة! عُرض عليها مشاريع ألبومات وكليبات كثيرة وكان شكيب هو العائق. بقيت فنّانة من الدرجة الثالثة، مُغنّية أقبية الملذّات المُعتمة.

ـ ما اسم أختك قلتَ لي؟ سألت ريهام بدهشة.

ـ ذكريات وهبي. أنتِ إلى الآن لا تعرفين شيئًا عن أختي، قال أيّوب.

ـ ذكريات وهبي أختك.. تغنّي بالإنكليزيّة؟! كانت دهشتها كبيرة، وبدا لها كأنّ أيّوب صادق. وسألت:

ـ شقراء بدينة قليلاً؟!

ـ بلى.

ـ لقد شاهدتها مرّة تغنّي في مربع ليليّ. إنّها رائعة!

ـ أختي لا تستطيع الآن أن تكون فنّانة. ظروف عملها الآن صعبة جدًّا.

ـ هل تعرّفني بها؟

ـ لا مانع عندي. ولكنّ ظروف عملها تحول دون ذلك.

ـ وماذا تعمل؟

ـ أنتِ صحافيّة، ولا أستطيع أن أبوح لكِ بالأسرار. لحساب مَن هي تعمل، لا أدري. أوضاعها الماديّة بـ «اللوج».

ـ أكمل قصّتك مع جيلبير.

ـ أكرمني جيلبير بالمال الكثير، وعلّمني أشياءَ كثيرة.. وأسرارًا وأساليب جهنّميّة. ودرّبني على يد خبراء.. حتى غدوت رجل الأعمال الصغيرة والكبيرة، والمَهمّات الصعبة. وهكذا أنا الآن حياتي مشكولة بحياته، ومصيري بمصيره. الملفّ الذي يوقع به يوقع بي. أنا الوثيقة الأخطر لوساخاته، وأنا وهو القضيّة الواحدة.

ـ ومع ذلك، تريد إيذاءَه؟

ـ أنتِ من «أهل البيت».. وتعرفين جيّدًا أنّ حياتنا مهدّدة والأعداء كثيرون. ظاهر الحياة جميل والجوهر عليل. ظاهرها مال ومجد.. ولكنّها خوف وعبوديّة ووساخات. أنت تقولين لي هذا.

ـ لماذا تضغط عليّ؟ ما ذنبي أنا؟ أنا لا أريد له شرًّا.

ـ إسمعيني جيّدًا. جيلبير عَزوري وحش. لا تعرفينه كما أنا. أنتِ وأنا الآن، كما غيرنا أيضًا، أدوات ووسائل، وفيما بعد لا. جيلبير ينفتح على الآخر بكلّ أسراره ومشاريعه، ويرفّعه بين ملائكة نعيمِه، ويصنع منه يده اليمنى الموثوقة، لحين ينتهي دوره. عندئذٍ يتحوّل هذا الآخر إلى عبْءٍ.. ورزمة من الأسرار.. أو ورمٍ لا بدّ من استئصاله لإنقاذ الجسد. هكذا فعل بكابي وليال.

ـ مَن ليال؟

ـ ليال الريّس مديرة البنك.

ـ أذكر أنّه كان حادث سيّارة!

ـ ظُهّرَ الأمر هكذا. أنا بعرف شو صار.

ـ كلام مخيف!

ـ لا يهمّني ما هو مستقبلك معه. ولكن، حتمًا، سيأتي دورك يومًا ما. أريد أنا أن أتغدّاه قبل أن يتعشّاني، وأنتقم لأبي وأختي. وسوف أرحل عن هذه البلاد التاعسة.

ـ أنت تصارحني بنواياك الشرّيرة.. هذه مغامرة! وتضعني أمام خيارات صعبة.

ـ أجزم أنّك لست سعيدة معه. وأنت تكرهين ما تقومين به. لكِ الآن اسم في العالم العربي، وعندكِ الخبرة الكافية لكي تكوني أنت مالكة مؤسّسة إعلاميّة. تخلّصي أنتِ منه قبل أن يتخلّص منك ويأتي بغيرك مكانك.

ـ هل تريد أن تقتله؟!

ـ لا.. نجعل عدوّه يفعل هذا. نعطي عدوّه الحافز القويّ، والأداة القاتلة.

ـ ألستَ خائفًا من هذا؟

ـ وهل يخشى الغريق البلل؟

ورشف أيّوب رشفته الأخيرة من قهوته، ووقف وقال: «سأعود. فكّري جيّدًا. مصلحتنا واحدة، وانسَي أمر هذه الصور» وخرج، وتركته يذهب. رماها في مستنقع الأفكار الدائريّة. حرّك رمادَ القلق عندها ورحل. كأنّها لم يكن ينقصها مع نوبات جنونها إلّا أيّوب ومشروعه المرعب. أيّوب زاد من كآبتها أضعاف ما تعاني. وبَرّ في قوله.. وعاد بعد أيّام ليغنّي عندَها موّالاً آخر. مضمونه أنّه يريد المال، جيلبير لم يعد يعطيه المال، هكذا قال لها. وأضاف مؤكّدًا أنّ هذا مؤشّر سلبيّ على نواياه في تصفيته وإنهاءِ دوره، كما أنهى الآخرين. وراح، بنبرة حادّة، يهدّدها ثانية بالصور التي بحوزته، وبصياحه في وجهها،

استحضر عفريت «السّكيزوفرينيا» الذي فرض نفسه وكان سيّد الموقف. وأمطرت أيّوب وابلاً من السباب والشتائم، ونوبة الجنون تهزّ قامتها كورقة الخريف، وطردته. فهرع إليهما عصام وقال له: «السيّدة مريضة، أرجو أن تتفضّل بالخروج». خرج أيّوب، وعاد بعد أيّام وفي جعبته موّال آخر. وأكّد لها أنّ جيلبير في أزمة ماليّة كبيرة! وسيضطرّ لبيع المؤسّسة الإعلاميّة للخلاص من أكبر عاصفة مادِّيّة ألمّت به. وانتابتها موجة جنون أخرى. ورحل أيّوب تاركًا ريهام في بحر من اللّامعقول. تعيش الحقيقة كأنّها حلم، والأحلام كأنّها الحقيقة. يشدّها تيّار العقل حينًا، وتغرقها تيّارات الجنون أحيانًا. قال لها عصام:

ـ أنت مريضة سيّدتي. وكلّما حضر هذا الإنسان زادت حالتك سوءًا.

ـ كلّ الناس من حولي سبب بلائي يا عصام، ما عداك. حياتي وعملي وأصدقائي وزملائي هم مصدر وَحدتي وكآبتي. أنا أحسدكَ على ما أنت فيه. أنت أسعد منّي بكثير.. هل تدري؟ قالت ريهام وهي متهالكة فوق الكنبة خائرة العزيمة. وأجابها عصام:

ـ كنت أقرأ منذ أيّام كتابًا. يقول الكاتب فيه إنّ من يسعى فقط وراءَ التصفيق الخارجيّ، تكون سعادته بيد الآخرين. عذرًا سيّدتي.. أنا لا أقصد.

ـ أنت صادق يا عصام، صادق. لا أحد يدرك كم هو باهظ ثمن الشهرة. إذا كان التحرّق إلى الشهرة جحيمًا، فالوصول إليها هو المَطهَر بعينه. الشهرة هي الزَّبَد المتناثر من لجّة الحياة لا أكثر.

وكرّر أيّوب بعد ذلك زياراته. وفي كلّ مرّة، مواويل وتهاويل.. ورعب وجنون وسباب وشتائم. وذات مساء، وما إن خرج أيّوب من

عند ريهام، بعد أن قدّم لها مشروعًا آخر زاد من تصدّع اضطراباتها وبنيتها النفسيّة، يرنّ الهاتف وتسمع صوت جيلبير على الخطّ يتحدّث بكلمات شديدة اللهجة. كأنّهما، جيلبير وأيّوب، يتناوبان على إيقاد نار جنونها وعذابها. فباتت هي عالقة بين السندان والمطرقة:

ـ ماذا بينك وبين هالمنحوس أيّوب؟! هيّا تكلّمي يا ريهام. ماذا يعمل أيّوب عندك؟

ـ . . . !!

ـ لماذا لا تردّين. تكلّمي. ماذا بينكما؟!

ـ أوتسألني؟! ألستَ أنت من أرسلته ليزيد من جنوني؟!

ـ ماذا؟! وهل صدّقتِ خبريّاتِه وتلفيقاته التي يقولها لك ولغيرك. لقد ضقت ذرعًا بهذا الرجل الكاذب. لقد طفح الكيل. سأوقفه عند حدّهِ.

وأجابت ريهام:

ـ ولكنّك طالما حدّثتني عنه بالحسنى!

ـ كان هذا فيما مضى، أجابَ جيلبير بنبرة حادّة.

وعرفت ريهام فيما بعد تفاصيل مشروع أيّوب الإنتقاميّ، فتوارى هذا الأخير عن الأنظار، وشاع أنّه غادر البلاد إلى البرازيل بعد الإدلاء بشهادته في المحكمة، وفعلَ فعلته بالكامل. تمامًا كما فعل المتنبّي بكافور الإخشيدي، ورحل من بلاد مصر في ليلةٍ ليلاء، ناشرًا في رحابها قصيدته الهجائيّة الدالية الشهيرة. أعطى أيّوب الصّور والفيلم لغريم جيلبير السياسيّ ح. ص. وريهام نجمة هذه الصور، ورحل. وسُرِّبَ أيضًا فيلم من أفلام أيّوب إلى الناس، وعلكته الصحافة. لقد كانت ريهام «فراطة» تصفية حساب قديم، فانهارت المسكينة بالكامل

نفسيًّا وعصبيًّا، وأُدخلت المصحّ العقليّ. بيدَ أنّ جيلبير القويّ كان قد أعدّ عدّته لهذه المواجهة، فاتّهم ريهام بالجنون.. وأبرز أنّ الأفلام والصّوَر «مفبرَكة» وهي من صنع جنونها القاتل. ثم عمل مؤتمرًا صحافيًّا تفنّن في تنقية صفحته أمام الرأي العامّ، واستثمر المؤتمر، بدهاء، مِنبرًا لإطلاق حملته الانتخابيّة المقبلة، حيث تزامن «جنون» ريهام مع موسم الانتخابات. فتقبّل الرأي العامّ فكرة أنّ الصوَر حرب إنتخابيّة ضدّه. و«كنسلَ» ريهام ومأساتها وجنونها.. وشتات حياتها الذاوية في ذلك المصحّ الموحش في ظاهر المدينة.

وهكذا انتهت حكاية غانية من غواني الطبقة السياسيّة. وهذه الحكاية إن هي إلّا عيّنة من حكايات، يرَى شكلها الآخرون ولا يدركون محتواها. ولعبة الساحر فوق الطاولة مذهلة كاملة ونظيفة! ولا يظهر من جبل الجليد العائم فوق الماء إلّا الجزء الصغير، والقسم المختفي تحت الماء وهو الأكبر، هو الثقل كلّه. لا يدرك البشر عمومًا أنّ وراء هذه الكياسة، عند بعض رجال الشأن العامّ، زمنًا من النجاسات. كالولد الذي يلعب ويوسّخ نفسه، ويأتي إلى البيت خلسة، من الباب الخلفيّ، فيغتسل من كلّ أوساخه. إنّ رجل الشأن العامّ يلعب سنينًا بالسواد، كأنّه الطينة التي يصوغ منها، في نهاية المطاف، صنمَ أمجاده.

***



الجزء الثاني

من الدير إلى السِّجن



٤

ثمّة فرقٌ واحد بين القدّيس والخاطئ وهو:
إنّ لكلّ قدّيس ماضيًا،
ولكلّ خاطئٍ مستقبلاً.

أوسكار وايلد

غرفة رقم ١٠٥

المصحّ العقلي في العاصمة

خريف ٢٠١٥

سيِّدي الرئيس،

تحيّاتي الطيّبة.. وتقديري.

وأرجو أن تغفر لعينيّ الخاطئتين.. حيث تجرّأتا وارتفعتا إلى عرش مقامك السامي.

معروف عنك طول الأناة والرَّويّة، حتى إنّك تبزّ موسى النبيّ حِلمًا![1] وملاك الحِلم عادةً يطرد شياطين الغضب. ومهما غاليتُ، أبقى أنا صغيرة جدًّا، وأنت كبير.. كبير جدًّا. ولست هنا لألقي عليك دروسًا في السياسة، أو أرفع إليك شكوًى على من ارتدى السياسة حلّةً أرضى بها نرجسيّة مضمّخة بالساديّة، لا أكثر؛ أو مَن مسخها آلةً في قبو دهائه لصكّ «سيولاته السوداء»؛ أو مَن تأخذها رهانًا على الغرائز.. والغريزة الآن.. ودائمًا، حصانٌ رابح. صار عرقُ جبين الناس ودموعُهم أنخابَ نجاحات الساسة وانتصاراتهم. السياسة! نسرٌ قديمُ الأيّام ذو رسالة طيّبة، تواكبه طيورُ جناساتٍ جميلة هي الأخرى: القيادة، التخطيط، الإدارة، التدبير، الإصلاح، الرؤية والرؤيا... إلخ. سائس السفينة ربّانها، قائد الجيش يسير به إلى النصر، الوزير يدير وزارته لتؤدّي مهامَّها بشكل أفضل. وكذلك أيضًا ربُّ البيت هو القائد والمدبّر لحاجات أسرته. السياسة ضرورة وحاجة. ولكنّها في العصر الحديث، يا فخامة الرئيس، «ممسوخ مهجّن» و«سحر أسود» صنَّعَته أيدي السَّحَرة الساسة في «الغرف المعتمة». السياسة هنا فنّ التخابث والمناورة، التكتيك والبازار، اللعب بالمتناقضات وحرب المصالح. وغدَت الصفاتُ الشرّيرة عباءاتٍ فرّيسيّة بيضاء ساترة للأداء السياسيّ الخبيء، يرفل بها أبرز قادة هذا العصر: ثعلب الصحراء، أسد الصحراء، النمر كليمنصو، النمر كميل شمعون... وغيرهم. هذا يعود بنا إلى زمن بدائيّ موغل في الرعب.. القبليّة الوحشيّة! مجتمع الهنود الحمر في شماليّ أميركا، مثلاً، حيث ارتبطت أسماء الحيوانات بأسماء البشر: الثعلب، الذئب، النسر، الحصان، الضبع، التمساح، الثعبان... وفي الحضارات القديمة ترتبط هذه بأسماء الآلهة. وهذه

---

(١) سفر العدد ١٢ : ٣.

التسميات لكي تُجسّد ميزة الحيوان في مزاج الشخص المُسمّى. وهذا بدوره، يقود إلى استنتاج مخيف هو الآخر، أنّ صراعات البشر في حقيقتها، إن هي إلّا صراعات الأمزجة/الغرائز الحيوانيّة في الجسد الآدميّ. لقد أطلق ابن آدم القوانين والمواثيق في برّيّة تاريخه، حَظيّاتٍ هاربة، أو طرائدَ يتصيّدها ساعة يشاء، أو هي مرجة غنّاء عاد فهشّمها بسنابك حروبه، وقرون كبريائه. وفي رحلة الصراعات الطويلة، يغدو القانون زائرًا.. بل عائقًا ثقيلاً! فيمطّ السياسيُّ آياتِه طويلاً لتصبح سلاحًا مهيّأً للمعركة المقبلة. وحقيقة القضيّة هي هي: صراعات قوًى جامحة/جانحة، والأقوى أغلب. الأقوى مكرًا، مالاً، وفصلاً بين مثاليّة الأخلاق وواقعيّة المصلحة، الأقوى في شبكات امتداداته وفي مساحات سلطانه. حتى أصبحت بركات الضمير وطروحات القيَم عملة تراثيّة لا مكان لها في صناديق السيولة الراهنة، فخُبِّئَت في خزانة الأثريّات. إنّ الحرب الطاحنة بين البشر حلّتِ الشرائع من صلاحيّاتها، وأطلقت اللعبات الخبيثة المتنمّرة من أقفاصها. والآن.. يا فخامة الرئيس، عدنا إلى قانون الغابة، حيث الضعيف زيت وسُخام ميكانيكيّة التناحرات اللامتناهية. ربّ قائل إنّ البشر منذ وجودهم في هذا العالم وهم يتحاربون! صحيح.. وإنساناه! لقد ارتقى العقل العلميّ فينا فقط، وفي الأخلاق والضمير، لا زلنا صفرًا بجنب صفر. ويبدو أنّ ابن آدم حنّط قيَمه وتقواه مع الملوك السالفين في إهرامات تاريخه المغترب، يتغنّى بها كقصائد بايرون ومالارميه والمتنبّي وبوشكين ومزامير داوود النّبي، ولا مكان للمبادئ والأخلاق سوى في البيانات والتحف الخطابيّة. والتحفُ الخطابيّة هي الأخرى «ريستورينغ» من متحف الأثريّات هذا.

وعلى إيقاع نقراتٍ حاسوبيّة بحثًا عن السلاح السياسيّ الفعّال في

الزمن الدائر، تكشف لنا عرّافة الحواسيب أنّ السلاح الأخطر هو الإنسان نفسه! الإنسان يستخدم الإنسانَ أداةً.. وغاية. هي الحرب بالوكالة. تمامًا كما يستعمل الصيّاد الديدان لاصطياد السمك، أو الأسماكَ الصغيرة لاصطياد القروش الكبيرة، والقطط لاصطياد الفئران. إنّ «الكبار»، وهذا شأنهم أبدًا، يجمعون عيدانَ التناقضات بين الأمم والشعوب، وينفخون فيها نار الكذب والخداع، ويطبخون فوقها صَيدَ مصالحهم ومآربهم. والعقيدة الحاقدة أيضًا، أو الهويّة القاتلة كما يقول أمين معلوف[1]، أشدّ فتكًا من القنابل والصواريخ. والباهراتُ التكنولوجيّة أسلحة ذكيّة في المعمعة هي الأخرى. والقائلون إنّ الاختراعات سهّلت لنا حياتنا يخطئون. الحداثة «مصّاصة دماء» تمتصّ منّا طاقة التمتّع الطبيعيّ بالحياة يا قوم، لقد استُهلكت على أيدي المستجدّات السريعة طاقة الحياة فينا ونحن بعد شباب، وهكذا تذوي البهجة في أنصافِ المواسم وتشيخ. لقد سرقت منّا التكنولوجيا أفراحنا البريئة، تمامًا كما تسرق العاهرة من قلب المراهق حبَّه الأوّل النظيف. والاختراعات جرّافة عملاقة عمّقت الهوّة بين البشر، والسبّاق في العدوْ يرمي وراءَه العثرات بخبثٍ لإعاقة مسابقِه وتأخيره. والحرب نفسها حلقة من حلقات الصراعات المتدوّرة، لأنّ الحرب، وهي هكذا دائمًا، غانية لا تشفق على جسدها، تضاجع الرجال في الليل، وتضعُ في النهار على الدروب، والأيّام تربّي وتنشّئ. وهذه الصفقات الخبيثة التي تشبه نصًّا مسرحيًّا.. كاتبه هو المنتج والمخرج والممثّل في آنٍ معًا.. إنّها تراجيديا الصراع الموقّعة على رقّاصٍ يفصل بدقّةٍ بين الربح والخسارة، ولا تعبأ للفاتورة الخياليّة المسروقة من حياة الإنسان البائس. الحرب العالميّة الثانية كانت ثمنَ مصالح الأمّة والمَدى

---

(١) كتاب (**الهويّات القاتلة**) لأمين معلوف.

الحيوي الألماني، الاستعمار الغربيّ للشرق العربيّ كان ثمنَ التحرّر من نير العثماني، هجرة المسيحيّين من الشرق هي أيضًا ثمن الحرب على سِحرٍ تمرّد على ساحره، عاصفة الإثنيّات الظلاميّة هي ثمن التحرّر من ظلم الديكتاتوريّة. وفي نهاية المطاف، تبقى حرب العدوّ مع الأعدى هي الحرب الساخنة الصغرى، وليست الحقيقيّة! لمصلحةِ الحرب الباردة الكبرى، حرب الأنا مع غريمِها، وهي الحرب الحقيقيّة. والإعلامُ شُحنات كهربائيّة تعطّل الأنظمة، وتلعب بالمعدّلات والأرقام، إنّه «يفرمت» الدماغ ويدخل فيه الذاتا الجديدة التي يريد. إنّه التنويم المغناطيسيّ الذي يخدّر في الإنسان سياجاته العاقلة. والغريزة أداة مخيفة في هذه المعركة الكونيّة: غريزة القوميّة أو الدين أو اللغة أو التاريخ، غريزة الحياة الكريمة، غريزة النجاح والتفوّق، غريزة الثراء. والفقر هو الهشيم الذي لا يحتاج إلى عناءٍ لإشعاله. الفقر هو شوق الألم إلى الشفاء، بيدَ أنّه في أحيانٍ كثيرة ينتهي إلى الموت. كم من بلادٍ اجتاحها جراد الغريزة، فأكل الأخضر واليابس! بل كم من حكّام تآمرت عليهم شهواتهم/ غرائزهم ودسّتِ السمَّ في أطباق لذّاتهم! وكم.. وكم.. وقد أطيل في ثرثراتي عن السياسة الحديثة، وإفرازاتها النتنة، سيّدي الرئيس.. فأنت تدرك بلا ريب أنّ حكّام الشعوب ليسوا غير قطع وفقراتٍ.. فصول وهوامش.. حقائق وأكاذيب من هذه الدراما المزمنة التي يسمّونها السياسة. بل هم يؤدّون أدوارًا فوق خشبة السيناريوهات المحضّرة، فإذا نشّز سياسيّ يومًا في الجوقة، حَدَجَه المايسترو بعبسةٍ مرعبة ترجعه إلى النوتة الصحيحة، أو لكزَ إصبعُ الأخلاق ضميرَ واحدِهم مرّة، أصابته عصا اللعبة الأكبر من فوق بضربة قويّة موجعة تردّه إلى «الصراط المستقيم».

أنا أنتمي، سيّدي الرئيس، إلى القسم الضعيف من البشر، وكنت

أداة من أدوات اللعبة. ذقت مرارات ضعفي حتى الثمالة. حاولت أن أدخل إلى حصون القوّة وفشلت، عرفت أنّي سأحتاج، وهكذا دومًا، إلى «تعويذةٍ ملغومة» تشيل بي إلى فوق. لا الثقافة ولا الموهبة ولا الحسَب والنسَب يُجدي في هذه النقلة الصعوديّة! فقط، موجبات وقانون شطرنج التجاذبات. أحيانًا، أجد نفسي أؤمن بفلسفة هيغل وماركس.. إنّ ديناميّة الصراعات ومنها حياة البشر هي جوهر الوجود. وهذه الديناميّة طاحونة دوّارة قلّابة لا نهاية لقلباتها، ولا مبدأ يحكمها غير مبدأ العراك وضرباته. وهذه يمكن أن تأخذ اتّجاهات عبثيّة، ظالمة، متوحّشة، لامعقولة! وأنا يا سيّدي نتيجة حتميّة من نتاجات طاحون القوّة الذي يطحن الضعف ويذيبه بمحلول قاتم، حبرًا ومسوّداتٍ غامضة على هامش الرقعة البيضاء. لا تمنعْني عن البكاء يا سيّدي.. أنا لا أدافع عن نفسي.. لا أطالب بحقٍّ ولا تعويض.. لا أريد أن أنتقم ولا أن أرفع شكواي إلى القضاء. دعني آخذ حقّي بالكامل من الألم. دعني أبكِ.. دعني أصرخ.. فقط لأنّي ضعيفة! فالقويّ، أبدًا، يخطّط.. لأنّ الضعيف يتألّم، القويّ يطبخ لأنّ الضعيف يذوق، القويّ يؤدلج لأنّ الضعيف يطبّق، القويّ حرّ لأنّ الضعيف أسير، القويّ متدفّق لأنّ الضعيف ذاوٍ منكفئ. أتُرى هكذا أرادت السماء الضعف والقوّة.. مبدأين متحاربين؟ أم تراها أرادتهما متكاملين؟ أتُرى هكذا هي السياسة، يا فخامة الرئيس؟ عذرًا سيّدي.. كلام اليائس للريح[1]. القوّة والضعف دراما قديمة عظيمة.. لا تنتهي.

* * *

ـ من فضلك أوصلني إلى سجن النساء.

---

(١) سفر أيّوب ٦: ٢٦.

ـ تفضّلي. أهلاً وسهلاً.

كان المطر غزيرًا في ذلك اليوم القلِق، عندما قرّرتُ أن أقومَ بزيارة جُهَينة في السجن. سيّارتي كانت معطّلة، ولا أدري لماذا انتابني هذا الإلحاح الغريب أن أزور جُهَينة في هذا الطقس البارد. لقد أنهت عامها الثالث في السجن. وكنت أزورها غير مرّة في السنة، وأحمل لها معي السجائر والبنّ والنسكافه والزيت والبيض والصابون وبعض الأكسية الرياضيّة جينزًا أو حذاءً، وفي الأعياد أجلب لها الحلوى التي أعملها بنفسي. لم تكن تشتاق لعودتي، ولكنّها كانت تفرح بحضوري، وتقول لي أن لا أُتعِبَ نفسي بشيء. لم نكن يومًا صديقتين حميمتين! ولكن منذ رأيتها للمرّة الأولى في ذلك الحفل الغريب، (العودة إلى حياة العزوبيّة) في شقّة جيلبير الساحليّة، أسرَني جمالها. وأدركت، يومها، وبسهولة، أنّ هذا السِّحر الوامض في ملامحها تنقصه لمسات كثيرة من الفرح والبهجة. كانت عيناها حائرتين، وحركاتها مرتبكة قلقة. عرفت أنّي وإيّاها واقفتان في الطابور نفسِه. هي وأنا باحثتان عن القلق والمغامرة، عن شيء نحبّه ونجهله في آنٍ معًا. وفيما بعد عرفت أنّ الضعيف فقط يفكّر هكذا، لأنّ القويّ يهندسُ قدرَه بعقله، والضعيف يتخيّله بين سطور عواطفه. وعلّمني اختباري، دائمًا، أنّ العقل وحده الرائد.. والعاطفة جارية تابعة له.

كانت جُهَينة قليلة الكلام، تمامًا مثل أيّوب. كلّ الوافدين إلى ملكوت جيلبير يتميّزون بالصمت بنِسَب متفاوتة. ومن كان ماضيه أكثر ألمًا، ربّما، هو الأكثر صمتًا. وربّما، لفرط بهجتهم، تخرسُهم «جنّة تابوات» جيلبير. أو أنّ الأكل من الثمرة المحرّمَة، دائمًا، يرافقه هذا القلق الممتع، والذي عاقبته ليست ممتعة البتّة. علاقتنا كانت عاديّة جدًّا. التقينا كثيرًا وتحادثنا كثيرًا، وبقينا عالمين متوازيَين. زياراتي لها

في السجن منذ سنوات قرّبت بعض الشيء بيننا. أفصَحَت عن بعض الأسرار، وكشفت لي عن فقراتٍ من فصول حياتها التي سرقتها قرصنة السياسة، وخبّرتني عن الممارسات الساديّة في الطابق السفليّ الثاني من البناية الساحليّة، وعن شذوذ الشخصيّات الاجتماعيّة البارزة، وعن صفقات السلاح والنساء والمخدّرات. كان حدسي بها صائبًا، جُهَينة هي الأخرى ضحيّة من ضحايا اللعبة. ويبقى الألم ظلًّا مرعبًا يعكسه شعاع الخوف الدائم.. رغم الحركة الدائريّة لشمس الحقيقة.

كانت الشوارع شبه مقفرة، سيّارات قليلة تبطّئُ حركتها حبالُ الأمطار الثقيلة. كنت أمسح الزجاج بكمّي لأرى رقصات المطر على الأرصفة ولوحات الإعلانات وزجاج المحالّ التجاريّة. وفجأةً أوقفَ السائق السيّارة ووثب إلى المتجر وابتاع له علبة سجائر، وعاد مبلّلاً بالماء:

ـ سيكارة؟ سألني.

ـ لا، شكرًا. أجبت.

ـ السيكارة تنسيني ضعفي، قال بهدوءٍ وهو يشعلها وينفث الدخان في الهواء.

ذهلتُ لكلماته! ماذا يقصد هذا السائق البسيط بما تفوّه به؟ مرّت دقيقة صمت. عدتُ فقلت:

ـ عفوًا. لم أنتبه لما قلت.

ـ قلت: السيكارَة تنسيني ضعفي.

ـ كيف؟ سألته، فأجاب:

ـ الحياة قهر ووجع قلب وشقاء. وهذه تحتاج للقوّة لمواجهتها، ونحن بشر ضعفاء.

ـ والسيكارة تنسيك ضعفك؟

ـ هذه هي. صدّقيني يا سيّدتي، القوّة هي في نسيان الضعف.
قالها باقتضاب غير آبهٍ لتأثير كلماته في نفسي، وبحزم، كأنّه يريد أن يُنهي الحديث هكذا. بيد أنّه فجّر في داخلي مشاعر غريبة ودهشة، وفرحًا أيضًا. كنت بحاجة لفكرة تقوّيني في هذا اليوم العاصف. ثم وثبت خواطري كالطريدة المذعورة إلى الحكاية التي قالتها لي جُهَينة في زيارتي الأخيرة لها. وبدا لي أنّ مشاهدها تسبح أمام عينيّ في الأبنية والسيّارات والإعلانات والأشجار التي تركض إلى الوراء كأنّها شريط سينمائيّ يعرضها فيلمًا أمامي. بدأت الحكاية تحت المطر أيضًا، كهذا اليوم الماطر. ولكنّ الفرق أنّ المطر الآن هو بداية الشتاء، وأمّا في قصّة جُهَينة فكان في آخره. في يوم مشؤوم من أيّام آذار «الهدّار» من عام ١٩٩٧. «قوّة غيبيّة شرّيرة» ربّما، خطّطت لهذا اليوم، بلا شكّ. هذه القوّة خطفت ملاكًا من الجنّة ورمت به في دوّامة الجحيم. كان المهندس الشابّ الذكيّ ديب.. ديب عساكر، يقود سيّارته إلى بلدة (بْعِرفين) للتحضير لبدءِ الأشغال التي اتّفق عليها مع الأرشمندريت في ذلك الدير المهيب المشرف على امتدادات مشاهد البلدة. والأشغال ترميماتٌ في القسم القديم من الدير وزيادة أجزاء جديدة. كانت العاشرة قبل الظهر، والهاتف الخليوي في بداية عهده، وكان لعبة الناس في كلّ مكان حتى في سيّاراتهم. أجرى ديب اتّصالين هاتفيين: الأوّل مع المسّاح العقاريّ، والثاني مع متعهّد البناء الذي وصل إلى دير (سيّدة بْعِرفين) وشرع في بسط تحضيراته رغم الطقس المعيق.

ـ حظّنا سيّئ اليوم يا معلّم عبّاس.. ولكنّ الأرشمندريت مستعجل جدًّا، قال ديب على هاتفه الخليوي.

ـ لا بأس يا أستاذ. الشباب أَنزلوا العدّة كلّها، وبلّشنا بتحضير القوالب، أجاب المعلّم عبّاس على الخطّ.

ـ حسنًا.. أنا قادم. يعطيكون العافيي.

ربع ساعة ويصل المهندس ديب عساكر إلى الورشة. خفّت حدّة المطر قليلاً، بيد أنّ الغيوم الطالعة من البحر تنذر بالأسوأ. وقف تحت القناطر وتحادث مع المعلّم عبّاس وأعطى تعليماته على الخرائط. كان العمّال يرتدون لباس النايلون ويقفزون من مكان إلى آخر بالأعتدة والأدوات والسقالات والألواح الخشبيّة. وبينما كان ديب يتحادث مع المعلّم عبّاس.. سمع الجميع صوتًا آتيًا من الداخل:

ـ طلعِت القهوي، قرّبو بَلكي بتكون صِحيت الدني شوي.. كانت هذه كلمات إحدى طبّاخات الدير. ودخل ديب والمعلّم عبّاس والفورمان وبعض العمّال إلى الصالة الفسيحة داخل القناطر، حيث مقعدان خشبيّان طويلان وطاولة، واستُخدمت هذه الغرفة للاستراحة وتناول الطعام للعمّال طوال مدّة الأشغال. شرب الجميع القهوة مع الدردشة الصباحيّة وعادوا إلى العمل. وزاد ديب قليلاً في فنجانه، ثم راح يتمشّى في ردهات وشرفات الدير يتأمّل أعمدته وقناطره والسقوفيّة. وبينما هو يمشي خطوتين ويقف خطوة.. حانت منه التفاتة إلى غرفة جانبيّة فسيحة فارغة في القسم المشرف على وادي البلدة، فرأى راهبة شابّة واقفة أمام لوحة قماشيّة ملطّخة بالألوان القاتمة.. ترسم العاصفة في الخارج. فاقترب ديب ووقف وراءَها على بعد عشر خطوات. ولم تلحظ هي وجودَه. بيدَ أنّ قامتها الهيفاء وشعرها الكستنائيّ الغضّ المنسدل تحت القلنسوة، وشى بأنّ هذه الراهبة بارعة الجمال. فشدَّهُ جمال قفاها رغم العباءة السوداء. واقترب ليرى الرسم.

ـ يعطيكي العافيي، قال ديب بلطف.

ـ أهلاً، الله يعافيك. أجاب صوت ملائكيّ رخيم. واستدارت صوبه.. وخطفه سحرُ عينيها.. ثم كانت ثواني صمت، كأنّها دهر!

ـ هل أنتِ هاوية أم مُحترفة؟

ـ أقلّ من هاوية يا أستاذ.

ـ ولكنّه رسم جميل! وعبّر بعينيه عن إعجابه بلوحتها.

ـ شكرًا، هذا من ذوقك.

ـ أنتِ بارعة في الألوان. إنّها طبيعيّة!

ـ هي الخبرة بلا شكّ. ولكن في غياب الإحساس لا تفيد الخبرة كثيرًا.

ـ يبدو أنّ الإحساس عندكِ قويّ حتى قادك إلى موضوع صعب.. وحزين كهذا.

ـ عندما تحسّ الموضوع لا يعود صعبًا، بالعكس أنت تتمتّع جدًّا برسمه. كأنّك ترسم ذاتَك.

ـ ألوانك عميقة وحزينة.

ـ الموضوع هكذا. الطبيعة هي الحزينة.

ـ ريشتك رائعة. خصوصًا المطر في الفضاء، والأبنية القاتمة هنا، والأشجار المنحنية هنا. لوهلة ظننتك مُحترفة خبيرة.

ـ أنا أرسم من زمان. كنت على وشك الدخول إلى معهد الفنون الجميلة.

ـ ترسمين بالأكريليك. هل ترسمين بالألوان الزيتيّة أيضًا؟

ـ أرسم بالزيت لوحات صغيرة. الأكريليك أسهل بكثير في اللوحات الكبيرة فهو يجفّ بسرعة. ونظرَ إلى الكرسيّ التي تحمل اللوحة، وقال:

ـ بإمكانكِ أن تستخدمي الشوفال! أفضل من الكرسيّ. ورفعت عينيها ثانيةً إلى عينيه بجُرأة حذرة.. جعلت قلبه يضطرب وهو الرجل الجريء ذو الشخصيّة الاستثنائيّة. رأى في عينيها عمقًا.. وعالمًا غريبًا لمْ يرَه في وجه حسناءَ من قبل. الأنف الدقيق، والفم الصغير العذب، والبَشَرة الحنطيّة المشعّة تزيدها الخصلات عند الأذنين إشعاعًا. ترى ما سرّ هذا الجمال الهارب من الحياة وبهجتها.. وقبَرَ نفسَه في هذا الدير الموحش؟ ساءَل ديب نفسَه.

ـ لماذا تعملون في هذا الطقس؟ سألت وهي تضرب ضربات قصير على اللوحة.

ـ الأرشمندريت مستعجل. يريد الانتهاء من العمَل قبل المؤتمر في أيلول القادم.

ـ وتعملون تحت المطر؟

ـ في المطر وفي الصحو. ورحلة إزعاجاتنا وضجيجنا ستكون طويلة.

ـ لن تصل رياح الضجّة الجسديّة الخارجيّة إلى سكينة الأعماق، أجابت كأنّها تثير نقاشًا. وأدهشته الفكرة. وكان ينظر إلى وجهها حينًا، ويدِها الممسكة بالريشة أحيانًا.. وحاول أن يعرف عمرها. وتابعت هي الكلام:

ـ أنا أرسم العاصفة الصاخبة في الخارج، وأنا هنا أنعم بهدوءٍ وسلام. ألا ترى؟ وشعر ديب بأنّه أصبح ضحيّة هذه الراهبة الفاتنة، لمْ

يقوَ على تركها ليعود إلى عملِه، بل كان يتحرّق ليسمعها تتحدّث بصوتٍ عذب شفّاف فيه بحّة حلوة.. كأنّه بوصلة تشير إلى وجود معدن أنثويّ نادر. قال في سرّه: «أنتِ في هدوءٍ وسلام وقد فجّرتِ عاصفة أخرى مرعبة فيّ داخلي».

ـ أنا آرشيتكت، وأرسم أحيانًا.. ولكن بقلم الرصاص أو الفحم، وضمن حاجة المهنة. قالَ لها:

ـ لديّ رصاصيّات كثيرة هنا.

ـ ألا تفكّرين في معرض لأعمالك؟ البَرَكة في الأرشمندريت!

ـ أنا أرسم لنفسي وليس للآخرين. أرسم لأنّي أحبّ أن أرى مشاعري ألوانًا وأشكالاً أمام عينيّ. أحبّ أن ألمس عالمي الخاصّ بإحساس عينَيّ ويدَيّ وحتى أذنيّ. الأفكار وحدها لا ترويني.

ـ يديكِ وأذنيكِ؟!

ـ بسلامة فهمك يا أستاذ. الموسيقى مثلاً! أنت تستمع إلى أعماقك في الموسيقى. والرسم هو موسيقى الألوان. ورفعت رأسها تنظر من الواجهة الزجاجيّة لترى السيّارة المقبلة إلى الدير، قالت:

ـ لقد وصل الأرشمندريت.

ـ حسنًا.. سأتركك الآن. تشرّفت بمعرفتك آنسة...

ـ جُهَينة.

ـ إلى اللقاء جُهَينة. هناك كلام كثير مع الأرشمندريت، وعليّ أن أذهب.

وخرج ديب من الردهة، محراب الراهبة الرسّامة جُهَينة، تاركًا إيّاها مع هدوءٍ ملائكيٍّ يعكس كآبة تذوب في ألوانها الشاحبة، واتّزانِ

مظهرها المهيب، وخفوض نظراتها من نوعٍ يحفّز رجولة ناهمة كرجولة ديب. ثم رأى من الرواق الخارجي للردهة الرجل البدين بلباسه الدينيّ القاتم.

ـ يسعد صباحك أرشمندريت، قال ديب مبتسمًا.

ـ ليس سعيدًا البتّة يا أستاذ. أوّل يوم عمل ماطر. هذا لا يبشّر بالخير. قال الأرشمندريت متأفّفًا.

ـ لا بأس. نحن على أبواب الربيع، وآذار يودّع. لقد اتّصلت بالمَسّاح.. وسيأتي يوم الاثنين ويحدّد لنا نقاطنا قبل البدء بالأساسات، قال ديب.

ـ أجلب الخرائط والحَق بي إلى المكتب. لديّ بعض الأسئلة على بعض التعديلات في الحمّامات ونوع البلاط والصخر. ووثب المهندس ديب إلى سيّارته، وأحضر الخرائط، ودخل مكتب الأرشمندريت حيث قضى معه زهاء ساعة ونصف الساعة يتحادثان في المشروع. وألحّ الأرشمندريت على المهندس أنّه من الضرورة إنهاء الأشغال كلّها في أيلول، موعد حلول مؤتمر الرهبانيّات الإقليميّة. وفي نهاية الاجتماع، سأل الأرشمندريت على الإنترفون جُهَينة عن الجداول التي أعدّها الأستاذ ديب لكي تطبعها على الحاسوب. وطفرَ قلب المهندس للنبأ! يبدو أنّ القدر سيجمعه بجُهَينة في عمل في هذه الورشة.

ـ جُهَينة بارعة على الكمبيوتر، ولدينا برينتر كبير أيضًا. وسوف تسهّل لك مهمّات كثيرة تسريعًا في الشغل. وابتسم ديب بغبطة داخليّة وهو يسأل.

ـ هل تقصد جُهَينة الرسّامة؟

ـ هل تعرف جُهَينة؟

ـ لقد تعرّفت عليها للتوّ. إنّها ترسم المطر فوق الوادي. وهي مذهلة.

ـ مسكينة جُهَينة! الرسم يُنسيها مأساتَها.

ـ مأساتها! ما هي مأساة هذه الفتاة الجميلة؟ سأل ديب ملحًّا. وأجاب الأرشمندريت:

ـ جاءَت جُهَينة إلى الدير منذ ثلاث سنوات. لقد مات خطيبُها في حريقٍ كبير في شركة الأدوية التي أسّسها هو بنفسه. وكان يجمعهما حبّ قويّ. أصيبت الفتاة بصدمة نفسيّة كبيرة.. وكادت أن تقتل نفسها بتناول حبوب الدواء. عاشت وحيدة منعزلة عن الناس شهورًا، ثم جاءَت إلينا رغمًا عن أهلها وذويها. لقد جاء أخوها غير مرّة ومعه رجال لأخذها بالقوّة من الدير، وكانت تهرب وتعود إلى هنا. كانت تنتابها موجات من البكاء، وترسم كثيرًا رسومات حزينة. ولكن بعد سنتين من الصلاة والإيمان، استعادت عافيتها النفسيّة. ويبدو أنّ قرارها بات نهائيًّا في البقاء في الدير. الحبّ الأوّل خطير على نفسيّة الإنسان، إذا كان خائبًا.

ـ ولكنّها جميلة وموهوبة، وبإمكانها الانطلاق إلى حياة مشرقة!

ـ ما بكَ يا أستاذ؟ إذا كان ربّنا اختار لها حياة التقوى والإيمان.. ما لك أنت يا أخي؟ لنعد إلى موضوعنا. هل أحرّر لك شيكًا الآن بالمشتريات التي حدّثتني عنها؟

ـ أكون لك شاكرًا، أجاب ديب.

ـ أريد منك جدولاً دقيقًا بكلّ الشيكات التي أحرّرها لك

بتواريخها، تلافيًا للأخطاء.

وخرج ديب من مكتب الأرشمندريت، وأفكاره شموع فضوليّة حول هذه الفتاة المترهّبة حزنًا على حبيبها، فغدت الحياة بدونه بِلا معنى! أيّ شابّ هذا الذي أحبّته هذه الحسناء؟ لماذا يختار بعضهم الكآبة في الحبّ؟ مئة شابّ يتمنّونها! لماذا هذا اليأس «والانتحار الأبيض»؟

كان يومًا طويلاً صعبًا على العمّال. وهو اليوم التحضيريّ لبدء الأشغال. قال ديب للمعلّم عبّاس:

- إذا كان يوم غدٍ ماطرًا أيضًا لا شغل. وأجاب المعلّم عبّاس بالموافقة.

لم يفكّر المهندس ديب دقيقة واحدة بالورشة. كانت خواطره كلّها عصافير حائرة عالقة على «دِبق» جُهَينة.. تلك الأنثى المثيرة للجدل. لقد أثارت في أعماقه «قضايا لاهوتيّة» لا حصر لها. قال في قلبِه: «مهما كان عمر حبيبها معها قصيرًا.. فقد رحل من هذه الدنيا ثريًّا شبعانَ بما وهبته من حبِّها وحنانها». فجُهَينة ليست امرأة وحسب، بل هي سجلّ يختزل تاريخ الأنوثة كلّه. ديب عساكر مهندس شابّ. كان يدرس الهندسة في أيّام الحرب، ويقاتل أيضًا على جبهاتها. توليفة غريبة كانت تكوّن شخصيّة الشباب أيّام الجنون، ومن كلّ الخلفيّات والنظم العقائديّة. هل كانت الحرب موضة تلك الأيّام؟ أم كانت التعويذة الوحيدة لجذب الحسناوات، أي تعويذة العنتريّات؟ هل كانت الحرب اللغة الثقافيّة الوحيدة الباقية للتخاطب بين المثقّفين؟ كلّ المثقّفين حاربوا! والمتوقّع منهم، للأسف، إيقاف الحرب. ديب يحبّ النساء. عمليّ، تهمّه النتائج. الجانب العاطفي في شخصيّته مثلّج. لا

يفهم معنى أن يكون المرءُ حبيبًا، يظنّ الحبّ خيالاتٍ مبالغًا فيها، أو تمثيليّات من ابتكار الجنس اللطيف، ونتيجة العلاقة بين الرجل والمرأة هي الجنس أوّلاً وآخرًا، فلماذا هذه المقبّلات والبروتوكولات الخياليّة التي هي مضيعة للوقت؟ لا يفهم ديب أنّ هذه المقدّمات هي الجزءُ الروحيّ من البهجة الكاملة. قمّة المتعة عند ديب هي اقتناص اللذّة واغتصابها. غريب! الناس أجناس. البعض منهم يحبّ أن يتحرّق قبل أن يحصل على حبيبه، والبعض الآخر ملحاح، وثمّة بعضٌ يطلب المستحيلات، ولذّته في اقتناصها. وديب، منذ سنيّ المراهقة، كان كازانوفا مميّزًا.. وكان قبلة أنظار الفتيات. لم يكن متفوّقًا في صفوف الدراسة، بل كان موهوبًا في الإيقاع بأجمل وأذكى فتاة في المدرسة. والشباب كانوا يحسدونه على قدراته الدونجوانيّة. في الصفّ السادس، حاول اقتحام لارا الجميلة وكانت قلعة عصيّة على الجميع. ولم ييأس. وبقي يجاهد ويحاول حتى تأكّد للجميع، حتى هي، أنّه يهواها بعمق، وهو لا يفقه في الحبّ معنًى. بيد أنّ نوع رجولته يزداد إلحاحًا والتهابًا إزاء المرأة الممانعة. وفي الصفّ السابع، تابع محاولاته، وهكذا في الصفّ الثامن، حتى التاسع في آخر شهر دراسيّ، كانت لارا قد أصبحت صديقته الحميمة تخرج معه في كلّ مكان. كان يختال ناظرًا إلى الجميع كأنّه محمّد الفاتح في القسطنطينيّة، أو القائد رومل عندما دخل مدينة العلمين. كان لديب مزاج غريب. تنتابه الكآبة إذا لم يحصل على ما يريد، وتكثر نوباته العصبيّة. نزعته للسيطرة كانت مُتعِبة له ولسواه على حدّ سواء. انتهت الحرب وتابع دراسة الهندسة حتى حاز على شهادة في الهندسة المعماريّة. وكانت البلاد تعيش مخاضاتٍ سياسيّة، فانخرط في صراعاتها ودوّاماتها. ولسبب انشغاله في الهندسة، لم يقبل عرضًا أن يكون قياديًّا في الحزب الذي ينتمي إليه،

لقد آثر أن يعمل في الظلّ. ليس تواضعًا منه.. بل لأنّ طبيعة الأشغال التي كانت تستهويه لا تُعمل إلّا في الظلال والعتمات. الأعمال الممنوعة التي تجلب المال الكثير. وانجذب للعمل في وساخات الخلاعة أيضًا، ودونجوانيّته المحنّكة كانت جواز المرور. بريستيجُه كمهندس ولباقته ولسانه الطليق المبدع جعل منه ساحرًا قويًّا للمرأة. ولكنّه لم يؤمن بالمرأة للزواج. وهذا لسبب كثرة النساء الخارجات على «القانون» اللواتي عرفهنّ، وهو نفسه شخص مفطور على عدم الوفاء في علاقاته.

كانت الرابعة بعد الظهر حين كان عائدًا إلى بيتِه في المدينة.. وقد صحا الطقس. وشعاعات شمس الغروب تتسرّب بخجل من وراء غيوم قاتمة تبيَضُّ شيئًا فشيئًا، كأنّ مرحلة ما من حياته بدأت تلوح طلائعها في الأفق الرماديّ هذا. وجهُ جُهَينة يشبه هذا الغروب الجميل! لم تخدش فؤادَه أنوثة امرأة من قبل، ولم يتهيّب جبروت الجمال وسلطانه قطّ، فكيف بهذه الراهبة الحسناء الحزينة؟ ركن سيّارته في الزقاق قرب المنزل، ودلف إلى السفليّ الأوّل من تلك العمارة الحديثة الفخمة. رمى أوراقه والخرائط على الطاولة، وأحضرَ لنفسه كأس ويسكي وارتخى قبالة التلفاز، وهمس لنفسِهِ:

ـ الزواج ليس حلّاً.. بسّ لازم تستقرّ يا ديب عساكر.. متل كلّ الناس.

* * *

٥

بلدٌ يبحثُ القانونُ فيه عنك،

أفضل من بلدٍ تبحث فيه أنت عن القانون.

وليد الحسيني

الساحر ديب عساكر!

لا يقدر أحد أن يعرف كيف استطاع الشيطان أن يسرق ملاكًا من الجنّة ويرمي به في أتون الهاوية. خلال أشهر قليلة، تمكّن ديب من الولوج بجرأة إلى عالم جُهَينة، راكبًا موجة الأفكار النجسة التي تحوّمُ دائمًا كالكواسر فوق رؤوس النسّاك، فأقنعها بترك الدير والخروج إلى الحياة.. بل إلى الزواج! أي أن تصبح زوجته. كيف اقتنع هو أوّلاً بفكرة الزواج؟ أهي النظرة الأولى؟ كيف اقتنعت هي بالعودة إلى حياتها الطبيعيّة؟ أهو الحبّ ثانية؟ الله أعلم. بيد أنّ الجميع يعرف أنّ ساعة مشؤومة كانت، يوم جاءَ المهندس ديب ليُصلح هذا الديرَ القديم المُوحش.

وسرّ التغيير في عقل ديب نحو الزواج سيتّضح للناس فيما بعد من خلال سلوكه مع جُهَينة. ولكنّ سرّ انزلاق جُهَينة التدريجيّ إلى الهاوية علّله الآخرون أنّه ساعة تخلٍّ من الله نحو هذه الفتاة سيّئة الحظّ، التي طاردها الشيطان حتى إلى السماء. لم تكن العلاقة ركوبًا طيّعًا لكلاهما، الفنّ نسرٌ محلّق والهندسة قفزاتُ حِجال! ولكنّ جُهَينة كانت حوريّة من الحوريّات اللواتي نشأ ديب على لذّة ملاحقتهنّ لإرواءِ الرجولة النرجسيّة الماجنة. وفي هذه المرّة لم يكن الصيد للمتعة فقط، بل كان هناك غاية. والمغامرون الطامحون، غالبًا، تُنسيهم طموحاتهم الأخلاقَ والأصالة. تسقط حسابات الأدوات والوسائل من غربال الغايات الأبعد. ومن قالَ إنّ الصوَر البلاغيّة موجودة فقط في الأدب؟ فحياة بعض الناس مسلسل غريب من توريات وكنايات ومجازات.. حتى إنّ لكلّ سلوكٍ يصدر عنهم مضامينَ وأهدافًا أعمق ممّا هو ظاهر.

ومع مرور شهر على بدءِ الأشغال في الدير، شعر الجميع بالتقارب الواضح بين ديب وجُهَينة. وأكثرَ ديب من عمله مع جُهَينة. النهار بكامله: ديب المهندس وجُهينة الراهبة قربَ الواجهة.. تحت القناطر.. في الحديقة.. في غرفة الكمبيوتر.. في المطبخ.. في صالون الدير.. في المنحدر الطبيعيّ وراءَ الدير.. وأجواء الدير رومنسيّة بامتياز. ولكنّ الأخطاء الهندسيّة تزايدت! وكثر القيل والقال.. ديب يلقي بالتبعة على المتعهّد عبّاس.. والمعلّم عبّاس راح بدوره يشكو أمرَه للأرشمندريت.

ـ ما هذا يا أستاذ ديب؟ الأمور لا تسير على ما يُرام، سأل الأرشمندريت ذات يوم ديب بتأفّف.

ـ أيّ أمور يا سيّدنا؟

ـ الأخطاء المتزايدة. كلّ حَجر يُبنى ويُهدم مرّات. وكلّ عمود يُبنى مرّتين وأكثر.

ـ يا سيّدنا المعلّم عبّاس...

ـ ليست المشكلة المعلّم عبّاس بل جُهَينة. قال الأرشمندريت بحزم.

ـ جُهَينة!

ـ نعم جُهَينة.

ـ إسمع يا سيّدنا.. جُهَينة سوف تترك الدير قريبًا، قال ديب بهدوء.

وعندما عرف الأرشمندريت بما عزمت عليه جُهينَة من ترك الدير، لم يشأ الوقوف في وجهها. خصوصًا عندما عرف السبب، وهو طبخة الزواج الذي كان يُحضِّر ديب لها مع «همروشة» الأشغال في الورشة. بيد أنّ ملامح جُهَينة كانت مشرقة بصورة لافتة. وفي نهاية الأشغال تقريبًا، أي في شهر تمّوز، كانت قد خلعت عنها ثوب الترهُّب وارتدت لباسًا مدنيًّا. وهل الحياة غير أدوار نؤدّيها فوق مسرح الحياة، ولكلٍّ دور هندامه ورداؤه؟! للطهر ثوبه وللنجاسة ثوبها، للسلطة ثوبها وللكدحِ ثوبه، للفرح ثوبه وللحزن ثوبه أيضًا. بدا أنّ معدنًا مشعًّا كان مدفونًا وراءَ طيّاتِ ثياب الدير القاتمة، أو ماردَ أنوثة جاء ديب وَحَكّ فانوسه وأطلقه من أسره الحزين.

ـ بإمكانكِ الرحيل ساعة تشائين، قال لها الأرشمندريت.

ـ لن أرحل قبل انتهاء الشغل، أجابت.

ـ أرجو أن يوفّقك الله يا جُهَينة، ويعوِّضَك أضعاف ما فات.

غريبة هي الأقدار حقًّا! أن يكون الدير العقدة التي شكّلت قلبين حبيبين.

ـ أحيانًا، هناك قرار واحد أمام الإنسان، لا يسعه إلّا أن يعلنه ويسير فيه.

ـ كان تصميمك ثابتًا في البَقاء في الدير، آنذاك.. أتذكرين؟

ـ وتصميمي الآن ثابت يا سيّدنا. الإنسان ابن المرحلة التي يحياها. مرحلة الدير أرّختها تلك اللوحات التي رسمتها. سأعمل معرضًا، وسأمارس الفنّ وأصبح رسّامة.

ـ وفّقك الله يا ابنتي.

وكان الزفاف زفافين. الزفاف الأوّل عناق جُهينة مع الحياة ثانية، والزفاف الثاني هي وديب. كانت الفرحَة «مطنطنة» في ذلك المنتجع الفسيح ذي الرياش الثمين والخدمة الفاخرة، حيث كانت سهرة العرس الصاخبة جامعة بين ذوي العروس والعريس كليهما. وبعض من علاقات ديب في المهنة والسياسَة كانوا حاضرين. وصوتُ أحد المطربين الرخيم يدور حول راقصة فاتنة كأنّها جنّ من بنات حنجرته الساحرة. والخدمُ يحومون بصوانيهم حول الطاولات كالفراشات بين الزهور. وصل جيلبير.. وقعد ربع ساعة.. شرب كاسًا وهنّأ العروس والعريس.. ثم خرج ومرافقه أيّوب الصامت إلى جانبه كظلّه.

ـ من عادتنا نحن الاحتفالُ بالعودة إلى العزوبيّة، وها أنت تحتفل بالخروج منها. كانت هذه كلمات جيلبير لديب موشوشًا. وضحك هذا الأخير.

ـ شو بدّك بهالشغلة.. الزواج حبس، أضاف جيلبير.

ـ القرار حضر أمامي حضور جلّادٍ. ولم يكن أمامي إلّا المثول لمشيئته.

ـ لا تقل لي إنّك عاشق متيّم بهذه الحسناء يا شيخ.

ـ أنا وجّي وجّ غرام؟ إنسَ.

ـ ماذا يدور في رأسِك يا شيطان؟ سأل جيلبير بنبرة خبيثة فاحصة، ولم ينبُسْ ديب ببنت شفة.

تمّت الفرحَة بسلام، وسافر العروسان إلى شاطئٍ ساحر، في الجنوب التركيّ، لقضاء شهر العسل. وأمضيا عشرين يومًا في النعيم. رسمت هناك جُهَينة مجموعة من الرصاصيّات وأخرى بالألوان المائيّة والزيتيّة وبأحجام متفاوتة، لتشكّلَ منها إلى جانب رسومات الدير معرضَها الأوّل الذي ستقيمه حال عودتِهما من شهر العسَل. وسيكون «كونتراستًا» غريبًا جذّابًا بين شحوبِ روحيّة العزلة وبهجة الشواطئ الأثريّة للجنوب التركي. ظنّت جُهَينة أنّها أساءَت فهم الحياة بسبب جرحها من حبيبها الأوّل. إذا كان الحبّ الأوّل أعظم، فإنّ جرحَه هو الأدمى. الحبّ الأوّل ليسَ هديّة الحياة للإنسان البتّة! ولكنّه البوّابة التي يدخل منها إلى حديقة كبيرة فيها الثمار الحلوة وفيها المرّ. دهائيّة ديب عساكر أقنعت جُهَينة بأنّ الحياة تشبه جسد الإنسان والطبيعة تعالج نفسَها بنفسِها، بل إنّ الشفاءَ كامن في نزف الجروح! الحياة مسلسل رائع من الدمعة والابتسامة، ويوم الابتسامة هو يوم المداواة والتعافي. مهما قستِ التجارب على المرء فهي نصف الكأس الذي يسقي جزءًا من سعادتنا في هذا العالم. وأكثر من هذا! بل لا قيمة للسعادة بغير أن تقابلها الكآبة، فلحظات السعادة تزداد توهّجًا وإطرابًا بعد مرور مراحل الكآبة. والحياة تملك وقتها الكافي لتنجزَ مهمّاتِها، وتُجري جراحتَها

بصورة كاملة. وكما أنّ الكريات البيض في الدم هي التي تداوي الجرح، فتركيبتنا النفسيّة مؤلّفة من «الكريات الحمراء» أي الجزء المجروح، و«الكريات البيضاء» أي الجزء المُعالج. وعندما يُجرَح الإنسان نفسيًّا تتكفّل الكريات البيضاء بالهجوم على النزيف القاني لتنهي علاجَها بطريقة حكيمة عجيبة. تلك بعض من فلسفة وحِكم الشيطان ديب. وما إن عاد العروسان من شهر العسل حتى بدأ التحضير للمعرض، وجعلت جُهَينة عنوانه (كونتراست الجَسَد والروح).

ـ هذه اللوحات في هذا الجانب مشرقة، وتلك في الجانب الآخر كئيبة. أليس كذلك؟ كانت هذه كلمات روميو الشابّ اللطيف يقولها لجيلبير عزوري الذي حضر هو الآخر إلى المعرض، لكي يشجّع «من الناحية التشريحيّة» زوجة صديقه في السياسة. واشترى جيلبير أغلى لوحتين زيتيّتين. بيدَ أنّ سِحر جُهَينة كان اللوحة الأجمل في المعرض. منذ عودة العروسين من شهر العسل.. والعزومات والعشاوات سيلٌ جارف من شلّال كرم السلطان جيلبير، في مطعم فاخر أو فندق فخم أو في الشقّة الساحليّة أو الجبليّة. واستشعر ديب نوايا جيلبير ولم يكترث. أولاد الكار يفهمون بعضهم بعضًا جيّدًا. كان جيلبير يقول لديب وهو واقف بجانبه في المعرض، وعيناه فراشتان تحترقان بلهيب جمال جُهَينة:

ـ لقد وفّقت بهذا الزواج يا أستاذ ديب. جُهَينة فعلاً هديّة من السماء.

وفي هذه الأثناء، كان روميو يقترب من جُهينة ويسألها:

ـ لماذا بعض اللوحات حزينة وبعضها الآخر «مفرفح»؟

ـ الفنّان يعبّر عمّا يشعر به إذا كان صادقًا مع نفسه. والإنسان

دومًا إمّا سعيد أو حزين.

ـ أنت موهوبة.

ـ شكرًا لك. ولكن لم يحصل الشرف فنتعارف.

ـ محسوبك روميو الملقّب بـ «الجيز».

ـ «الجيز» ما سرّ هذا اللقب؟ وابتسمت مستغربة.

ـ «الجيز» هو «زيز الحقلة» مقضّيها «لا شغلي ولا عملي». أنا من زلم السيّد جيلبير عزوري، هو حياتنا ومستقبلنا.

ـ أنت تتعاطى السياسة أيضًا؟

ـ ظاهريًّا.. في الجانب الإعلاميّ.

ـ وباطنيًّا؟

ـ سؤال قريب من الخطوط الحمر!

كان ديب في سنتِهِ الجامعيّة الأخيرة، عندما سهّل له جيلبير عزوري نجاحه من الدورة الأولى في مشروع التخرّج. كانا صديقين حميمين. تقاطع أمزجة وأهداف. تخرّج ديب من الجامعة وراح الحزب يشغّله في مشاريعه الإنشائيّة أو الترميميّة في أقسامه وفروعه. وساعده الحزب ليفتح مكتب (دراسات وتنفيذ) في العاصمة.. وهكذا، كان الحزبُ المطار الذي أقلعت منه طائرات المهندس ديب عساكر نحو فضاءَات الهندسة. هذا كان سابقًا لإنشاء جيلبير حزبه السياسيّ الخاصّ به هو الآخر، والذي يوالي في طروحاته الحزبَ الأمّ. وراح اسم جُهَينة فيما بعد يزداد حضورًا في ميادين الفنّ في البلد، ومؤسّسة جيلبير عزوري الإعلاميّة لها الفضل الأكبر في ذلك. وهنا خطّ التماس بين المَسارين والمصيرين: جُهَينة غانم وريهام بدوي، الفنّ والصحافة، الرسّامة والإعلاميّة. وخطّ التماس الملتهب هذا هو جيلبير عزوري

وغرابة عالمه وأطواره. وغرابة الأطوار، أحيانًا، لثامٌ خبيث يُخفي ملامحَ المجرم بالكامل، أو قفّاز يحولُ بين البصمات وأداة الجريمة. كانت يومها جُهَينة تحت تأثير المخدّر، في حفلة العودة إلى العزوبيّة في الشقّة الساحليّة، ولا تدري المسكينة ما يُحاك لها. ودخلت إلى فراش العهارة غير واعية. كانت هذه الجرعات التدريبيّة الأولى، التي كان الشيطان جيلبير يمارسُها مع أناس يخطفهم من حياتهم، ليحوّلهم إلى «روبوات» خاضعة لبرمجة حواسيبه المجنونة. وأدركت جُهَينة لاحقًا أنّ شيك الشهرة الإعلاميّة يُسحب غالبًا في بنك الشرف والطمأنينة، لينفق على دمار الزواج. ديب يعرف كلّ شيء! ويعرف تمامًا ماذا يعمل جيلبير.. هذا المشعوذ الداهية الذي يدمّر عوالم ويبني عوالم أخرى، بإرادة صلبة عنيدة. إنّه يهدم نعيمًا ويخلق الجحيم مكانه. ولكنّ جيلبير وديب ديكان في خُمٍّ واحد، وساديّان في زنزانة واحدة، والتصادم بينهما مسألة وقت.

عبرت الفصول الأولى من هذا الزواج لا يعكّرُها معكّر. بيد أنّ ديناميّة حياة ديب بدأت تثير الريبة عند جُهَينة. هذا الزواج المشكول والمشبّك بأعمال جيلبير عزوري بعقدة أو بأخرى، بدأ يتحوّل تدريجيًّا إلى غربة ووحشة. جيلبير جعل منها نجمة في عالم الفنّ. وجيلبير صديق قديم لديب. وعلاقة جيلبير بديب جعلت حياة هذا الأخير منكفئة عائليًّا. لا يجمع ديب وجُهينة غير الفراش، لا حبّ ولا دفءَ الأسرة الروحيّ ولا من يحزنون. بدأت الأيّام تدور دورتها.. إلى أن قال لها ديب ذات يوم بهدوء، وقد تحيّنها، وكانت على الشرفة الشماليّة الرحبة، ترسم لوحة سرياليّة:

ـ لقد دعوتُ السيّد حسيب جابر للعشاء اليوم. أريد أن أستقبله أفضل استقبال.

ـ وماذا يعني أفضل استقبال؟! سألت جُهَينة بعد أن وضعت ريشة الألوان من يدها، ومسحت أناملها بالروب.

ـ أريده أن يخرج من عندنا راضيًا عليكِ. أنتِ قصدُه من هذه الزيارة، وأريده أن يكون مسرورًا. ونظر في وجهها نظرات قاسية مخيفة، تحمل معنًى حادًّا يريد غرزه في عواطفِها. ومنذ ذلك المساء، أدركت جُهَينة أنّها في غابة. والقيمة في حياة الغابة فقط للنواتج الختاميّة، وأمّا مكوّنات المُعطى فترمى في القمامة كأنّها فتات المائدة. النمر جائع وسوف يأكل الغزالة، وأمّا لطافة وجمال الغزالة لا قيمة لهما البتّة عند النمر. الليونة والخير والاستقامة والضمير مفردات أعجميّة بالنسبة للغة «أمير الظلام»، والتي تبدع مواهب جيلبير وديب في استخدامها. شعرَت بأنّها تنزلق إلى الهاوية. ليالٍ كثيرة لا يرجع فيها ديب إلى البيت إلّا مع طلوع الضوء، ورائحة غريبة، كريهة أحيانًا، تفوح من جسده، وأصبحت تعرف ما هي. أدركت بوضوح أنّه ما عاد يرغبها، وعلى مدى شهور طويلة. فطلبت ذات يوم، من ريهام بدوي رقم هاتف روميو، واتّصلت به، واستحلفته بأعزّ ما لديه أن يُسدي لها خدمة، وكانت تريد أن يَتحرّى روميو عن خيانة ديب لها.

ـ ها ها ها.. من أيّ كوكب أنت؟ يبدو أنّك بعيدة عن الجوّ كلّيًّا، قال روميو وهو يضحك ساخرًا على الهاتف.

ـ لماذا تضحك؟ سألت وهي متحيّرة.

ـ الجميع عائدون من الحجّ.. وأنت ذاهبة. لم تفهمي بعد اللعبة.

ـ أيّ لعبة؟! سألت بنبرة غاضبة.

ـ الأفضل أن يخبرَك ديب بنفسه.

وروميو هذا بدأ يحوّمُ حولها بعد ذاك، كما تحوّم الكواسر حول الجثّة، وانقادت له أخيرًا. وديب كان يراقب تململها، ورفضَها لهذا العالم الغريب الذي يريدُها أن تقبله وتعتاد عليه. أرادَ أن ينجب منها ولدًا لربطها بالزواج، فلا تهرب وتهجره. ولكنّها أجهضت مرّتين! وكانت تظنّ أنّها تنتقم من ديب بخروجها مع روميو، ولا تدري المسكينة أنّ روميو آلة تدريبيّة لقتل الإنسان فيها، وفيروس لتعطيل نظام القيَم والأخلاق، وتمرين على المغامرات في بقاع غيرِ المألوف.

ـ لقد نِمْتُ مع روميو، قالت جُهَينة لديب وهي تنظر في عينيه علّها تعثر على ومضة غيرة أو حبّ.

ـ حقًّا! طيّب روميو أليس كذلك؟ إنّه جذاب. قالها كأنّه يُبدي رأيه في مشكلة هندسيّة. وأدركت البائسة من ساعتها أنّ أمامها خيارات ثلاثة: إمّا الهروب أو الانتحار أو الدخول في هذا العالم الجهنّميّ المترامي الأطراف الذي تعيش فيه. فقرّ رأيها على الخيار الثالث. كان بإمكانها الهروب! بيدَ أنّ الخيار الثالث فيه ثأر.. من عدوّ لم تستطع أن تحدّدَه بعد. هو كالأشباح. وهو أفقيّ التخوم.. وراحت تتكسّب المهارات المطلوبة في معركتها هذه.

روميو شابّ سكسيّ بامتياز، خبير في الفراش محنّك. ذاقت معه رجولة صاخبة خلّاقة. لقد تتلمذت على يديه حتى باتت حاذقة بارعة.. بل عشقته عشقًا جسديًّا حتى الإدمان. كانت تخرج معه علانيّة، وأحيانًا يأتي هو لعندها، وعلى مرأى من عينيْ ديب، الذي كان مسرورًا بالتغيير الذي اعتقد أنّه تمكّن من إنجازه أخيرًا.

أراد ديب تركها لمرحلة من الحرِّيّة قبل أن تصبح صالحة للخدمة. فكانت هذه المرحلة مرحلة الحرِّيّة الجسديّة والشبع النفسيّ بالنسبة

لجُهَينة، قبل أن تكتمل الشخصيّة الممسوخة (أي روبو الجنس) فيها لتأهيلها للخدمات الصعبة. فالخطّة توجب مسخَها من كائنٍ ذي عواطف وأخلاق إلى عُملةٍ جنسيّة مغرية تستعمل في السوق السياسيّة الحرّة. وبعد مرور سنة.. كانت جُهَينة قد تحوّلت إلى غانية من الغواني المطلوبات، وبالأرقام الصعبة، بل من شخصيّاتٍ بارزة في البلد.. وبمؤازرة من الوسيط المشعوذ جيلبير. وأمّا ديب فانكفأ مرحليًّا، من مساحات جُهينة للاهتمام بالتجارة القذرة الجديدة التي شرع في تأسيسها، وسوف تنضمّ إليها جُهَينة لاحقًا. كانا زوجين بالشكل فقط، ينامان في بيتٍ واحد، جسدين بلا روح تجانس بينهما. هي لها علاقاتها الكازانوفيّة، وهو له صولاته المجنونة ومشاريعه الملهمة.

علمت جُهينة بعد ذلك من روميو أنّ ديب ينوي الدخول في مجال الدعارة على مستوى عالٍ، وهو يسعى إلى تغطية متنفّذين كبار من مستوى جيلبير وغيرهم. وكثرت غياباته عن البيت، وأحيانًا لشهور. وقلّ عمله في الهندسة ما خلا «تنقيرات عالخفيف». عاد ذات مساء إلى البيت في ساعةٍ متأخّرة، وكانت جُهينَة تستعدّ للخروج بتبرّج جنسيّ خرافيّ:

ـ أنا بحاجة إليكِ في العمل معي، قالها بحزم.

ـ لن أعمل معك يا ديب.. أريد ان أبني شغلي لوحدي، أجابت بتحدٍّ وشجاعة.

ـ «علّمناكِ عالشحاده سبقتينا عالبواب»! أتنكرين فضل من علّمك المصلحة؟ قال كلماته بعصبيّة، فانفجرت ضاحكة كأنّها سمعت نكتة. وأجابت والمرارة تخنق صوتها:

ـ ألا بئس طلّاب أنتم أساتذتهم! ماذا علّمتني يا هذا؟ لقد أنزلتني من السماء إلى جهنّم. أنا الآن أكبر شرموطة في البلد.

ـ بل أنتِ ملكة.. أهمّ الشخصيّات بتركع عند إجريكي.. ويرمون عشرات ألوف الدولارات أمامك.

ـ الشرف لا ثمن له يا ديب. قالت بنظرةٍ ملؤها القرف والاشمئزاز، وصرخت في وجهه عاليًا:

ـ أنا زوجتك يا بني آدَم وتريد منّي أن أشتغل في العهارة عندك. أيّ إنسان أنت؟! من أيّ سحر طلعت لي لتدمّر حياتي وتمزّقها بهذه الوحشيّة؟!

ـ ما هذا؟ أما انتهينا من اللغة العتيقة بعد؟ فأمسكت المنفضة من على المنضدة ورمته بها. فتحاشاها وهو يقول:

ـ غريب أمرك يا جُهَينة. أنتِ كغريق لا زال يخشى البلل. ستغيّرين رأيك حتمًا.. وعن قريب. المال عندنا أكثر بكثير ممّا تتخيّلين. ثم أغلق الباب وراءَه وخرج. وما قاله حقيقيّ. هي تعمل لوحدها ولا تجني مالاً بالقدر ذاته فيما لو عملت معه. لقد أصبح هو إمارةً في الدعارة «الرسميّة». عدلت عن فكرها فيما بعد، وعملت معه وجنت مالاً كثيرًا، وكانت تدّخره بكامله. وأصبحت ثريّة خلال شهور بسبب نُطَفِ الثراء الذي كان يُقذفُ بين فخذيها. وهكذا مرقت الأيّام.. وطلع لها ديب بموّال آخر، وهو تهريب السلاح لتنظيمات إرهابيّة. فأجبرها على نقل القطع الأوتوماتيكيّة بسيّارتها الجيب لاندروفر بين المستودعات. جعلوا للمستودعات المدفوفة الجدران بعوازل صوتيّة، أسماء سرّيّة: العنبر، الحوت الأزرق، القرش الأبيض، أبو منشار، البطريق، الفقمة، أبو مطرقة... إلخ. وفي

الشقّة الساحليّة التي لجيلبير عزوري في السفلي الثالث كان (البطريق). لم يكن هامًّا إلى من هذا السلاح، الهامّ فقط هو الأرقام، والوحلة الشرقيّة تمور بالحروب والصراعات، وأنواع لا حصر لها من الإرهاب. في أوّل «نقلة» لها أصيبت جُهَينة بنوبة هلع شديدة لم تشعر بها قطّ. كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل والشوارع خالية، خرجت من النادي الليلي بصحبة العامل المساعد الأوّل كأنّه زبونها، للتمويه. كانت ترى في كلّ سيّارة آتية أنّها تابعة لأمن الدولة أو الشرطة السرِّيّة، وفي كلّ شخص يمشي على الرصيف مخبرًا. وخطواتُ المرّات الأولى دائمًا مرتبكة. كالجنس في المرّة الأولى. بيد أنّ البون شاسع جدًّا بين التمرّس بالجنس والتمرّس بالأعمال المخالفة للقانون وتهريب الممنوعات. يقال: «مثل عذابات الحْراميّي» أي أنّ السارق مهما بلغ من خبرته في السرقة.. يبقَى رهينة رعبٍ وتوتّر ثقيل لا ينتهي إلّا بانتهاء «العمليّة» بنجاح. توجّهت بسيّارتها وزبونها المزعوم إلى (البطريق)، وكان العامل المساعد الآخر ينتظرها في المستودع. والخطّة تقضي أن تبقى في هذه الشقّة زهاءَ ساعة من الوقت ثم تنطلق ثانية مع «زبونها» إلى الشمال حيث (الأخطبوط) لتفريغ الحمولة. في المرّة الثانية كانت أكثر شجاعة، وهكذا اعتادت هذا النوع من العمليّات. كانت تسأل نفسها دائمًا كيف أنّ هذا الأمر يجري بهذه السهولة! كأن لا دولة ولا حسيب ولا رقيب. ولاحقًا أدركت أنّ العصابات الخارجة على القانون تشبه شركات التأمين، الشركة الأكبر تغطّي الشركة الأصغر منها. وهكذا، فإنّ الشركات العابرة للقارّات تغطّي الشركات المحلِّيّة. والحكومات شكل من أشكال العصابات المحلِّيّة التي تغطّيها العصابات الدّوَليّة العابرة للقارّات، والحكومات بدورها تغطّي العصابات المحلّيّة الصغيرة.

شعرت ذات يوم أنّ الحياة لم تعد تطاق على هذا النحو. حياة غارقة في العبث، حياة مختبئة وراء جدار الخوف والذلّ. حياة ظاهرها مكلّس وباطنها منجّس. كان المطر غزيرًا في الخارج، والمزاج النفسيّ لجُهَينة قاتمًا لدرجة أنّ الحياة ما عادت بذات قيمة. متى يصل الإنسان إلى درجة اليأس؟ يقال إنّ الانتحار جبن لسبب العجز إزاءَ مواجهة الحياة! والحقيقة أنّ الخروج من الحياة بقرار ذاتيّ هو قفزة إلى المجهول.. وهذا لعمري شجاعة. أن يرى الإنسان الحياة الكريمة بخيلة.. بل عقيمة.. قرارُ الخروج منها ليس جبنًا. لقد أقفلت الحياة دونه أبوابها فغادرها على رغم منه. حالتان لا ثالثة لهما يصل المرءُ فيهما إلى الانتحار: عندما تكون الحياة في نظره شيئًا عظيمًا، ثم يستنفد كلّ ابتهاجاتِها وأمورها بسرعة، فلا يبقى له شيء، فيجدها عندئذٍ هشّة فارغة لا تستحقّ الاحترام. أو أن يظنّها صندوقة بهجة ومسرّات، فإذا بها تذيقه الأمرَّين، فيشعر بخداعها وخيانتها له. الشبه غريب بين الحياة والمرأة! عندما ييأس الإنسان لا يحتاج إلى شجاعة للانتحار البتّة! لأنّ الحياة إذا أصبحت نبعة جفّ ماؤها يهجرها زوّارها غير آسفين. هل الحياة سخيّة على ناس وبخيلة على ناس؟ أم أنّ المشكلة في فهمنا ونظرتنا للحياة؟ يريد الحياةَ بعضُهم خيّاطة تفصّل له رداءَه على قياسه بالتمام، فإذا أخطأت في سنتمتر واحد أصبحت في نظره فاشلة خاوية. لماذا وصلت جُهَينة إلى الانتحار؟ لأنّها كانت تنظر إلى الحياة بمثاليّة عظيمة، فخيّبتها مراراتُها، وروّعتها أنيابُها القذرة المتوحّشة، حتى باتت أقفاص غربةٍ موحشة. كانت وحدها في بيتها المنعزل عن الأحياء المكتظّة، تلفّه الأشجار الكثيفة من الطريق العامّ حتى السفوح، وبالكاد يعوم قرميده الأحمر فوق بحر الخضار الكثيف من فوق. كان المطر الغزير الثقيل يخترق الأغصان المتشابكة ويفرُطُ

الورق ويجرّده معه إلى الأرض. أحكمت إغلاق الأبواب والنوافذ جيّدًا وفتحَت قارورة الغاز، وجلست تنظر التلفاز بهدوء. بيد أنّ الحياة لم توقّت بعد هذه النهاية المأساويّة الآن.. لقد أرجأتها إلى زمنٍ لاحق. بعد دقائق، وكما لو بإرادة غيبيّة، يصل روميو الملاك الحارس! ومصابيح سيّارته الأودي تُسقِط أنوارها على واجهة المبنى.. كلمعات البرق السابقة للهزيم. يرى سيّارة جُهَينة مركونة في مكانها قرب البيت، فيثب ويقرع جرس الباب ولا من يجيب. حاول ثانية لا حسّ ولا حركة. يئسَ من المحاولة وهمَّ بالرحيل.. لولا سماعُه رنين الهاتف العميق في الداخل. فدار حول البيت ونظر من نافذة غرفة الجلوس حيث الرنين قويّ، فرأى جُهَينة مغمًى عليها. أمسك حصاة موحلة من حوض الزهور وكسر بها الزجاج وأنقذها في اللحظة الأخيرة.

ـ السماء شديدة السواد تبرز جمالَ القمر وضوءَ النجوم، قال روميو لها بعد أن استعادت وعيها.

ـ سمائِي لا قمر فيها ولا نجوم، قالت بهمس. لماذا أنقذتني؟ لا أريد الحياة.

ـ القرار ليس بيدك.

ـ من اختار لي الحياة، قرّر أن تكون قذرة مقرفة بهذا المقدار. ألا ترى؟

ـ الحياة هكذا. وهكذا الناس.. أنتِ مثاليّة خياليّة.

ـ كلّ الناس شياطين يا روميو. كلّكم أشرار.

ـ الملائكة في السماء فقط يا جُهَينة، ونحن على الأرض.

ـ وهل تؤمن حقًّا بالسماء يا روميو؟ أنا كنت في السماء، وتخلّيتُ عنها بإرادتي.

ـ أقصد بكلامي أن لا سماء ولا ملائكة. نحن بشر من لحم ودمّ. ولأجسادنا حاجات.. و..

ـ البشر يتحاربون لأجل هذه الحاجات. غريب! كلّما ازداد الإنسان قوّة زادت غرائزه التهابًا، وزاد جنونه. المال وجسد المرأة.. فقط لا غير.

ـ لماذا لا تقبلين الحقيقة كما هي وتستريحين؟

ـ لقد حُرمت أجمل شيء في الحياة، فرَحَ الجسد. لقد سرقت أجسادُ الرجال منّي كلّ قطرةٍ لذّةٍ في جسدي. لم أعد أشعر به. جسدي أغصان يابسة هجرتها طيور المُتعة.

ـ ربّما السبب في أنّ معظم الرجال يريدون الأخذ في الجنس لا العطاء، قال روميو مؤاسيًا.

* * *

٦

لا يُمكن ممارسة التجارة

دون إنارة شمعةٍ للشيطان.

مثل إنكليزي

ـ خارطة المساحة.. وخارطة الكنز.. خطوط ورموز بالقلم البيك الأزرق فوقها. ولكنّ البيك الأزرق بالكاد يظهر.

ـ هذا طبيعيّ. عمر هذه الورقة خمسة وثلاثون عامًا. أنت تبحث عن وهم، وكلّ الذين يصدّقون حقيقة وجود مثل هذا الكنز. كان هذا الكلام يدور بين أيّوب وجيلبير المنحني فوق الخارطة على الطاولة، بيُمناه الزجاجة المكبّرة، وقربه القهوة ومنفضة مليئة بالسكائر، والسيكارة بيُسراه يكاد يسقط رمادها المتداعي على الخارطة. وأضاف أيّوب الواقف إلى جانبه وقد قرّب المنفضة تحت سيكارة جيلبير:

ـ إنتبه ستحرق كنزك هذا بالسيكارة. فقال جيلبير:

ـ لا زلت تهزأ بي يا أيّوب. . دائمًا تهزأ. أنتَ الذي عرّفتني على هذه الخارطة اللعينة ونكّدْتلّي عيشتي. وتعرف جيّدًا أنّ إنجازاتي بدأت أوّلاً على كاس وسكرة.

ـ في المرّات السابقة كانت سكرتك فلسفة، أمّا الآن فأنا أجزم بجنونك المطبق.

واعتدل جيلبير في وقفته، ونفض سيكارته، ثم رشف من قهوته رشفة أخيرة وسكب أيضًا من الرّكوة.

ـ أتريد مزيدًا من القهوة؟

ـ لا. شربت فنجانين، أجاب أيّوب.

ـ لقد بلغني من أوساط مقرّبة من آل شمعون أنّ خبريّة هذا الكنز «تلفيقة» وهي حرب إعلاميّة لتشويه السمعة. الغاية سياسيّة لا أكثر.

ـ معقولِة كتير.

ـ ولكن ما سرّ لهفة صديقنا السيّد ح. ص. إلى هذا الكنز المزعوم؟ سأل جيلبير وهو يقترب من الواجهة الزجاجيّة، وينظر إلى الطيور تحطّ فوق السطوح وتطير بعيدًا وتختفي. فأجاب أيّوب:

ـ هذه حلقة مفقودة. هذا السرّ لا يعرفه غير السيّد ح. ص.

ـ أو هو الآخر يؤمن بوجود هذا الكنز.

ـ كانت أيّام فوضى آنذاك، والبلد كلّه يشتعل. ترى ما سرّ بقاء هذه الخارطة على قيد الحياة، فنجت من تلك المعمعة؟

ـ أنت محقّ. . فالقصر أُحرق بما فيه ونُهب. . فكيف نجت هذه الأوراق؟

ـ لديّ نظريّة في هذه النقطة، قال أيّوب.

ما هي؟ سأل جيلبير.

ـ هذه الخارطة «مفبركة» في زمن لاحق. وتبقى الأسئلة كثيرة: متى؟ أين؟ لماذا؟ والأبعاد؟

ـ إذا لم يكن هناك كنز فلدينا أسرار أخرى أيضًا.. وعلى قدر كبير من الأهمّيّة! بحسب وجهة نظرك.

ـ هناك سرّ ما، حتمًا، وراء هذه الخارطة.

ـ أنظر.. هل ترى هذا «الإيكس» هنا المحاط بدائرة؟

ـ أجل، أجاب أيّوب.

ـ ستذهب معي يوم الخميس القادم ليلاً، لنحفر عند هذه النقطة، جنوبيّ موقع القصر بحوالى سبعين مترًا. وهذا من أسرار الآلهة. وغدًا نزور ساحرًا عجوزًا لكي يكشف لنا الطالع.

ـ حاضر يا زعيم. ألن نحتاج لعامل يساعدنا يوم الخميس؟

ـ لا. أنا وأنت لوحدنا. جهّز الأدوات اللازمة.

وفي اليوم التالي، قبل الظهر، كان الرجلان قد وصلا إلى المخيّم.

ـ هل أنت واثق من هذا العجوز وما يملك من معلومات؟ سأل أيّوب جيلبير، بعد أن ركنا السيّارة في زاوية مهملة من شارع فقير مكتظّ في المخيّم، وترجّلا منها قاصدَين إلى منزل «أبو الجماجم» أحد أمراء الاقتحامات الدامية منذ الشرارات الأولى للحرب اللبنانيّة عام ١٩٧٥، وأجاب جيلبير بثقة:

ـ هذا «أبو الجماجم» يا أيّوب. لم يشنَّ الفلسطينيّون معركة في لبنان إلّا وكان هو «زنبرك» إطلاقها. إنّه محارب شرس. ولديه الكثير من الأسرار. هو سوريّ الأصل جاء إلى لبنان في أوائل السبعينيّات، وانتمى إلى الجبهة الشعبيّة، وبسرعة تولّى مناصب قياديّة على مستوى الميدان، شجاع وكفاءَته القتاليّة عالية، وأصبح العقل المخطّط للهجومات. إنّه الآن في الستّين من عمره، وأصيب بالفالج منذ ثلاث سنوات.

ـ لديك معلومات دقيقة عنه، قال أيّوب.

ـ وهل أنا ذاهب لآخذ مشورة رجل أجهل من هو. لقد استعلمتُ عنه جيّدًا.

وسارا زهاءَ دقيقتين في الشارع الضيّق، بين الأبنية الصفراء، وأعلاها من طبقتين. أصوات الصبية تُسمع في كلّ مكان، ويتراكض بعضهم حفاة بين الأرصفة. شارع يشبه شوارع أفريقيا الفقيرة، أو حيًّا بائسًا في شنغهاي. البؤس هو الديباجة التي تهيّئ لثقافة من نوع ما في هذا المكان. ثم انعطفا يمينًا وهبطا طريقًا مُثلّمًا لمنع انزلاق إطارات السيّارات، ووصلا إلى أسفل، وعبرا شارعًا آخر حيث صعدا سلّمًا من خمس درجات، وشاهدا الرجل الستّينيّ على بعد عشرين مترًا، تحت خيمة القصب والنخيل المشرفة على بستان الموز، ينفث الدخان في الفضاء من أركيلة ستّينيّةٍ عجوز هي الأخرى. فاقتربا. وقال جيلبير:

ـ مرحبا يا أبو الجماجم.

ـ يا هلا بالشباب. إنّي أنتظرك هنا منذ الصباح. تفضّلا. وجلسا على كرسيين مصنوعتين من الخشب وورق النخيل. وكانت رائحة

الزهور تفوح في أرجاء المكان. ففي كلّ زاوية ورود.. والحوض مليء من الفلّ والقرنفل والياسمين. الجلسة جميلة ومنعزلة بعض الشيء عن الفقر المعفّر الذي يضجّ به الشارع.

ـ يا أمّ طلال، جاء الرجال. حضّري القهوة من فضلك، نادى الرجل زوجته.

ـ ألف شكر لك يا «أبو الجماجم» أم أبو طلال؟ وابتسم جيلبير وهو يسأل بنبرة مازحة.

ـ الله عا إيّام «أبو الجماجم». منذ نهاية الحرب لم يناديني أحد بهذا الاسم. حقًّا لقد نسيته. وها أنت تعود بي عشرين عامًا إلى الوراء.

ـ أريدك الآن أن تعود بنا إلى العام ١٩٧٦ وبالتحديد.. اقتحام قصر السعديّات.

ـ إنّها خارطة الكنز.. أليس كذلك؟ هناك أكثر من جهة تسعى لأجل هذا الكنز. كميل شمعون في دنيا الحقّ. وقصره في السعديّات باعه ابنه داني لرفيق الحريري، وباع قصر دير القمر أيضًا للنائب القوّاتي...

ـ جورج عدوان، قال جيلبير. وهكذا دخلا في صلب الموضوع بلا مقدّمات.

ـ بَلى.. وأمّا حكاية هذا الكنز الغريبة فلم تظهر إلّا عام ١٩٨٧ إبّان حرب المخيّمات.

ـ كيف يا أبو الجماجم؟ سأل جيلبير وهو ينحني صوب محدّثه

باهتمام بالغ، كمن يتفحّص عملة نادرة، أو قطعة حليّ ثمينة. وأضاف:

ـ لا تتفوّه بكلمة قبل القهوة. لا يطيب لي الاستماع بغير القهوة.

ـ القهوة يا أمّ طلال، نادى أبو الجماجم ثانية.

وأخرج جيلبير علبة سكائره، وأعطى واحدة لأيّوب، وقال لأبو الجماجم:

ـ أنت بِغنى عن هذه بالأركيلة، أليس كذلك؟

ـ أجل، شكرًا.. قال أبو الجماجم.

دقيقتان وخرجت أمّ طلال حاملة صينيّة القهوة، وهي تقول:

ـ لا تواخذوني يا جماعة. أبو طلال بصلتو محروقة يريد دائمًا الضيافة سريعة. يا ألف أهلا وسهلا.

ـ لا يا أمّ طلال. هذه المرّة نحن أردناها سريعة لنتمتّع بها مع حكايات الشباب وتاريخ أبو الجماجم. قال جيلبير وهو يتناول فنجانه ويرشف منه ساخنًا. ولّع السيكارة ونفث الدخان في الهواء. وعاد أبو الجماجم إلى كلامه:

ـ أحيانًا يعنّ لي أن أكتب قصّة حياتي. نعم. فهي مليئة بالغرائب والعجائب: مواقف مشاهد مصائب صدمات نار دماء دمار... إيه...

ـ هناك الكثير من مثل «أبو الجماجم» في هذا البلد. ولكلٍّ تاريخ حافل.

ـ أتسمّي هذا تاريخًا؟ الجيل الذي سبقنا وجيلنا والجيل الآتي، سنبقى حاملين المعاناة على أملٍ قيلَ لنا سيشرق يومًا. وهذا التاريخ، حتى الساعة، مظلم وتائه.

ـ أنت متشائم.

ـ قضّينا عمرنا في النضال. ويبدو أنّ النضال يتطوّر هو الآخر مع الزمن. لقد بدأ النضاليّ أوّلاً.. وتلاه الفدائيّ ثم المقاوم فالجهاديّ.. وأخيرًا الإرهابيّ.. وتمرّ السنون والبؤس يزداد بؤسًا.

ـ أنت يساريّ مثقّف، قال جيلبير مسايرًا أبو الجماجم في حديثه. وتابع أبو الجماجم:

ـ كانت أيّامًا مجنونة منذ بداية السبعينيّات. غرقنا في وحلة الطائفيّة في هذا البلد حتى آذاننا.

ـ ما يهمّني يا أبو الجماجم هو ما حدث في السعديّات عام ١٩٧٦.

ـ قلت لك على التليفون إنّي لا أصدّق حكاية هذا الكنز. الخارطة من اختراع أحد ضبّاط الجبهة الشعبيّة، وباعها بكمّيّة من السلاح والذخيرة لأحد ساسة هذا البلد في حرب المخيّمات.

ـ لا يمكن أن يدفع أحد السياسيين البارزين الأذكياء ثمنًا قيّمًا لأجل خرافة!

ـ هذا الضابط الداهية أقنع السياسيّ بحقيقة الخارطة والكنز. والقادة، للأسف، ضعفاءُ أمام المال. قادة هذا الشرق باعوه.. مسحورين بتعويذة المال.

ـ ألن ترشدني إلى هذا الضابط؟

ـ قلت لك إنّه قتل عام ١٩٩٢ في مغدوشة. لن ينفعك موضوعه في شيء.

ـ ماذا حدث عندما اقتحمتم قصر السعديّات، سأل أيضًا جيلبير.

ـ بعد إجلاء الناس جميعًا في البحر بالزوارق، هرب الرئيس كميل شمعون بالهيليكوبتر. كان شهر كانون الأوّل. كان الرعب عظيمًا في الجموع الهاربة من جنون وحشيّتنا. لقد لاقى الكثيرون حتفَهم في البحر لأنّ الزوارق صغيرة وسط الأمواج العاتية. العدوّ وراءَهم والبحر أمامهم. كان الموقف رهيبًا! كلّنا كنّا منجرفين في دوّامة العنف الثأريّ آنذاك. دخلنا القصر وأحرقناه. جميع المدافعين عن الدامور والجيّة والقصر كانوا من النمور. وكنّا نحرق البيوت التي نحتلّها..

ـ بعد نهبها، أضاف جيلبير.

ـ أجل. أجل. وهل تتوقّع غير ذلك في هذه المعمعة المخيفة التي كانت دائرة آنذاك. المقاتلون جميعًا تحت تأثير المخدّر، ومقاتلو الطرف الآخر أيضًا.

ـ المعامع لم تنتهِ منذ ذلك العهد البعيد. الصراعات لا زالت مستمرّة.. وهي الآن ربّما أكثر عمقًا.

ـ لقد قصفنا القصر بالمدفعيّة من عيار ١٥٥ ملم.

ـ لماذا هجمتم على بلدة الدامور ونكّلتم بأهلها؟ سأل أيّوب.

ـ إذا كنت تسأل عن السبب المباشر، فالجواب هو إقفال الطريق الدولي الذي يربط الجنوب ببيروت. وكانت هناك عمليّات تسلّل لمجموعات الإنعزاليّة وقتها..

ـ الحركة أو الجبهة الوطنيّة، قال جيلبير.

ـ في أكثر من موقع.

ـ ولكنّ السبب الأقوى هو الردّ على اقتحام الكرنتينا. أليس كذلك يا أبو الجماجم؟

ـ يمكن. لقد كانت ردّات الفعل سيّدة الموقف حينها، ومن كلّ الأطراف، أجاب أبو طلال. لواء القسطل وقوّات العاصفة وفرقة النصر والتنظيم والبعث العربي الاشتراكي.. وغيرها ممّن أنساهم الآن شاركوا في هذه المعركة.

ـ معركة! كانت عمليّة فرز ديموغرافي كبيرة في البلد. ٢٠٠٠ نازح وصلوا إلى مرفأ جونيه العسكري. واستمرّ الفرز لسنوات عديدة، قال أيّوب مشاركًا في الحديث. ولولا الخافرات العسكريّة والبواخر المدنيّة وطائرات الهيليكوبتر لما نجا أحد.

ـ أتريد أن تحاسبني على كلّ الماضي؟

ـ لا يا أبو الجماجم. فقط ندقّق في بعض الأخطاء التاريخيّة. الكلّ خبّص في الحرب. وتابع أبو طلال:

ـ أذكر يومها أنّ أحد القوارب انقلب بسبب عتوّ الأمواج، وكان هناك غطّاسون رافقوا العائلات فأنقذوهم من الغرق. كانت أعداد النازحين كبيرة. أذكر أنّي شاهدت مراهقًا يقضي حاجته وراء جدار حجريّ. ما إن رآني، من خوفه، صار يبكي ووجهه أصفر كالشمس. قلت له سأحميك هيّا انجُ بنفسك. فوثب أحد جنودنا عليه من حيث لا أدري وضربه بالفرّاعة في رأسه. فتًى في الخامسة عشرة. لولا المخدّر لا يستطيع إنسان طبيعيّ مهما أوتي من القساوة أن يفعل هذا. وقيل لي إنّ امرأة في ملجأ القصر ولّدت، وسَمح لها بعض عناصرنا بالوصول إلى قارب النجاة. وأذكر أنّه أخبرني جنديّ صديق لي بعد أيّام، أنّه أنقذ امرأة وولديها، عندما رآها تعرضُ الجنس على أحد المحاربين لكي يدعهما يهربان، وصرخ فيه صديقي أن يترك المرأة وولديها. فلم يشأ. فأطلق عليه النار وأرداه.

ـ أنت تحاول تبييض صفحات كثيرة سوداء يا أبو الجماجم، قال أيّوب. وأضاف أيضًا جيلبير:

ـ هذه نقطة في أوقيانوس المجزرة في وقتها.

ـ أردت القول إنّ على الجنديّ في المعركة تنفيذ الأوامر الصارمة والهجوم على الموت بشجاعة، وغريزة الحياة هي التي تدفعه إلى الوحشيّة. وجميع الجهات المتحاربة غارقة في دوّامة لا تستطيع الخلاص منها.

ـ وأيّ شيء مفيد في موضوع الخارطة؟ سأل جيلبير ثانية.

ـ حاول فكّ رموزها يا أخي.. علّك تصل إلى شيء. إنتبه! إنتبه جيّدًا.. قد تكون نسختك هي الخارطة المزيّفة وليست الأصليّة.

ـ ما هذا؟! هناك خريطة أصليّة وخريطة مزيّفة؟! سأل جيلبير بدهشة موجعة.

وسرعان ما حضر مساءُ الخميس حضورَ حاجب مخلصٍ أمين.

مرّت الساعات الأولى من الليل. إنّهما يستعدّان للذهاب. جيلبير درس الرحلة، وحدّد النقطة التي يريدها جيّدًا، ثم انطلقا هو وأيّوب، جنوبًا، إلى بلدة السعديّات. ثم انحرفا غربًا بعد عبور المستديرة نحو البحر، واجتازا البيوت القديمة المتناثرة النائمة في تلك الليلة المقمرة. لا شيءَ الآن يُسمع، في سكون الليل، غير صوت دواليب السيّارة فوق الحصى، وحشرات الليل. ركنا السيّارة تحت الشجرة ليخبّئاها من الأشعّة الفضّيّة. وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل.

ـ هيّا أنزل الأغراض والأدوات وأنا سأسبقك ومعي «البيل» لأحدّد مكان النقطة، قال جيلبير لأيّوب.

ومشى جيلبير نحو البحر.. وكان هناك جُدُرٌ قديمة مهدومة، بعضها حجرٌ طبيعيّ والبعض الآخر حجر خفّان بنّيّ اللون. كان قد رسم على ورقة صغيرة الأبعاد المطلوبة. وما إن وصل إلى النقطة المنشودة حتى جمد الدم في عروقه من المفاجأة! كان هناك حفرة كبيرة، قطرها خمسة أمتار والعمق ثلاثة أمتار تعلوها الأعشاب. ممّا يشير إلى أنّ هذه الحفرة من صنع إنسان.. وهي ليست حديثة! وصل أيّوب وراءه حاملاً الأدوات.

ـ لا أظنّ أنّ هذا ينفع. يبدو أنّ هناك من سبقنا إلى هذا الكنز. تأفّف جيلبير.

ـ لماذا؟ سأل أيّوب.

ـ أنظر. هناك من نقّب جيّدًا في هذا المكان. ومن زمان. يبدو أنّك محقّ يا أيّوب في أنّني ساعٍ وراءَ وهم. فقال أيّوب:

ـ لحقنا وتعذّبنا وجينا ومعنا العدّة، فلنحفرْ قليلاً لمزيد من التأكّد. ثم فجأةً! سمِعا أنينًا أنثويًّا قريبًا من المكان، وراءَ الجُدُر المهدومة، ثم تأوّهات خافتة. فقال جيلبير لأيّوب:

ـ إذهب وَرَحِّل هذين العاشقين المزعجين. «هلّق وقتون!» ومشى أيّوب في اتّجاه الصوت. وسمع جيلبير صرخة أيّوب المرعبة بهما، وصرخة الفتاة، ورآهما يهربان نحو الطريق عاريين، حيث خبّأا سيّارتهما بين الأعشاب العالية.

ثم شرع جيلبير وأيّوب ينقّبان في قلب الحفرة وخارجها لأكثر من ساعتين. وحفرا عمق مترين تقريبًا. وكان العرق يتصبّب منهما حتى يئس جيلبير من إمكانيّة إيجاد أيّ شيء. وفجأة! وقبل أن يتوقّفا عثرا على طرف سجّادة ملفوفة. نقّبا حولها وكانت سجّادة قصيرة. حاولا

فتحها فتحلّلت لأنّها كانت مهترئة. ووجدا في داخلها ساعة ذهبيّة وسيفين مطعّمين بالذهب وخمسة خواتم ذهبيّة.

ـ أهذا ما تبقّى من ضالّتنا! قال جيلبير بدهشة كبيرة.

ـ قد يكون هذا البداية. من يدري؟

ـ لا يمكن أن يكون الكنز على عمق ثلاثة أو أربعة أمتار! أهو جثمان توت عنخ آمون؟

ـ أو أنّ هذا كلّ ما تبقّى لنا ممّا «لهفه» غيرُنا، قال أيّوب.

ـ أو أنّ باقي الكنز في أمكنة أخرى قريبة من هنا.. لقد أوشك الليل أن ينتهي.. هيّا نرجع.. يكفي.

حملا العدّة ورجعا إلى السيّارة. وقبل أن يدير جيلبير مفتاح الكونتاك خرجت ثلاث سيّارات من سحر ساحر وحاصرتهما. وثب منها خمسة رجال مسلّحين، دفعوهما وحشروهما في إحدى السيّارات بعد أن عصبوا أعينهم. والرجلان في حالة ذهول كامل. دخل أحد الخمسة إلى سيّارة جيلبير وقادها. ثم انطلق الموكب إلى جهة مجهولة. وبعد ساعة سير، توقّف الموكب قرب بناءٍ عتيق يتداعى، تركت الحرب تواقيعها عليه، حجارة الخفّان صفراء كُشطت عنها الورقة. آثار رصاص وثغرات. المبنى طبقتان. بيد أنّ الطبقات السفليّة حديثة الهندسة والتجهيزات! والذي فوق الأرض تمويه لما هو تحت الأرض. ولكنّ أعين المخطوفين لا زالت معصوبة. ولم يُنزع عَصْبُهم إلّا بعد أن نزلا عدّة سلالم، ومشيا خمسين مترًا في مكان سفليّ فسيح، وصدى وقع الخطوات أنبأهم أنّ المكان فارغ. كُشفت الأعين وكانت الأيدي موثقة وراءَ الظهر. خمسة رجال بنظّارات سود متشابهو القامة والهندام والحركات. رجل واحد سمين الجثّة، يجلس على

كرسيّ بلاستيكيّ، يرتدي جينزًا وقميصًا مع ربطة عنق نصف مفكوكة، مشمّر الكمرين فوق ساعديه. وقد خبّأ عينيه وراءَ قناع نصفيّ، مع شاربين بَدَوا غير طبيعيّيْن. ثم راح يتكلّم بنبرةٍ حادّة آمرة:

ـ سيّد جيلبير، أرسل السيّد أيّوب إلى منزلك. . الآن. ليأتِ بالخارطة المنحوسة. الشباب سيذهبون به ويعودون فورًا، وخلال نصف ساعة. وإلّا سنلجأ لأساليب أخرى، كالتي تستخدمها أنت مثلاً. موافق. قال هذا وتوقّع من جيلبير ردًّا إيجابيًّا سريعًا. وكاد أن يأمر الشباب بالتنفيذ. فأجاب جيلبير مظهرًا رباطة جأش:

ـ ألن أعرف مع من أتكلّم. عن أيّ خارطة تتكلّمون؟ سأل.

ـ أوه. لا وقت لدينا يا سيّد جيلبير. الخارطة التي كنت سارحًا في هذا الليل لأجلها. وكانت الكلمات حادّة النبرة صارمة.

ـ كنت تراقبني إذًا! من أنت؟ ألن تكشف لي عن هويّتك؟

ـ هويّتي لن تستفيد منها شيئًا، وستكون أنت المستفيد الوحيد في حال أذعنت بسرعة لطلبي. وصمت جيلبير قليلاً وهو ينظر إلى الأرض. وكانت الدقيقة بسنة. ثم قال:

ـ أيّوب لا يعرف أين هي، حتى ولو شرحت له الآن هنا.

ـ هذا يعني أنّك لن تكون ليّن المراس. أنت تعقّد المسألة.

ـ لا. لديّ اقتراح، قال جيلبير.

ـ ما هو؟ سأل الرجل السمين، وقد أمال رأسه نحو جيلبير يترصّد نواياه. لديّ ولع في الاقتراحات البديلة. وأجاب جيلبير:

ـ ليبقَ أيّوب هنا وأذهب أنا. وصمت الجميع لثوان كأنّها دهر. عاد الرجل وقال:

ـ هل هذه لعبة؟ سأرسل معك عشرة رجال مسلّحين. وتأتي بالخارطة بسرعة البرق. ولا مجال لأيّ اتّصال بأحد. وأيّوبُك بيدنا في حال إخلالك بالاتّفاق.

ـ قلت لك لن أخلّ بوعدي، وأيّوب سند الكفالة.

وقف الرجل السمين، وراح يتمشّى ذهابًا وإيابًا لدقيقة وهو يحكّ ذقنه ويفكّر. واقترب من أحد الرجال وراح يُسِرُّ له كلامًا في أذنه، ثم تحدّث قليلاً مع رجل آخر. . وعاد فقال:

ـ إذا تأخّرتم أكثر من نصف ساعة، يصبح أيّوب في وضع بائس للغاية. قبلت الاقتراح. هيّا انطلقوا يا شباب.

عاد الشباب وربطوا عينيْ جيلبير، ثم أصعدوه السلالم وأدخلوه في سيّارته وهو يسمع صليل السلاح وخرطشة المسدّسات، كأنّها رسالة على أنّه صيد نادر بين أيدي هؤلاء الرجال. وقاد السيّارة أحد الرجال الذي تحدّث إليه الرئيس الممتلئ الجثّة. وانطلقت السيّارة كطائرة أقلعت، ودخان الدواليب كدخان الفانوس قبل أن ينبثق منه المارد. وانطلقت سيّارة أخرى وراءَها، تقلّ خمسة رجال طوال وصِلاب الجثّة. وفي الطريق، لم ينبس أحد ببنت شفة. شعر جيلبير أنّ الخلاص مستحيل، وأنّه محاصر برجال أقوياء تخترق عيونهم جسدَه كأنّها رصاص حيّ. أدرك أن ليس أمامه إلّا تسليم الخارطة بكلّ هدوء. ولا بدّ له، على الأقلّ، أن يعرف من هذا الذي يريد هذه الخارطة المنحوسة. والفرصة أمامه الآن متاحة. . وعليه إيجاد الوسيلة. . وأنجده مرّة أخرى شيطان وحيه في اللحظة الأخيرة إلى الوسيلة، فقال بصوت عالٍ ممثّلاً الغضب:

ـ هالأخو هيك وهيك ح. ص. بقي حتى حصل على هذه

الخارطة. فما كان إلّا أن تلقّى لكمة من الجالس إلى يمينه ورفسة من الجالس إلى يساره ووابلاً من السباب والشتائم من الجهتين:

ـ ما حدا غيرك أخو هيك وهيك.. وليه.. قدّامنا بكلّ وقاحة عم بتسبّنا، لنعمل لنسوّي فيك...

فقبل اللطم والسباب بسرور، لأنّه حصل على ما يريد. وسيبقى للزمن حكاية باقية بينه وبين السيّد ح. ص.

وصلت السيّارتان أخيرًا إلى باحة البيت في تلك الساعة الداجية من الليل. وترجّل منها الجميع. اقترب جيلبير، بعد تحرير ناظريه، مخفورًا بينهم إلى باب منزله ليفتح الباب. وفجأة سمع الجميع هذه الكلمات آتية من الوراء:

ـ ليرمِ الجميع أسلحتهم أرضًا، وإلّا أطلقت النار. وتلا هذا خرطشة البندقيّة. والتفت الجميع إلى مصدر الصوت فذُهلوا عندما رأوا اثنين من العشرة شاهرَين بندقيّتيهما نحو الثمانية وجيلبير بينهم. وجيلبير نفسه كان ذاهلاً لا يفهم ما يجري. وقال أحد الإثنين:

ـ إيّاكم وأيّ تصرّف غبيّ. سنأخذ جيلبير ونرحل نحن معه في سيّارته، وتعودون أنتم من حيث أتيتم. فقال أحد الثمانية وهو ينظر بعينين من نار:

ـ لقد حكمتَ على نفسِك يا هذا. لن تنجو بفعلتِك أبدًا.

ـ لا وقت عندي للوجدانيّات. «طلعو بالسيّارة وفلّو.. وليه»، نادى بصرخة جهوريّة مرعبة وأطلق رصاصة على جدار جانبيّ، والحزم يشدّ قسمات وجهه القاسية. فامتثلوا لإرادته.. وأنتَ، تعال اصعد وقُدْ سيّارتك ونحن معك لحمايتك.

فصعد جيلبير يقود سيّارته، على يمينه رجل، وفي المقعد الخلفيّ آخر، وهو يجهل من هما وإلى أين هو ذاهب معهما.

* * *

ـ غير الله لا أحد يعلم كم هو الحقد عظيم في قلبي نحو هذا الوغد جيلبير.

ـ ولسامعك كمان، أجاب أيّوب.

ـ أنا ويّاه والزمن طويل.

ـ أعداءُ جيلبير كثر. ولكنّه قويّ لا يهاب شيئًا.

كان هذا الحديث دائرًا بين أيّوب والسياسيّ ح. ص. في مكتب الأخير في دارته الريفيّة الواسعة، والمشرفة على وادي النهر لجهة الجنوب، وكروم البلدة لجهة الشمال.

ـ أختك ضحيّة قذاراته كما أختي أيضًا. أختي الجميلة أصبحت الآن عانسًا نتيجة الصدمة النفسيّة التي ألمّت بها بسببه.

ـ أعرف جيلبير جيّدًا سيّد ح. ص. إنّه قاسي القلب.. متوحّش. ثم بلع أيّوب بلعة من الإسبريسّو وهو جالس يتصفّح مجلّة من المجلّات على الطاولة. وقال متسائلاً:

ـ ولكنّك لم تخبرني حكاية أختك معه. فجلس أيضًا ح. ص. على الكنبة الوثيرة في الركن، والسيكار في يده، وقال:

ـ تزوّجها هالإبن القحبة، وبعد خمسة أشهر عرفت أنّه يخونها! وليس مع واحدة. وضحك أيّوب وسأل:

ـ غريب! كيف لم يصارحها هو بنفسِه بدونجوانيّاته.

ـ ليس هنا المشكلة.

ـ أين هي المشكلة؟ سأل أيّوب.

ـ قرط المصنع.. ورماها كما خلقتني يا ألله.

ـ الوغد! إلك يوم يا جيلبير عزوري.

ـ لقد ضقت ذرعًا بهذا الإنسان. سأمسحه عن وجه الأرض.

ـ أنا طوع بنانك. أنت أشِر وأنا أنفّذ.

* * *



٧

قصورُ الظالمين سُجون.

ميخائيل نعيمة

وأخيرًا.. توقّفت السيّارة أمام بناءٍ واجم هزيل، هو سجن النساء في قلب الأحياء الغربيّة القديمة من المدينة. نقدت ريهام سائق السيّارة العموميّ المال، وفتحت شمسيّتها.. والمطر ذرّات متناثرة كفصول حياتها وحياة جُهَينة غانم المتلاشية في مهبّ الريح. جُهَينة في السجن لعامها الثالث، وريهام بدوي تزورها ثلاث مرّات في السنة، لا أكثر. لقد اعتادت ريهام، في بعض زياراتها الخاصّة، ألّا تذهب بسيّارتها الباجيرو الحديثة بل في سيّارة عمومي. وكانت ريهام قد استحصلت على إذن «ملغوم» لدخول سجن النساء كصديقة لجُهَينة، حيث لا يُسمح إلّا بزيارة ذوي السجين من الدائرة الضيّقة، أو المتابع القضائي أو الاجتماعي. وجرت عمليّة التفتيش. هناك ممرّ لدخول الرجال وآخر لدخول النساء. كانت سقوفيّة الإترنيت الخارجيّة واسعة، يحتشد تحتها

جمهور من الرجال والنساء. يُلاحظ أنّه في سجون الرجال يحتشد النساء في الخارج، وفي سجون النساء يحتشد الرجال في الخارج. قد تكون ملاحظة طبيعيّة، واستنتاج عابر ليس بذات أهمِّيّة. ولكنّنا نستطيع أن نقرأ بشيءٍ من العمق أنّ الأنوثة المأسورة تجعل الرجولة مرتبكة، والرجولة المأسورة أيضًا تجعل الأنوثة مرتبكة هي الأخرى. والناتج الحتميّ أنّ الرجولة والأنوثة كائنٌ واحد، فإذا جُرحَ النصفُ تألّمَ النصفُ الآخر، إمّا الكائن بكامله حرٌّ أو بكامله أسير. وألِفَت ريهام أيضًا، مشهد السجينات الجاحظات العيون، الحائرات وراءَ الشبابيك والأبواب الحديديّة، ومن جنسيّات مختلفة. في البداية كانت تفكّر ما الذي يمنع أن تكون هي الأخرى سجينة مثلهنّ؟! الذي تعمله وتعيش فيه يستحقّ العقاب. هناك عساكر لتفتيش الرجال وعسكريّات لتفتيش النساء. راحت تنظر إلى الطابور الطويل الذي يتقدّم ببطء، وهؤلاء يأتون مرّتين في الأسبوع لزيارة سجيناتهم. وهي تعلم جيّدًا أنّ جُهَينة «مقطوعة من الشجَرة» نبذها ذووها وتخلّوا عنها، ولم يكن لها سوى روميو. النساء الجانحات يُمسَحن من الذاكرة، كالأسماء المكتوبة على الرمل كما تغنّي فيروز. هي نفسها وحيدة! ليس لها غير زبائنها وجيلبير، والمصدران قريبان بعيدان: الزبائن يريدون لذّة جسدها، وجيلبير يريد أثمار هذه اللذّة. تشعر أنّ جسدها وجمالها مجد كاذب.. بل هو سبيٌ مزمن. تموت حاسّة اللذّة الجنسيّة عند العاهرات عمومًا. فلكثرة الأيادي التي عزفت على هذا الجسد نفدت طاقاته وتوهّجاته الجنسيّة. تمامًا كالوردة تستنفد الأنوف توهّجاتها العطريّة. الجنس طاقة وتوهّج وشوق، هو روحٌ في إيقاعات الجسد، وعند الغانية يكون الجسدُ مشاعًا. وأمّا الروح وهي حصانة الجسد، ستعاني الغربة والأسر في رحلة عذاباتها عابرة من جسد إلى آخر، كالمنفيّ من

بلد إلى آخر، خاضعة لنوتات الجسد في سيناريوهاته الممسوخة. إنّ الأمر بالنسبة للغانية يشبه طريقة عقابيّة رومانيّة قديمة مرعبة للمجرم قبل إعدامه. وهي إجباره على حَمل جثّة ضحيّتِه على كتفيه، والمشي بها في الشارع لثلاثة أيّام، فيعاني كراهة رائحتها التي لا تُحتمَل. لا تستطيع الغانية المزمنة التي أصبح الجنس مهنتها، والمهنة ثقلٌ غيرُ محبوب عمومًا، أن تحبّ. فالجنس يذيبُ الحبّ الحقيقيّ كما يقول جبران: «والحبّ إن قادتِ الأجسادُ موكبَه، إلى فراشٍ من اللذّاتِ ينتحرُ»، فكيف بعلاقات جنسيّة كثيرة مع أناس كثيرين؟ تعرف ريهام جيّدًا أنّها هي وصديقاتها في المهنة قد انتحرن عندما أصبحن عاهرات. لأنّ العهر لعبة سياسيّة خارجيّة تواطأت مع الجسد الجميل لتدمير قدرة المرأة على حبّ رجل. بل العهر، في حقيقته، جسدٌ أنوثيّ يمارس الجنس بطاقة روحيّة رجوليّة! النرجسيّة عشق المرأة لمظهرها، إنّها تتمتّع به. ولكنّ العناية بالجسد عند الغانية سعيٌ للحصول على المال فقط. تمامًا كالكاتب الذي لا مزاج له على الكتابة.. ولكن عليه تسليم المقالة في موعدها، رغم غياب الطاقة الروحيّة الداخليّة التي تفيض بالمادّة المطلوبة، وهذا عمل مرهق. أنْ تمثّلَ الغانية الحبّ أمرٌ شاقّ وليس سهلاً كما يظنّ الكثيرون. ريهام وجُهَينة غانيتان صديقتان ولدتهما قابلة جيلبير عزوري الشرّيرة في أقبية إمارته الماجنة. ريهام صحافيّة بارزة وجيلبير نشر نجوميّتها. وجُهَينة رسّامة بارزة وريهام أطّرت نجوميّتها. وهكذا جُهَينة بدورها أيضًا سوف تصنع أخريات كثيرات.. إنّها أحجار الدومينو التي تتهاوى تباعًا واحدة تلو الأخرى. إنّه السقوط المرتبك إلى الهاوية، إنّها كرة الثلج التي تجرف معها بياضَ الأخلاق والقيَم إلى أسفل. وسقوط للطاقات الروحيّة التي تشكّل وجدانيّات البشر. سقوط للعناوين السامية التي تفهم معنى

الجنس الحقيقي في الوجود الإنساني. غانية حرّة تأتي لتزور غانية سجينة.. أم أنّ الاثنتين سجينتان في وجهٍ ما؟ وكلتاهما تدرك أن لا حرِّيّة في سجن القدّ الجنسيّ المثير، وهما أصبحتا رافضتين أيضًا لهذا السجن الأخير.

وضعت ريهام أغراضها التي جاءَت بها على الآلة الفاحصة للممنوعات (السكانر) وسُمح لها بالمرور. وكانت العسكريّة تزعجها بطريقة تفتيشها، فتقلّب ثدييها وتفتّش ما بين فخذيها بحثًا عن ممنوع مهرّب، وهذا من وراء الحجاب الأسود. قالت ريهام للعسكريّة بتأفّف:

ـ أنت تضايقينني بهذا الأسلوب. فأجابت العسكريّة وهي تنظر في عينيها لثوانٍ قبل أن تجيب:

ـ هذه هي الأوامر سيّدتي.. إذا ضبطت الممنوعات في الداخل.. يا ويلنا!

ـ ولكن ماذا يمكن أن أضع بين فخذيّ؟ سألت ريهام باشمئزاز. وأجابت العسكريّة:

ـ منذ ثلاثة أسابيع ضبطنا سيّدة تخبّئ المخدّرات في مهبلِها.

وبدت علامات الدهشة في ملامح ريهام. لقد غالت طبعًا في دهشتها. فهي ليست «غريبة عن أوروشليم»، وحيَل التمويه والتهريب معروفة عندها. وضعت ريهام الأغراض في المكان المخصّص لنقلها وفق الآليّة المتّبعة. في المرّات الأولى لمجيئها إلى السجن كانت تشعر بخوف غريب! أن تكون فعلاً قد خبّأت شيئًا بالخطأ بين طيّات ثيابها لتهرّبه إلى الداخل. ثم انتهت من طابور التفتيش، وسارت في الممرّات الطويلة الراشحة والمقشّرة. كلمات وعبارات مكتوبة على

الجُدران لا تعني لها شيئًا، خصوصًا الجنسيّة منها. وأحيانًا رسومات لقضيب يقذف والقذف عبارات غزل.. هكذا ترسم السجينة أشواقها على الحائط. وأخيرًا انتهت عند زاوية الممرّ في آخر الردهة حيث كانت تنتظرها جُهَينة وراء الشبّاك الحديديّ، ويتمّ التخاطب عبر هاتف سلكيّ.

ـ جُهَينة كيفِك؟ طمّنيني عنّك. وأجاب الصوت الأجشّ عبر الهاتف.

ـ ما بقا تتعذّبي يا ريهام كرمالي. أنا ماشي حالي هون. إستسلمتُ لقدري. كنت في ما مضى في سجن الدير وكان سماءً. أنا الآن في السجن الذي يحوي نساءً متنمّرات، هنا اللواتي يشبهنني كثيرات.

ـ لن أتركِكِ وحدَك في محنتِك. المحامي يلاحق القضيّة.

ـ أنت تتكلّفين مالاً كثيرًا.

ـ لا يهمّ. أنا مقتنعة ببراءَتِك. أشعر أنّ القضيّة قضيّتي.

ـ ألف شكر لك يا ريهام. كافأك الله خيرًا.

ـ لا أدري.. شعور غريب! كأنّي أدافع عن نفسي في هذه القضيّة.

ـ شكر مضاعف لأجل عواطفك النبيلة.

ـ لا تشكريني يا جُهَينة. كلانا يعرف أنّ ما نعمله ليس صحيحًا. سوف يأتي يوم يبيعنا جيلبير بقشرة بصلة ويودي بنا إلى التهلكة.. جميعنا.

ـ أنا انتهيت يا ريهام. لا أريد العودة إلى الحرِّيّةِ والحياةِ القذرة

التي كنت فيها. عزلتي هنا أفضل لي بكثير. هنا الدير الذي اختاره لي ربّي لأتوب إلى الحياةِ النظيفة.

ـ سأخرجك من السجن.. وستعودين إلى الحياة النظيفة التي تريدين.

ـ وهل تظنّين أنّ عزرائيل سيتركك تشتغلين على هواك. جيلبير يعرف كلّ تحرّكاتك.

ـ لا تخافي من جيلبير. لديّ الآن أصدقاء أقوى من جيلبير. المحامي سيف رجل مخلص. سيأتي في الأسبوع القادم. قال لي إنّ لديه جديدًا.

ـ ألا زلت تتحدّثين عن الإخلاص؟

ـ الشرّ كثير.. ولكن.. لا تخلو الدنيا من الخير.

ـ دعيني يا ريهام وشأني.. أرجوك.. أنا مرتاحة الآن. لا أريد الخروج من هنا. قالت جُهَينة بتنهّد عميق.

ـ أقدّر ظروفك وحالتك النفسيّة. بيد أنّ القضيّة ليست قضيّتك وحدك. أنا في قلب المسألة، أنسيتِ؟

ـ لا نستطيع شيئًا إزاءَ جبابرة الظلام هؤلاء. التمرّد عليهم يعني الهلاك. هذا قدر الضعيف.

ـ لا. إذا قويَ ينتصر. لقد أحضرتُ لك بعض الأشياء. سيدخلونها لك بعد قليل. لا تيأسي. سننجح إن شاءَ الله. هل أنت بحاجة لأيّ شيء هنا يا جُهَينة؟ قولي لي أرجوك.

وهكذا دار الحديث على الهاتف السلكيّ لربع ساعة، والمسموح عشر دقائق. ولكن رحمة العسكريّ الحارس تسخو أحيانًا ببضع دقائق

إضافيّة، وفي كلّ دقيقة تنظر ريهام إليه من بعيد لترى ملامح وجهه. وأخيرًا رأته يرفع حاجبيه علامة نهاية الوقت الإضافيّ.

ـ الوداع جُهَينة. إلى اللقاء.

ـ إلى اللقاء ريهام. وألف شكر لك يا صديقتي.

وخرجت ريهام من عند جُهَينة، وكانت السيّارة العمومي تنتظرها في مرأب السجن تحت الشجرة الغضّة، والمطر لا زال يهطل وكيفًا. وانطلقت السيّارة في الشارع المكتظّ. وسبحت أفكار ريهام في جريمة جُهَينة التي أوصلتها إلى السجن. كان الشعور قويًّا في داخلها أنّ مؤامرة خبيثة الحبكة أوصلتها إلى هذه النهاية المأساويّة.

* * *

أوقف علاقتك بجُهَينة فورًا. الغرام عندنا ممنوع.. الوجدانيّات ممنوعة.. إنّها عائق كبير للشغل.

كانت هذه صرخة جيلبير لروميو على الهاتف منتهرًا غاضبًا.. وكلماته دومًا، مَركِب عائم فوق تيّار اللعن والسباب. مخيف هو الوقوع بين يدي الأقوياء الغاضبين. جيلبير لا يتحمّل التمرّد الغبيّ.. ولا حتى الذكيّ منه! الغرام نقطة ضعف الأعمال السوداء. بل هو الجزيرة العذراء في بحر العواصف. لأنّ الحبّ هو الفسحة البيضاء في قلب السواد الحالك، والأبيض في الأسود يظهر السواد أشدّ سوادًا ممّا هو عليه.

ـ إطمئنّ يا سيّد جيلبير، مخاوفك ليست في مكانها. يُجيب روميو محاولاً التثعلب.

ـ كيف أطمئنّ وقد أرجأتَ عمليّة لويس مجاهد مرّتين لأسباب

أجهلها. وتقول أن أطمئنّ. لم يسبق لنا أن تباطأنا في عمليّة واحدة مرّتين. نحن نضرب الحديد حاميًا.

ـ التالتة ثابتة سيّد جيلبير. صدّقني.

ـ لا. لن تنفّذ أنت العمليّة. لقد وجدتُ بديلاً عنك يقوم بها.

ـ هكذا بسرعة. أخذتَ قرارك النهائي.

ـ أنا قلق على سير الشغل في حقل ألغام العواطف. الغرام قنبلة موقوتة تفجّر كلّ التحضيرات ببساطة. أشبعتُكَ نساءً لكي لا تقع في الغرام، ووقعت.

ـ إذا كنت أخذت قرارك لا يسعني شيئًا. قالها روميو بهدوء.

ـ هكذًا إذًا! تتخلّى عنّا كرمال هالشرموطه يا أخو هيك وهيك. أنا لي عملتك زلمي. رزق الله لمّا كنت تقتل حالك عالشغلي الصعبي!

ـ أنت يا سيّد جيلبير تريد أن تلغيني، وأنا باق على العهد، وسأنفّذ العمليّة. لماذا تنتدب غيري لها؟

ـ وليه رح بتودّينا بداهيي. بعود عن جُهَينة. هالعلاقة عم بتضرّ الشغل معي ومع ديب. حلّ عن مَرت هالزلمي.

ـ مَرت الزّلمي! هه. ليش معروف مين مرت مين أو مين رجّال مين؟ أجاب بنبرة ساخرة.

ـ الظاهر الغرام طيّرلك عقلاتك عالآخر. أنت عم تجني عا حالك يا صبي. أنا عضمي أزرق.. بمحيك عن وجّ الدني.

ـ لماذا هذه الهجمة.. هل أنا متمرّد عاص؟ أنسيت إنجازاتي وإخلاصي. أنا لا أريد ترك الشغل. لي علاقتي الخاصّة البعيدة عن أجواء الشغل. هذه همشريّتي يا أخي.

ـ لا أمانع في أن يكون لك همشريّات. ولكن بعيدًا عن العاملات معنا. جُهَينة موظّفة هامّة عندنا. وأنت كذلك. ماذا دهاك؟ غرامكما يؤذي العمل.

وهكذا تستمرّ المشاحنة الهاتفيّة الصاخبة بين جيلبير وروميو من جهة، ومشاحنة أخرى مشابهة بين ديب وجُهَينة من جهة أخرى. لقد تعمّقت العلاقة بين روميو وجُهَينة أكثر من مجرّد جنس، إنّه أشبه بفُلك خلاص جسدي وروحي من القذارات التي يجرفها طوفان جيلبير خارج الفلك. كان الزمن الذي يقضيانه معًا واحة في صحراء قاحلة تفيض بماءٍ عذب. وأصبح كلّ من جيلبير وديب يخاف على سَير العمليّات والأسرار، وما أكثر الأسرار وأخطرها! بيد أنّ جُهَينة وروميو كانا يدبّران خطّة للهروب. هما يدركان جيّدًا أنّ بقاءَهما ليس آمنًا البتّة، وفاتهما أنّ أشباحَ جيلبير تترصّدهما أنّى ذهبا وتعرف كلّ ما يدبّران. وقبل أن يتعشّيا جيلبير كان هو قد تغدّاهما. وذات مساء.. في ليلة «منحوسة» كانت.. يحضُرُ عساكر الدولة مع المخابرات ومعهم مذكّرة توقيف لروميو.. وكانت التهمة التعاطي والإتجار بالمخدّرات. جيلبير رجل داهية لا يكشف كلّ أوراقه، ولا أحد يعرف خبيئاته الخبيثة. غالبًا ما كان يوقع شريكه في كمين وهو لا يدري، ثم يأتي وينقذه من وقعته، إمّا لتأديبه أو لكي يدرك الشريك أن لا غنى، بل لا وجودَ له بعيدًا عن جيلبير. دخل روميو السجن ويعرف جيّدًا في قلبه أنّ جيلبير هو الفاعل، وكذلك جُهَينة تعرف. وفي هذه المرّة تأكّد روميو من نوايا جيلبير في شطبهِ وربّما جُهَينة أيضًا. وعندما جاءَت جُهَينة لزيارة روميو في مكان حجزه قال لها:

ـ هذه عَملِة جيلبير بلا شكّ. لقد انتهيت. وأجابت جُهَينة:

ـ لا. لن نستسلم. سنوكّل محاميًا بارعًا. ويشيح روميو بوجهه

ساخرًا في يأس:

ـ هذا جيلبير يا جُهَينة. أنا أعرفه. أكبر محاميّي وقضاة البلد يريدون رضاءَه. صمتت جُهَينة قليلاً وهي تخفض نظرها ثم سألت:

ـ هل تعرف ما هي نقطة ضعف الأقوياء؟

ـ ما هي؟

ـ كثرة الأعداء.

ـ وماذا يعني هذا؟ سأل روميو.

ـ إذا تعاون واتّحَد أعداء جيلبير.. يربحون.

ـ أخشى أن يكون يدبّر شيئًا لك أنتِ أيضًا. أنا خائف عليك يا جُهَينة.

ـ لا أعتقد هذا. ديب لا زال بحاجة ماسّة إليّ. ولن يسمح لجيلبير بفعل أيّ شيء بي.

ـ لن يكتفي بزجّي في السجن، سيُنهي احتمال لقائنا ثانية. وإذا أراد جيلبير أمرًا لا ديب ولا غير ديب يقف في وجهه. كوني حذرة يا جُهَينة ولا تغامري.

وكلمات روميو هذه كانت توصيفًا دقيقًا لحقيقة الأمر.. بل تشخيصًا لحقيقة ديناميّة الفكر عند جيلبير، الذي لا ينفكّ على مدار الساعة يُخيّط أشراكه للإيقاع بالمشاغبين العاصين أوامره. ويجد متعة فائقة في اللعب على تناقضاتهم وغيرتهم وخوفهم ومصالحهم، فهذه هي اللِبنات الضعيفة الذي يشيد منها جداره القويّ. وعصافير توقّعات جُهَينة وروميو لا تستطيع أن تحلّق عاليًا على مستوى نسور أفكار جيلبير الشيطانيّة. كانت جُهَينَة تحاول طلب المساعدة من ريهام،

وتنصّلت هذه الأخيرة من الدخول في هذه اللعبة، آنذاك، تحاشيًا للتصادم مع جيلبير، وثار هذا الأخير غاضبًا على ريهام ذات يوم، وقال لها:

ـ لا شأن لنا في قضيّة هذين العاشقين المتمرّدين.

ـ ألن تمدّ يد المساعدة لإنقاذ روميو من محنته؟ وهو الحاجب المطيع الذي أنجز الكثير.

ـ كان مساعدًا قويًا فيما مضى.. قبل أن يقع تلك الوقعة المنحوسة. هذا الرجل فقد اتّزانه وتركيزه على الشغل، أخطاؤه تزداد، وسيورّطنا في المشاكل. قال جيلبير لريهام بغضب. ثم خرج الحكمُ بعد ذلك بسَجن روميو خمس سنوات. وكان وقع الحكم على جُهَينة ثقيلاً. وراحت المسكينة تزور روميو بشكل منتظم في السجن، وتأخذ له ما يحتاجه في غربته البائسة تلك. ومرّت الأعوام الثقيلة كلّ يوم بسنة. لم تستطع جُهَينة شيئًا إزاء سَجن روميو. ولا أحد يستطيع، فالجميع فهم المسألة، ولا أحد تدخّل. ثم انقضت سنوات أربع، وأرادت جُهَينة أن تطلب له تخفيض حُكم. وشدّ ما كانت المصيبة كبيرة! عندما وصلها خبر وفاته في السجن بالجرعة الزائدة. فاسودّت الدنيا في وجهها، وأحسّت كأنّ القدر طفل عابث. وبدأ الجنينُ المشوّه عندئذٍ يتكوّن في ذاتها، الانتقام! ولكنّ الانتقام ممّن؟ من الأشباح؟! روميو مات بيده. لقد انتحر. ولكن من الذي أدخله السجن؟ هل تثأر من جيلبير لأنّه لم يُخرج روميو من السجن؟ من هو عدوّها لتغرس في قلبه مُدى غضبها وانتقامها؟ العدوّ لا وجود له! لا جريمة ولا أداة ولا مجرم ولا ضحيّة ولا دليل! هناك رجل بائس انتحر. وغرقت جُهَينة في بحر من الكآبة والغضب والحيرة. لا تدري ماذا تعمل. وذات يوم رنّ الهاتف عند جُهَينة.

ـ أنا أيّوب يا جُهَينة هل أستطيع أن آتي لزيارتك؟ عندي كلام أريد أن أقوله لك.

ـ شغلت لي بالي. ما الأمر؟

ـ الموضوع يتعلّق بروميو.

ـ تعال الآن بسرعة. لا أستطيع الانتظار ليوم آخر. قالت جُهَينة بلجاجة.

ـ لا. نلتقي في مكان بعيد في الشمال.

ـ في مطعم أو مقهى مثلاً؟

ـ في مكان لطيف أعرفه أنا. سآتي وأصطحبك من المشغل بعد ساعة.

ومرّ الوقت. ووقفت جُهَينَة قرب نافذة مشغلها حيث تنجز رسوماتها، تشعل السيكارة تلو الأخرى، وهي تسائل نفسَها عن سرّ أيّوب وزيارته المفاجئة هذه. هل يحمل خبرًا في قضيّة روميو؟ هل عنده ما يزيح عن قلبها الحزن الرهيب؟ هل يريد أن يقول لها إنّ روميو قُتِل؟! ألن يريحَها روميو حتى بعد موته؟ الجميع يعرف أيّوب مطيعًا صامتًا، ولكنّ صمته عباءَة أسرار. منَ التأمّل في عينيه الشاحبتين، يدركُ الناظر أنّ صاحبهما خَبِر الحياة في أبعادها الأربعة.. ومراراتها الأربعة حتى العظم. كانت ترجع إلى لوحتها، على الشوفال، تحاول أن تقتل الدقائق والثواني بضربة هنا وضربة هناك، أو تلجم جمحات أعصابها الهائجة بالسكائر، وساعة الانتظار هذه كانت كدهر. ثم سمعَت زمّور سيّارة أيّوب أخيرًا. وخرجت من مشغلها، وهي لا زالت ترتدي حلّتها السوداء ونظّارتيها السوداوين.

ـ أنا على أحرّ من الجمر لأعرف ما الموضوع. قالت جُهَينة لأيّوب بعد أن دخلت السيّارة وجلست إلى جانبه، ثم نظرت في عينيه تحاول ترصُّد الأفكار قبل أن يقولها. وأجاب هو:

ـ ألن تنتظري حتى نصل ونقعد قعدي رايقة عا فنجان قهوة ونروّق راسنا. لأنّو اللي بدّي خبّرك إيّاه قصّة كبيري. وراسي بالدقّ. لهذا السبب أريد منكِ ضمانة أكيدة أن أبقى أنا في الظلّ.

ـ أؤكّد لك أنّ هذا الكلام يبقى سرًّا بيننا. قالت هذا بحماسة وهي متلهّفة لمعرفة القضيّة. ولكن لماذا تريد أن تخبرني الآن بهذا الأمر؟ هل ما تقوله حقيقيّ؟ هل أثق بك؟

ـ هذا يتوقّف على الحقيقة نفسها التي ستعرفينها بعد قليل. أجاب بهدوء.

ـ حاج تحرقصني. بقّ هالبحصة وخلّصني. قالت بلجاجة.

ـ لن أتكلّم قبل أن نصل، ونروّق راسنا. ثم توقّف عن الكلام. وهي أيضًا. وسارت السيّارة سيرها الطبيعيّ زهاءَ ربع ساعة نحو الشمال الشرقيّ. فقالت له:

ـ شهلّك شي شوي. أنا مضطربة.

ـ إنّي أقدّر ظروفك يا جُهَينة. وصمت قليلاً ثم أضاف بهدوء:

ـ مسكين روميو!

ـ نعم مسكين روميو. يا ضيَعان الشباب. إنطفأ كالشمعة ببساطة.

ـ ألا زلتِ تحبّينه؟

ـ لماذا تسأل؟

ـ كانت العلاقة حميمة بينكما. أليس كذلك؟

ـ بلا. روميو إنسان طيّب ومخلص.

ـ عادةً أزلام جيلبير لا يخلصون لغير جيلبير! قال أيّوب.

ثم ولجت السيّارة في طريق فرعيّ صعودًا، وانعطفت نحو باركينغ إسفلتيّ فسيح. السيّارات قليلة. كانت واجهة المقهى مشرفة على سفح صغير تغمره الأشجار القزمة، وكان الهواء يصفرُ في أوراقها مع صفير عواطف جُهَينة المتّقدة. ركن أيّوب السيّارة وتوجّها إلى ردهة المقهى شبه الخالية، واختارا مكانًا هادئًا، وطلبا القهوة.

ـ أتحرّق شوقًا لسماع قصّتِك. قالت جُهَينة.

ـ أشعل أيّوب سيكارة ونفث الدخان في الفضاء. وقال بهدوء بلا مقدّمات:

ـ زوجُكِ.. ديب عساكر.. هو قاتل روميو. وانتظر ردّة فعلها.

ـ ماذا تقول؟! وكانت نبرة صوتِها عالية.

ـ أخفضي صوتك وابقي هادئة.

ـ ولكنّ روميو مات في السجن بالجرعة الزائدة! وهزّ أيّوب رأسَه هزّة شفقة، على عجز الإنسان الطيّب الذي لا يستطيع صعود جدار الشرّير، ثم أجاب:

ـ أنت أيضًا مسكينة يا جُهَينة. أتصدّقين قصّة روميو من أوّلها إلى آخرها كما هي؟

ـ ماذا تعني؟

ـ روميو ضحيّة مكيدة. دخل السجن بمكيدة، وقتل في السجن بمكيدة أيضًا.

ـ ما هو دليلك على صدق ما تقول؟ أنا لا أصدّق هذا الكلام.

ـ إليكِ الدليل.

ومدّ أيّوب يده إلى داخل سترته وأخرج قرصًا مدمّجًا، ووضعه على الطاولة أمامها. وقال بعد أن رشف رشفة من فنجانه:

ـ هذا الحديث الدائر بين ديب وروميو وفي حضور جيلبير. عندما تعودين إلى البيت اسمعيه على الحاسوب. هذا دليلي الوحيد.

ـ ومن قال إنّ هذا التسجيل صحيح وغير مفبرك؟ سألت مشكّكة؟

ـ الحقائق الموجودة فيه.. والأسماء! وستفهمين أيضًا طبيعة العلاقة بين الثلاثة.

ـ لن أذعن لهذا الكلام قبل أن أتثبّت. لا بدّ من محام شاطر. القضيّة تحتاج إلى متابعة. صمتت ثواني.. ثم سألت سؤالَ من يعرف الجواب: ولكن لماذا قتله ديب؟ فأجابها أيّوب:

ـ السبب أنتِ طبعًا. أنا أعرف الضغط الذي مارسه عليك ديب للابتعاد عن روميو. هل تنكرين أنّه هدّدكِ بقتله؟

ـ يبدو أنّي جالسة أمام نبيّ عرّاف يكشف لي الطالع! كيف تعرف كلّ هذه الأمور؟ أنت تخيفني.

وهزّ أيّوب رأسه وقال:

ـ محسوبك شيطان ابن شيطان يا جُهَينة. أنا تلميذ جيلبير عزوري. أنا شبح من أشباحه الكثيرة، وعين من عيونه الكثيرة. قال هذا وهو يقرّب وجهه ويُجحظ عينيه في وجهها، والمكر يشعّ فيهما.

ـ كفى أنت تخيفني بهذه الطريقة. أهذا كلّ ما تريد أن تقوله لي؟

ـ لا تنسي.. هذه نسخة من التسجيل الأصلي. ولهذا التسجيل ثمن.

ـ أجئت تبيعني هذا التسجيل؟ وصمت أيّوب وهو يمجّ الدخان ويغمس سيكارته في المنفضة. وأضافت:

ـ هل تريد مالاً لقاءَ هذا؟ فأجاب:

ـ أريد خمسين آلف دولار فقط. خذي وقتك بالكامل وتثبّتي من صحّته.

ـ هذه صفقة إذًا؟!

ـ ماذا ستفعلين؟ هل ستتابعين القضيّة لدى محامٍ شاطر؟ وأنا أنصحك بهذا. ولكن في النهاية سوف تخسرين القضيّة. جيلبير وديب يربحان دائمًا. ثم نفض أيّوب سيكارته في المنفضة.. وتابع الكلام:

ـ هذا كلّ ما لديّ. وبرأيي أنّ القانون لن يحصّل لك حقّكِ. أنتِ خذي حقّكِ بنفسِك. وتفضّلي سيّدتي.. رسّامتنا الجميلة.. لأوصلك إلى كوخ عبقريّة مواهبك.

ـ كلّ هيدا المشوار لأجل خمس دقائق؟

ـ المشوار في السيّارة لإراحة أعصابك، وفنجان القهوة يريحكِ من المشوار. وهذا كلّ شيء. فحدَجَته بنظرة لغّمتها بالمعاني، وقالت بهدوءٍ وهي ترشف من قهوتها:

ـ قلبي ينبئني أنّ في موت روميو سرًّا أكبر ممّا تقول.

وشربا القهوة بصمت. ومرّ الوقت بلا كلام. ثم أعادها أيّوب إلى مشغلِها دون أن ينبسا ببنت شفة في الطريق. نزلت من السيّارة، ودخلت المشغل، وجلست أمام اللوحة التي ترسمها، أشعلت سيكارة وراحت ترمقها بعينيها، بيد أنّ عيون خواطرها كانت تتأمّل في كلمات أيّوب الأخيرة «خذي حقّك بنفسِك». أيّوب معه حقّ! وهل يستطيع القانون اصطياد رجل هوايته محاربة القانون، كما يحارب المغامرون

المجانين قوانينَ الطبيعة. تحريض القانون على قضيّة روميو قد يودي بها.. وغيرها أيضًا، فعالم جيلبير عزوري نصٌّ رقميّ متفاعل يُفضي فيه الرابط إلى رابطٍ آخر. والقانون أمام جيلبير وديب يشبه شرطيًّا يحاول بمسدّسه إيقاف معركة بالقذائف في حيّ شعبيّ مكتظّ. دائمًا هؤلاء الرجال يكفرون بالآيات القانونيّة. قوّة القانون بالعسكر، وقوّة العسكر بالقانون، والحقيقة المخيفة أنّ هناك قوّة ثالثة قادرة على إخضاعهما معًا.. هي قوّة المال! راحت تفكّر جُهَينة.. وتفكّر.. وارتفعت حدّة غضبها.. وثار ثائرها على ديب عساكر الذي خطفها بدهاء من ردهات السلام الروحيّ الدافئ ورحاب التعبّد والعزلة، إلى شعوذات طموحاته. لقد جعل منها عاهرة من العاهرات المتألّقات رقمًا وسيولة. لقد بيّضها كعملةٍ في السوق السوداء، وسوّد قلبها في الصالونات المخمليّة البيضاء. وراحت حيَلُ خواطرها تتملّقها إلى فكرةٍ واحدة ثابتة ملحّة.. وثعبانُ المعصية يقنعها بالثمرة المحرّمة، حتى قبل أن تتحقّق من صحّة التسجيل! قد يكون التسجيل نصفَ الحديث.. والمُمَنتج منه يقلبُ المضمونَ ربّما، رأسًا لعقب! بيد أنّ حبّها العميق لروميو، والكآبة الراسية كقارب كسول في مستنقع نتن، والسحب الرماديّة التي تلفّ فضاءَ روحها منذ سنوات، والنار في ذاتها باتت مجمرة لاهبة بالحقد المتنامي، كلّ هذه التراكمات شكّلت بيان ثورة عظمى وإعلانًا حازمًا.. وجوهر هذا البيان رأس ديب عساكر ثأرًا لروميو رفيق روحها الوحيد. مرّت أيّام. سمعت التسجيل.. سمعته مرّات ومرّات. لم تشأ أن تتابع القضيّة لدى محامٍ. ما قيمة ربح القضيّة الآن؟ وهل تستطيع ربحها أصلاً؟ ما قيمة حياتها هي الآن؟ لا شيء. لعبة قذرة لإرضاء رجولة قذرة ليس إلّا. وأمّا الفنّ فهو جدار مكلّس لتبرّجات حياة قلقة خائفة تعيشها في سراديب اللذّة الموجوعة.

جافاها النوم في ليلة من الليالي. ويبدأ مارد الانتقام يطالب بحرِّيّته في قمقم سَجنه المخيف. شهوة الانتقام كابوس ثقيل لا يزيحه عن صدر المرء إلّا التشفّي. إنّه روح شرّير يتقمّص الإنسان قلبًا وقالبًا، هو جبروت لا يُقهر. بل هو بأكثر تحديد، غثيان العواطف الحاقدة فلا تهدأ بسوى القيءِ والاستفراغ! التخلّص من ديب ليس بالأمر السهل. وديب ليس كأيّ رجل. يحتاج الأمر لتفكير وخطّة وتنفيذٍ دقيق. بيد أنّ جُهَينة لا خبرة لها في ساحات الجريمة. لم يلقّنها أحد فنّ القتل. المرأة في حروب جيلبير وديب كمين مُغوٍ وشرَك قاتل، قد تكون هي أداة قتل أبيض، ولكنّها ليست قاتلة. هل تنفّذ جُهَينة المَهمّة؟ أم تعهد فيها إلى آخرَ، أكانَ قاتلاً محترفًا أو إرهابيًّا أو عاهرة أخرى من عاهراته الحاقدات؟ لا.. لن تطلب من أحد أن يفعل. سيكون شرفًا لها أن تزهق روحه بيديها هذا الذي سلبها روميو، وسلبها أوّلاً شرفها وقداستها. لقد حضَرَتها ملائكة الشرّ وأوحت لها أفكارًا عديدة: الطلق الناريّ من أحد مسدّساته، الاستعانة بمسدّس أحد الأصدقاء، السمّ، الغاز، النار والحرق، الطعن بالسكّين، الإبرة القاتلة، الضرب على الرأس بشيء صلب ثقيل... إلخ. وراحت تفتّش في كتالوغ مخيّلتها عن أدوات وطرق الموت. كأنّ تحالفًا قويًّا قام فجأة بين جنّ الخبث وجنّ الثأر في وجدانها المضطرب، وباتت عدوًّا ضعيفًا أمام هذا الحِلف. خصوصًا عندما يفقد الإنسان قيمة وجوده، وقيمة الوجود من حوله. والغانيات حتمًا فقدن جوهر التغطية الذهبيّة لعملة أجسادهنّ، والخوف أصبح طائرًا نازحًا عن رياض كياناتهنّ اليابسة الميّتة. طوال الليل كانت تشعل السيكارة تلو السيكارة، سمعت القليل من الموسيقى، شاهدت التلفاز، رسمت عدّة رصاصيّات موتورة، وبركان أعصابها غليان مضطرم يأبى الانفجار. لم يطلع عليها الصبح إلّا وقد

عزمت أن تفعلها وبأسرع وقت ممكن. كأنّها قرّرت الانتحار وتخشى أن تعود عن قرارها. فاتّصلت به في صباح اليوم التالي وقالت له: «سآتي لزيارتك هذا المساء. هذه المرّة سأزورك أنا بدل أن تأتي أنت». فقال لها: «أجل تعالي اليوم. لا أحد هنا في البيت سواي». فكأنّ في كلماته هذه ترتيبًا من عالم الغيب.. من أرواح الظلمة تسهّل لها مَهمّتها. كلّ شيء ينتظم ويتناسق أمامها لتنفّذ ثأرها الهائج. وهكذا كان. خرجت من شقّتها الفخمة في المحلّة المكتظّة وحادثت الناطور بكلمات قليلة. ثم قادت سيّارتها نحو ڤيلّا ديب عساكر في حيّ الأشجار الشوكيّة والنخيل الكثير. شعرت باضطراب شديد وهي تقود. أرادت أن تدخل أحد المقاهي وتأخذ مشروبًا غازيًّا وتدخّن بعض السكائر، وتناولت أيضًا حبّتين من علبة مهدّئات كانت مدفونة في جزدانها. ثم عادت إلى سيّارتها وركنتها، ليس في المرأب، بل قرب سور الحديقة تحت شجرة جرداء، وهذه علامة واضحة تدينها. واقتربت من المدخل وقرعت الجرس. وسمعت جلبة وراءَ الباب وفتح الباب، وبرزت قامة ديب عساكر في أوفرهول ذي لون فاتح فوق قميص معرّق تعريقات ذات تلوينات طبيعيّة، والفولار يلفّ عنقه وتتلاقى طيّاته خلف الزنّار كما تتلاقى الروافد العديدة في الدلتا. ديب ذو وسامة مهيبة، أصلع على حلاوة في عينين واسعتين سوداوين. شفتاه عريضتان مقلوبتان، وصوته رجوليّ عميق. ولأنّه يمارس الـ «بادي بلدينغ» بانتظام فعضلات جسدِهِ «مُبكّلة» بجمال مغرٍ.

ـ أهلاً جُهينة! تفضّلي أيّتها الأميرة، أنت تزدادين جاذبيّة. وانحنى انحناءَة لا تخلو من التصنّع.

ـ شكرًا. قالت وخطت خطواتِها داخل العتبة، واتّجهت نحو البهو مباشرة. هي تعرف المكان. واقتربت من المكتبة الكبيرة ومدّت

أناملها إلى جزدانِها وأمسكت المسدّس، واستدارت صوب ديب وكان واقفًا في وجهها على بُعد خطوتين. فقال وهو يتصنّع الابتسام، وعيناه تظهران الاستخفاف بها:

ـ طول عمرك مزحاتك غريبة. شيلي عاللعبة من إيدك بتجرحك.

ـ أنا لا أمزح الآن. أنا كتير جديّي. لديّ نذر وجئت أوفيه. تكلّمت وصوتها يتهدّج ويدها ترتجف. وكان هذا واضحًا لديب.

ـ ومن هو القدّيس الذي جئت حاملة بيدِك هذه الشمعة الطاهرة لتوفي إليه نذرك؟

ـ روميو الذي قتلته أنت في السجن.

ـ آها! مجيتك كرمال روميو إذًا. واستدار ليمينه، وغافلها، وانقضّ على يدها وانتزع المسدّس من يدها، فهوت على الكنبة وارتمى فوقها وقد أصبح المسدّس بيده. فأمسكت مزهريّة الغرانيت من على المنضدة بيسارها وخبطت بها رأسه، وشجّت جمجمته، وصرخ ثم هوى على الأريكة والدماء تغطّي وجهه. وانتابها الذعرُ الشديد، فوثبت هاربة، وأنساها الخوف المسدّس في يده. و«قلّعَت» بسيّارتها صادمة برميل القمامة البلاستيكيّ وهوى أرضًا، وقادت بسرعة جنونيّة لا تقدر أن ترى شيئًا أمامها.

وانفجر الخبر في الأيّام التالية في الإعلام: «مقتل المهندس ديب عساكر في ڤيلّته الساحليّة الفخمة، وأصابع الاتّهام تشير إلى زوجته الرسّامة جُهَينة غانم». وما عتم أن أوقِفت جُهَينة، وقيدت إلى التحقيقات الطويلة المرهقة. واعترفت بجريمتها، وأقرّت بأنّها قتلته بمزهريّة الغرانيت. وشدّ ما كانت مفاجأتها كبيرة ومُحيّرة في آنٍ معًا! عندما علمت أنّ الطبيب الشرعي أكّد أنّ الوفاة حدثت برصاصة فوق

أذنه اليمنى من المسدّس الذي كان في يده. نصحوها بتوكيل محام وأبَت بعناد. ولكنّ قاضي التحقيق كان مستعجلاً الخلاص من هذا الملفّ! وكانت المحاكمة شبه سرِّيّة، وكان الحكم بالسجن اثني عشر عامًا.

* * *

أيّ مفهوم ممسوخ هو «السياسة» يا فخامة الرئيس!

أيّ كلمة مرعبة! إن هي إلّا مفردة في قاموس اللغة الإرهابيّة التي باتت موضة هذا الزمن الغريب. الإرهابيّ يا سيّدي الرئيس يؤذي شخصًا أو أكثر.. وعدد ضحاياه محدود. بيد أنّ السياسيّ بمقدوره أن يقتل جيلاً بكامله! وأن يدمّر وطنًا بكلّ مقوّماته. ها نحن نرى المشاهد المسنّنة على شاشات التلفزة والحواسيب، فتخمش عيوننا وأرواحنا الحسّاسة. بيد أنّ السياسة التي تقيّد عقل الإنسان في وطن ما، ويبقى حيث هو لعقود لا يخطو إلى الرقيّ خطوة.. هذه جريمة حرب جماعيّة وإبادة. قتل العقول بحقنها بجرعات الخوف المزمن، والخوف المزمن عدوّ الإبداع، وهكذا الحقد المزمن أيضًا هو عدوّ الارتقاء. العبوديّة المزمنة قنّاصة التقدّم، العصبيّةٌ فخّ الانطلاق، لأنّ الفكر الوثّاب الخلّاق هو فكر التسامح والحوار وقبول الآخر، الفكرُ المُطعّم بنقيضه، والبحثُ فيه عن النوايا المشرقة الطيّبة. ماذا أنتم فاعلون أيّها السّاسة؟ وظيفة رائعة! السياسيّ زعيم لامع مشهور.. وبالتأكيد يتفوّق على الفنّانين والمغنّين شهرة وجماهيريّة. ما يدمي قلبي يا فخامة الرئيس.. أن أرى أحد القادة السياسيّين على الشاشة الصغيرة ضيفًا في برنامج فكاهيّ إلى جانب المغنِّي والكوميديّ والممثّل والراقص. في وجهٍ من الوجوه يشدّ هو اهتمامنا أكثر من هؤلاء! ماذا أنتم فاعلون؟ إنّها لوظيفة راقية فخمة! هذا الراتب الخياليّ، والحضور الإعلاميّ

الساحر، وسطوة القرار والنفوذ، وروعة البازارات، وقوّة الخطابات، ولذّة اللعب بغرائز الجماهير، وفنّ التكذيب المبدَع. . والملفّات تتراكم مآسيَ فوق مآسٍ على طاولة الانهيار الاقتصاديّ والاجتماعيّ. ماذا أنتم فاعلون أيّها القادة؟! يفتقد السياسيّ في شرقنا البائس إلى ميزة واحدة جوهريّة ضروريّة لكلّ قائد وهي الأخلاق. تحضرني الآن مسرحيّة جان بول سارتر (الدوّامة) حيث يتقدّم في الفصل الأخير من المسرحيّة، رئيس البلاد الذي وصل إلى الحكم بثورة ناجحة، ولم يستطع تنفيذ مشروعه، فأعلن أنّ هناك سياسة واحدة لا غير. وما هي هذه السياسة الواحدة؟ إنّها لعبة الأمم! لقد وعد الناس وعودًا عظيمة أثناء الثورة، وعندما وصل إلى الحكم لم يستطع أن ينفّذ شيئًا. لقد علقت الوعود والرؤى والشعارات والأحلام في شبكة البازارات والأجندات العالميّة. إذا كان القائد عاجزًا عن تنفيذ المبدأ والقانون فليتنحَّ، وإلّا فيبقى سجينَ «الوحي المنزل». ولكنّ كثيرين ههنا تستهويهم هذه اللعبة الأمميّة. . وهم يقايضون بالوطن وهموم الناس في بيع هنا وشراءٍ هناك ودَجَلٍ هنالك. والحاجة باتت الآن مُلحّة إلى قائد متخلّق بحسّ المسؤوليّة، فذّ، يسعى إلى خير الإنسانيّة، يرفض الانزلاق في تلك الشبكة اللعينة التي هي أخطبوط يريد ابتلاع الأمم والأوطان. رجل قائد ذو أخلاق رفيعة يقول لا للبازارات القذرة، لا لأبالسة المال، لا للبيع الرخيص للمبادئ، لا للعنكبوتيّة العالميّة الشرهة، لا لغلبة منطق القوّة على العدالة والمحبّة. وهذه ليست مثاليّة مفرطة يا فخامة الرئيس. . إن هي إلّا صرخة مُرّة في وجه جراد البؤس الزاحف إلى ديارنا كالوباءِ المُعدي، يحتاج إلى ترياق ينقذنا من الهلاك الحتميّ.

* * *

الجزء الثالث

الصوت الجَريح

٨

إنّه مجتمعٌ لا يهتمّ بجائعٍ إلّا إذا كان ناخبًا،

ولا يكترثُ لِعارٍ إلّا إذا كان امرَأة.

جلال عامر

كان يُكثر من مجيئاته إلى البيت الحجريّ الأبيض ذي السقف القرميديّ الشاحب، في حيّ الكنيسة عند كتف المنحدر. بعض القرميدات اهترأ وبعضها الآخر انكسر، فشبكتِ الطيورُ أعشاشها في المكان المهترئ، وسبحت فوقها غصون السنديانة الوارفة لحماية هذه الأجران القشّيّة الضعيفة. وعلى الجدار الشماليّ الشرقيّ للبيت زحلت بعض الطفيليّات اللطيفة راسمة خارطة خضراءَ معقّدة، كأنّها غابات الأمازون تُرى منَ الطائرة. التيرّاس مشرف على الطريق الرئيسيّ للبلدة، حيث يدور دورانًا حلزونيًّا ويعبر أمام بيت آل وهبي المعروفين في البلدة بـ «الأوادم»، نحو القرى الجبليّة العالية. كان يومًا مشؤومًا في صيف ٢٠٠٣! واستطاع الرجل فيّاض وهبي وهو جالس عند زاوية

التيرّاس في ذلك العصر، يشرب القهوة ويأكل التين، أن يرى المرسيدس الجردونيّة مقبلةً نحوه:

ـ هذه السيّارة تشبه سيّارة جيلبير! ساءَل نفسَه. من سنتين لم نرَ له وجهًا.

وشيئًا فشيئًا يتثبّت من أنّ السيّارة آتية إليه. لقد اختفت وراءَ الأيكةِ اليابسة عند المقابر، ثم انبثقت من بين الأبنية الرماديّة في الشارع الرئيسيّ، واجتازت المنعطف الكبير، ليهدرَ محرّكها هدرته الأخيرة وهي تستقرّ قرب درج التيرّاس حيث هو جالس. ويخرج منها جيلبير بحلّةٍ أنيقة فاتحة اللون:

ـ عوافي معلّم فيّاض. نادى جيلبير وهو يبتعد عن سيّارته ويصعد الدرج. ويجيب فيّاض بوجهٍ مشرق:

ـ الله يعافيك يا جيلبير. بعدا معك هالمرسيدس؟ أين أنتَ يا رجل؟ ويصل جيلبير إليه ويتصافح الرجلان ويتعانقا. ويدعو فيّاض جيلبير إلى قهوته:

ـ سآتي إليك بفنجان من الداخل، لا أحد هنا سواي. وقام إلى الداخل وأتى بفنجان القهوة، وجلسا يشربان ويتسامران.

ـ وينك يا جيلبير؟ لقد اختفيت كأنّك سِحر! سأل فيّاض مظهرًا أشواقًا حارّة.

ـ الشغل آخدلي كلّ وقتي يا معلّم فيّاض.

ـ الله يقوّيك يا جيلبير. لن أنسى فضلك ما حييت أيّام المرحومة أمّ أيّوب. هذا دَينٌ عليّ لن أستطيع تسديده.

قال فيّاض.. وهو يتحدّث عن التكاليف الطبّيّة التي دفعها جيلبير

أثناء مرض أمّ أيّوب زوجته بداءِ السرطانِ. وكان فيّاض، يومها، في ضائقة مادِّيّة كبيرة. وأجاب جيلبير بهدوء، وهو يرشف من قهوته ويشعل سيكارة:

ـ بلى. هناك فرصة لتسديد هذا الدين. فجحظت عينا فيّاض، وأظهر بحركة رأسه استنكارًا، وقال:

ـ لم أفهم يا جيلبير!

وصمت جيلبير لثوانٍ.. كأنّه ينتظر ربّة وحيه تلهمه الكلام، والأسلوبَ الأكثر إقناعًا لهذا الرجل، الذي لا يمكن أن يتخلّى بسهولة عن قطعة أرضه المتاخمة لأرض جيلبير، وهي فردوسه على الأرض! تابع جيلبير الكلام، معلنًا قصدَ الزيارة:

ـ أعطني «عودتك» اللي حَدّ أرضي، أريد أن أبني ڤيلّا في البلدة. سأدفع لك المبلغ الذي تطلبه. أنا بحاجة ماسّة لهذه الأرض. وكمد وجه فيّاض، وهو يسمع هذه الكلمات، كأنّ خناجر غاصت في أحشائه. فسأل متمتمًا:

ـ هل أنت جادّ يا جيلبير؟ وأجاب الأخير وهو يمجّ الدخان من فمه:

ـ في منتهى الجدِّيّة. أطلب الرقم الذي تريد، وسأدفع الرعبون حالاً. تستطيع أن تشتري أرضًا أخرى أكبر منها.

هذا وكلا الرجلين مدركٌ أنّ هكذا أرض لا تباع بسهولة. أوّلاً بسبب موقعها الجميل المشرف على البلدة وجلولها، وثانيًا أنّها بتنوّع ووفرة أشجارها ومزروعاتها، وقد أمضى فيّاض نصف عمره في تنميتها، ويعيش من محصولها، تشكّل كنزَه الذي لا يثمّن بثمن.

ـ ولكن يا جيلبير أنت تعرف ما هذه الأرض بالنسبة لي. وخرجت الكلمات من فم فيّاض كأنّها أنّات.

ـ قلت لك أطلب المبلغ الذي تريد. تستطيع أن تشتري أكبر منها بكثير في أيّ مكان آخر. ألفيلّا التي سوف أبنيها تحتاج لملاعب وحدائق ومراكن سيّارات، والمهندس بدأ في دراسة مشروعه.

ورشف بسرعة رشفته الطويلة والأخيرة من قهوته، ووضع الفنجان في صحنه، وقال بغطرسة، وهو يعرف أنّ فيّاض رقيق القلب ضعيف، ينحني تحت الضغط:

ـ سآتي بعد أسبوعين لأدفع الرعبون بالرقم الذي تحدّده، وسيأتي معي المسّاح لتحديد سياجات الأرض. وغمس سيكارته في المنفضة، وتابع الكلام بخيَلاء:

ـ جيلبير تغيّر كثيرًا منذ أربع سنوات يا معلّم فيّاض. أنا الآن شخص آخر. خذ مبلغًا محترمًا وأعطني الأرض، وإلّا أخذتها بطريقتي الخاصّة، ولن تكون عندئذٍ راضيًا.

ـ أتهدّدني يا جيلبير؟!

ـ أعرض عليك صفقة بالمنيح. الزمن تغيّر. لا تضيّع الفرصة يا فيّاض. وقفز إلى سيّارته، تاركًا الرجل فيّاض وهبي أسيرَ الكآبة الخرساء والذهول، ولا سلاح في يده ينال به حرِّيَّته.

الجميع يعرف أنّ وفاة أبو أيّوب بذبحةٍ قلبيّة، سبّبها جيلبير ومشروعه الذي جاءَ به في ذلك اليوم المنحوس. وفي جلسة أخرى بين الرجلين كان السُّباب، ومن العيار الثقيل، الجليسَ الثالث بينهما. وحدثت الوفاة في الليلة ذاتها. تغيّرت نظرة هذا البيت بالكامل نحو جيلبير، فأصبح هذا الإنسان رمزًا للطمع والشرّ عند أفراد العائلة

وذويها. بيد أنّ جيلبير الذكيّ يعرف جيّدًا حاجات هذا البيت، فأراد أن يلبّيَها. ويعرف أيضًا، وبحذاقة خبير، أن يمارس لعبة (العصا والجزرة) في كلّ مناوراته وتمويهاته. لقد استطاع أخذ الأرض، ودفع رقمًا كبيرًا لأيّوب وأخته ذكريات البارعة الجمال وصاحبة الصوت الجميل. وها هي أقساط الجامعة حيث تدرس ذكريات، ويدرس أيّوب إدارة الأعمال، باهظة جدًّا. فعاد جيلبير ودخل إلى البيت من شبّاك الأقساط بعد أن خرج من باب مرض المرحومة. وراح يقدّم لهما أجزاء كبيرة من هذه الأقساط. فسكت الأخَوَان وأذعنا. قال جيلبير ذات يوم لأيّوب، الذي كان يعمل نهارًا ويدرس ليلاً:

ـ أريدك أن تعمل معي عند نهاية دراستك. سأجعلك أميرًا. ويسأل أيّوب:

ـ وماذا تريدني أن أعمل؟

ـ لا تخف، أنا أعلّمك أسرار المهنة. سيكون التراب بين راحتيك ذهبًا. أنْهِ دراستَك أوّلاً.

ـ في أيّ مجال بالضبط؟ ويلحّ أيّوب في السؤال.

ـ لديّ وظائف في مجالات عديدة. أنا بحاجة أيضًا لشهادتِك في إدارة الأعمال.

ولكنّ المراهقة المشبوبة في داخل أيّوب، التي دارت الأيّام عليها، وهي الطموحة إلى الثروة، ومستقبل ينسيها الحرمان الذي ذاقته في طفولتها وفي مرحلة مرض الوالدة، وجدت في كلام جيلبير مرساة نجاة، بل الدُّرّة الثمينة التي كانت ضائعة في مرجةِ أحلامها الخائرة. لا يدري المسكين أنّ الديباجات الظاهريّة لن تصيّره أميرًا. وعسلُ الوعود إن هو إلّا علاقم سوف يشربها عند جيلبير، في كأس المغامرة

وقصعة الخوف الممنوع. وسوف يكتشف، لاحقًا، ومتأخّرًا، أنّ العباءَة التي ألبسه إيّاها جيلبير، لا يستطيع خلعها عنه إلّا راجعًا إلى العري والفقر المدقع.

وأمّا ذكريات أخت أيّوب فكانت آية من السحر والجاذبيّة، وكانت أيضًا متقدّمة في تحصيلها العلميّ، بيد أنّها طيّبة القلب صادقة. وبدورها أيضًا، ستدرك لاحقًا، أنّ الحياة تسعى لاقتلاع زهور الوداعة من قلب الإنسان، لتغرس مكانها أشواك القساوة. في المرحلة الدراسيّة المتوسّطة بدأ نجم ذكريات يتألّق بجمالٍ قرويّ مميّز، وبصوتٍ غربيّ الإيقاعات رخيم. اللون الغربيّ يناسب صوتها أكثر من الشرقيّ، ولم تهوَ من الأغاني غير الصعب منها والكلاسيكيّ. كانت تدرس الغيتار مع صديقتها عند رامز أستاذ الموسيقى، وكان رامز يطرب للنوع الغنائيّ نفسه الذي تهواه هي. وبأسلوبها العفويّ البريء كانت غيرَ مفاخرة بمواهبها، ولم تُشعِر صديقاتها البتّة بأنّ للجمال قيمة في حياتها. ولكنّها استشعرت بحسّ المرأة الذي لا يخيب، أنّ صديقتها تهوى رامز، ورامز بدوره يميل إليها هي. فكانت تتعمّد، في كلّ مكان، إظهار لامبالاتها به، لكي تحتفظ بصديقتها، وسلامة مشاعرها. كانت تقول:

ـ الشهوة الجنسيّة لا تصنع حبًّا. الجمال شرارة العلاقة ولكنّه ليس دينامو استمرارها.

وعندما تجيبها صديقاتها بأنّ القيمة اليوم للمرأة المثيرة المثقّفة، وأمّا غير المثيرة فهي نفاية. فتردّ ذكريات بأنّ: «العلم والثقافة هما الأهمّ والجمال عنصر مكمّل، الرجل الذي يريدني لمظهري لا أريده، نظرة الشابّ إليّ تحدّد ما إذا كان يريدني أم يريد جسدي، الجمال بغير ثقافة سيكون حتمًا لعنة للفتاة وليس بركة البتّة، طريقة حياة الفتاة تحدّد

الكيفيّة التي يقترب فيها الشابّ منها، هدف الفتاة في الحياة غربالٌ لنوايا الرجال الذين يحوّمون حولها». هذه وغيرها من المقولات كانت تجعل من ذكريات محبوبة من ثلّة صديقاتها. لقد شكّل التواضع الصادق عندها مغناطيسًا سحريًّا شدّ إليها الصبايا والشباب على حدّ سواء. في الجامعة والأندية والسهرات والرحلات والمخيّمات.. كانت تحمل معها غيتارها الأسود وتغنّي تلك الأغنيات العاطفيّة القديمة.. حتى بات لا طعم ولا لون لأيّ نشاط شبابيّ بغير وجودها. وذات يوم.. في حفل عيد المعلّم.. عندما غنّت أمام المُدراء والأساتذة بإحساس عميق وأداء رهيف، هزّت ألبابهم.. فأطربتهم وشنّفت مسامعهم. قال لها المدير آنذاك: «ستصبحين مغنّية يومًا ما يا ذكريات، وقفتُك جذّابة، وأداؤك ممتاز». وشدّ ما كانت سعادتها كبيرة! عندما اتّصل بها المدير بعد شهر من الزمان ليقول لها:

ـ ستغنّين على التلفزيون يا ذكريات في برنامج (أغاني الشباب). لقد اتّصل بي المخرج وقال إنّه يريد موهبتين من فرعنا، وأنت واحدة منهما.

وهكذا أطلّت ذكريات على الشاشة الصغيرة، ذات مساء من مساآتِ الربيع، بجمالها الأخّاذ وضحكتها العذبة، وراحت تنشد لـ مات مونرو تلك الأغنية الخالدة I Will wait for you التي تخطف الروح وتذيب العاطفة. نادى مقدّم البرنامج باسمها، وخرجت هي من الكواليس كما اليمامة من عبّ الساحر. قدّ ممتلئٌ على لطافة، وشعر ذهبيّ غضّ مضفّر، جينز أسود وقميص أحمر. وجلست في وسط المسرح المظلم، على تابوريه عالٍ، حاملة غيتارها الأسود، ودائرة الضوء تسجنها وحدها وسط الظلمة التي تلفّها من كلّ ناحية، كأنّها نجمة لامعة في الفضاء الواسع. لقد غنّت بكلّ كيانها ومشاعرها I

Will wait for you فنجحت الأغنية ولاقت حفاوة كبيرة، وضجّ المكان بالتصفيق والصفير. وحصلت على تقدير عالٍ مميّز من لجنة التحكيم. بيد أنّها كانت تجهل أنّ هذا النجاح الأوّلي.. المرتبك.. والخجول.. سيكون باب دخولها إلى جهنّم. كانت المسكينة تجهل أنّ جيلبير جلس في ذلك المساء، متقوقعًا أمام الشاشة كحشرة الخنفساء، مذهولاً.. متوتّرًا.. مثارًا.. وقد سال لعابُ أفكاره على حلوى مشروع كبير هو ذكريات وهبي. إنّها الأنوثة التي تملك مواصفات توافق رجولة مجنونة، كجيلبير. وإذ هي بعد في فرحتِها بهذا النجاح.. جاءَها بعد أسبوعين، ولا تدري كيف! مشروع كليب أغنية من المخرج نفسه. فزحف القلق إلى كيانها، كالجراد، ليأكل مواسم أفراحها البريئة، ويشرّع لها البوّابات السبع إلى رحلة السبي البعيد. لقد اشتمّت في كلمات المخرج وإغواآته رائحة الخلاعة. كان يريد أن يصنع منها نجمة من نجمات الفنّ الشهيرات، وتجاسر ومدّ يده إلى صندوقة شَرَفِها ليقبض الثمن. خطوات أولى من نجاح جزئيّ يتيم.. وبدأت مخاطر السفر الطويل تقفز كالذئاب نحو نعجة توغل في دغل مرعب كثيف. البداية هكذا.. فكمّ بالحريّ لو غاصت في عالم الفنّ بعيدًا؟ ولم يمضِ شهر على ظهورها على الشاشة حتى وثب إليها جيلبير، وقال لها:

ـ كنتِ أميرة ساحرة في (أغاني الشباب). هل تغنّين يا ذكريات في مأدبة أقيمها على شرف بعض الشخصيّات الهامّة؟ ستتعرّفين على أناس بارزين في المجتمع، وستحصلين على المال الكثير.

ـ لا مانع عندي. أجابت ذكريات بعفويّة. فالغناء يزيد من رصيدها في بنك النجوميّة، خصوصًا أنّها لا تستطيع أن ترفض طلبًا لجيلبير الذي طالما «ضوّا إلون صابيعو العشرة».

ـ ماذا تفيدك الدراسة يا ذكريات؟ أنت جميلة وموهوبة. أستطيع أن أجعلك مطربة العصر، ثريّة.

كلمات جيلبير تحاول أن تصوّر لها عالم الفنّ فردوسًا طاهرًا.. لا تسرح فيه صراصير الفقر وديدان الهموم. والقمّة ثمرة يانعة طيّبة.. تنتظر يد النجمة المتألّقة ذكريات وهبي لكي تقطفها.

وأزفّ موعد الحفل، وحضّرت ذكريات نفسَها جيّدًا. لقد جاءَت قبل يومين إلى تلك الشقّة الساحليّة لكي تتمرّن على الأغنيات مع الفرقة الموسيقيّة الصغيرة. وفي يوم المأدبة، حضر جيلبير إليها حوالى الحادية عشرة ليلاً.. بتأنّق رجوليّ مهيب.. وأمّا هي فكانت خرافة من خرافات الجمال. سألها في الطريق:

ـ هل أنت مضطربة؟ فأجابت:

ـ أجل. مضطربة كثيرًا. ولكن لا بأس، بعد الأغنية الأولى بيمشي الحال. فقال:

ـ خذي هاتين الحبّتين وتناوليهما عندما نصل، ستشعرين بطمأنينة كاملة. وكانت الحبّتان نوعًا من المخدّر شعرت بهما بأنّها المرأة الخارقة عندما غنّت. والانفعالات المتفاقمة التي ضجّت بها نفسُها أثناء غنائِها، في تلكَ الليلة، كانت خطوة أولى وراءَ عتبة الدخول إلى حصون إبليس.

ـ سايري الجميع يا ذكريات. أهمّ الشخصيّات في البلد سيحضرون. وستكونين أنت رفيقتي في السهرة.

ـ ماذا تقصد بـ سايري الجميع؟ سألت.

ـ إسمعي يا ذكريات. هذه المأدبة بساطك السحريّ إلى التألّق.

ستغنّين للطبقة العالية. وأنا على علاقة قويّة بعالم الصحافة، وقريبًا سأعلن افتتاح مؤسّستي الإعلاميّة الخاصّة. إعملي ما أقوله لكِ وأنت الرابحة. لا تضيّعي الفرص، خصوصًا هذه. وكلمات جيلبير محفّزة بشكل قويّ، فأذعنت كخادم مطيع. وما إن وصلت إلى الشقّة الساحليّة، حيث أقام جيلبير المأدبة، دخلت إلى المطبخ وتناولت الحبّتين وعادت إلى القاعة تنضمّ إلى الحاضرين، يعرّفها جيلبير على بعض منهم.

وأوشك أن ينتهيَ الحاضرون من تناول الطعام على أنغام الفرقة الموسيقيّة الهادئة، وتسنّى للجميع التحادث بحرِّيّة على المائدة. وكانت ذكريات جالسة بجانب جيلبير، ولكلّ رفيقته. ظنّت هي أنّ هؤلاء الرجال حضروا إلى هذه الدعوة مع نسائهم! والحقيقة التي سوف تعرفها لاحقًا.. أنّ جميع نساء هذا الحفل.. وغيره من الحفلات هم عاهرات الطبقة اللوكس، أي المخصّصات لعلّيّة القوم. فعلِّيّة القوم لهم عالمهم الخاصّ أيضًا، وأشغالهم الخاصّة.. وكذلك أيضًا لذّاتهم الخاصّة. وثب جيلبير بقامته المهيبة وشياكته الكازانوفيّة إلى المنصّة التي تعلو ٣٠ سنتمترًا عن أرض القاعة، وقال من وراء الميكرو الفضّيّ الغليظ:

ـ إنتباه من فضلكم! عندي لكم مفاجأة أيّها السادة في سهرتنا الرائعة هذه. نجمة (أغاني الشباب) والموهبة الواعدة بمستقبل فنّي كبير، صاحبة الصوت الأوپرالي العذب... وأشار براحته في اتّجاه ذكريات.. وشخص الجميع إليها تنهض من مكانها، وتتّجه إلى الميكرو بجاذبيّة في أوائل مواسم نضجها، وأمسكها جيلبير بيدها، وانحنى قليلاً، وتابع الكلام:

ـ كانت الفرقة تقدّم لكم مقبّلات الفنّ أيّها الأصدقاء، وأمّا الآن

فقد جاء دور الطبق. سيّداتي سادتي أقدّم لكم المطربة ذكريات وهبي. وصفّق الجميع بحفاوة. ثم أمسكت ذكريات الميكرو بأناملها وراحت تبدع في الغناء. أنهت الأغنية الأولى، وصفّق الجميع. وما إن بدأت أغنيتها الثانية انطفأت الأنوار إلّا الضوء المخروطيّ الذهبيّ الذي يلفّها. ونسيت نفسها فوق المنصّة، لم تشعر بطاقةٍ في حياتها كتلك التي شعرت بها هنا، كأنّ روحًا ماردة تقمّصتها. وكانت الرائحة الغريبة بدأت تعبق في فضاءِ المكان، وتتهادى على وقع أنغامها الرومنسيّة. لقد غنّت كأنّ لها خبرة عشرين سنة، مغنّية أصيلة من الطراز الأوّل. وسط الظلمة كانت جالسة على التابوريه العالي، والغيتار فوق ركبيتها، فتطير هي بالأغنية وتلحق بها فراشات النوتة من الفرقة الموسيقيّة. غنّت أغنياتٍ لم تتمرّن عليها مع الفرقة، لقد ارتجلت أشياءَ وأشياء. ثم سمعت صوتًا في العتمة يطلب منها أغنية Somewhere لدين مارتن ولبّت له طلبه. وبعد نصف ساعة من الغناء كانت قد تخطّت ذاتها بالكامل. وكان باستطاعتها أن تغنّي الليل كلّه! فيما بعد ستعرف أنّ الحبّتين الساحرتين مسختاها إنسانًا خارقًا. ثم أُضيئَت الأنوار أخيرًا، فرأت الجمهور كأنّهم في غيبوبة. هذا شبه غافٍ.. وهذا يعضّ أذنها.. وذاك يقبّلها في عنقها.. وتلك تدخل يدها في عبّه وتداعب صدره.. وهاتيك تلامس أناملُها أسفلَ بطنه.. وأخرى تضع رجليها فوق فخذه وتشبك إحداها في رجله. أترى هل خدّر غناؤها الجميع؟ أم هي تلك الرائحة الغريبة العابقة؟ ما الذي غرس فيها القوّة الخارقة والجميع خارت قواهم؟ إنّها المخدّرات. وهي أصناف وأصناف.

وفي اليوم التالي كان أيّوب ينتظر استيقاظ أخته بفارغ الصبر ليسألها عن السهرة. بيد أنّ الطاقة العملاقة التي أنهكت جسدها واستنزفته بالكامل، توجب النومَ أيّامًا لتستعيده. لقد أوصلها جيلبير مع

الصباح إلى البيت غافية مرهقة، وحملها إلى باب البيت تترنّح، فنامت كالقتيل. وعندما استيقظت بعد الظهر دخلت الحمّام لتأخذ دوشًا. وسمعت جلبة أخيها عائدًا:

ـ هل لا زالت مغنّيتنا الجميلة نائمة؟

وسمع أيّوب صوت ماء الدوش، فاقترب من باب الحمّام، وسأل أخته:

ـ كيف كانت مطربتنا الجميلة البارحة؟ وأجابه الصوت الناعس من الداخل:

ـ كانت حفلة رائعة يا أيّوب.. ولكنّي مرهقة بشكل غير طبيعي.

ـ سأنتظرك، ونتحدّث طويلاً.

وخرجت ذكريات من الحمّام، شعرها ملفوف بالمنشفة كأنّه عمامة سلاطين بني عثمان. جلست على الطاولة في المطبخ تريد أن تأكل شيئًا خفيفًا، وجلس أيّوب مقابلها. وسأل ثانية:

ـ كيف كان الوضع؟ خبّريني. نشالله كلّ شي عا زوقك؟ وكان يغوص في عينيها بنظراته الثاقبة، علّه يدرك ما تتوجّسه خواطره الحائرة. أجابت ذكريات:

ـ كانت حفلة رائعة. لقد غنّيت بجنون. لا أدري ما دهاني! منذ وقوفي وراء الميكرو نسيت نفسي بالكامل. كان هناك شخصيّات هامّة.. و.. و..

ـ وعدد الحاضرين؟

ـ ليس كثيرًا.. حوالى أربعين شخصًا. وتخرج الكلمات الناعسة ببطء من فم ذكريات:

ـ حضّرنا خمس أغنيات.. ولكنّي غنّيت طوال الليل. لا أفهم ماذا حدث! طلب منّي بعضهم أغاني فغنّيتها.

ـ ماذا قال لك جيلبير؟ ولجّ أيّوب في السؤال.

ـ لقد قال لي أن أتركَ الجامعة، وسوف يجعلني نجمة في الغناء. آه.. تذكّرت.. لقد أعطاني شيكًا بعشرين ألف دولار، إنّه في الحقيبة. ووثب أيّوب إلى الغرفة وأتى بالحقيبة وأخرج الشيك، ثم قال:

ـ إنّها بداية جيّدة. ستصبحين فنّانة كبيرة يومًا ما. بيد أنّي قلق يا ذكريات.. قلق كثيرًا.

ـ مِمَّ؟ سألت ذكريات.

ـ لست أفهم هذا. ربّما كرم هذا الإنسان واهتمامه الغريب بنا! لقد ساعدنا في البداية في مرض أمّي. ثم كان هو السبب في وفاة والدي. ثم راح يساعدنا في الجامعة، وها هو الآن يريد أن يصنع منك نجمة، أو يريدك أنتِ، من يدري؟

ـ إنّه رجل يا أيّوب.. رجل قويّ واثق من نفسه، ويعرف جيّدًا ما يريد.. جذّاب.. ثريّ.. وشبكة علاقاته بخاصّة الناس واسعة. إنّه حلم أيّ فتاة!

ـ هل تظنّين أنّه يريدك للزواج؟

ـ أرحّب بالفكرة يا أخي.. ومن الغباء رفض هكذا عرض لو كان. وصمت الأخَوَان لثوانيَ كأنّها دهر. وعاد أيّوب إلى الكلام:

ـ لا أدري أشعر بقلق غريب لا أفهمه.. ولا أستطيع تحديده. أنا أيضًا يا ذكريات أحلم بالخلاص النهائي من الفقر. ولديّ أيضًا

كنزي المخبّأ في جزيرة طموحاتي. أيكون هذا الإنسان طريق خلاصنا؟

ـ في الحقيقة أنا لا أفهم خوفك يا أيّوب. حتى الآن لم يظهر من الرجل ما يسيء. كان السبب في وفاة الوالد.. ولكنّه أعطانا مبلغًا كبيرًا.. واشتريت أنت سيّارة حلمِك؟ وها هو في مساعدته لنا في الجامعة، ربّما، يعوّض عمّا حدث لأبي!

كان هناك، بلا شكّ، خوف طفيليّ آخر يعترش على جدران قلب ذكريات.. لم تفصح عنه لأخيها.. لكي لا يغرقا معًا في اللجّة نفسها. الاثنان لديهما شيء يبحثان عنه ولا يستطيعان فهمه: المجد، الشهرة، الثروة، الحياة المرفّهة. الحاجة والقهر الاجتماعي أحيانًا، يغرسان في الوجدان أشواقًا إلى خيالات وأوهام، لا يستطيع مغنطيس الحقيقة الراهنة شدّها إليه. الحرمان الاجتماعيّ قمقم مرعب يختبئ في داخله جنُّ الطموحات المجنونة، خصوصًا إذا كانت هناك أصابع ماكرة تعبث بهذا القمقم. جيلبير كان يحكش في طموحات أيّوب كما يحكش الولد وكر النحل بعصاه. كان يقول له: «سأنسيك أنت وأختك حياة التعتير التي تعيشانها.. ستعملان معي.. أنا بحاجة إليكما.. أطيعاني وتعيشا أميرَين في مملكة جيلبير عزوري المترامية الأطراف». ويقول أيضًا: «لا يهمّ التحصيل العلميّ والثقافة ولا الذكاء.. ولا الخبرة في أيّ شيء.. على يديّ ستتعلّمان كلّ شيء وستبرعان. لأنّ القضيّة ليست قضيّة تلميذ ذكيٍّ.. بل قضيّة أستاذ يعرف كيف يصنع مساعدًا وفيًّا له». وكثرت زيارات جيلبير إلى بيت هذين الشابّين التائهين في صحاري الأحلام السندباديّة. كان يسهر عندهما، أو يدعوهما إلى عشاء أو حفلة غنائيّة أو مسرحيّة أو أيّ نشاط حزبيّ شبابيّ، ثم أدخلهما أخيرًا عضوين في الحزب. وسرعان ما نصّبَ أيّوبَ قائدًا لمجموعة من الشباب ينظّم لهم مخيّماتهم ورحلاتهم وبرامجهم. ثم

رقّاه لاحقًا إلى مسؤول شبابيّ على القضاء، ثم عضوًا في الهيئة المركزيّة للحزب. وفيما بعد فرّغه بالكامل لنشاطه الخاصّ الغامض! كانت المرحلة الحزبيّة في حياة أيّوب من أجمل أيّام حياته. مال وسلطة وجاه. . والفتيات يحُمن حوله كأنّه كازانوڤا زمانه. وظنّ المسكين أنّه سيكون له شأن في المستقبل إلى جانب جيلبير. بيد أنّ المرحلة الحزبيّة ما كانت غير جواز سفر، وتدريب، و«فرمتة»، وفبركة «الروبو المخلص». هذه المرحلة تشبه حديقة المقبرة الساحرة. . ولكن في أقبية المقبرة ما هو مرعب ومقرف. قال له جيلبير ذات يوم:

ـ أصبحت رجلاً صالحًا لأعمال الرجال. وهذه الولدنات الشبابيّة ستتركها لأشغال أكثر أهمِّيّة. وأجاب أيّوب بإخلاص:

ـ أنا خرطوشة فردك يا جيلبير. ويبتسم جيلبير في سرّه أنّ هذا «الروبو المخلص» بات خاتمًا في إصبعه.

وأمّا ذكريات فتخلّت عن دراستها نهائيًّا، وبدأت تخرج مع جيلبير سرًّا وعلنًا. وسبحت الأقاويل على ألسنة الناس: «ذكريات لحقت الفنّ» «من أين لجيلبير هذه الثروة السريعة وهذا العزّ؟» «جيلبير وذكريات بيحبّو بعضون» «جيلبير سيتزوّجها ولن يدعها تغنّي» «الثريّ يتزوّج الجميلة بثروته، والفقيرة تتزوّج الثريّ بجمالها» «بتستاهل ذكريات الأبّهة. . جمال وطلّة وموهبة» أو «هيدا الدونجوان الغنيّ لن يتزوّجها، لديه العشيقات الكثيرات، سيلهو بها ثم يهجرها إلى أخرى». هذه وغيرها من الأقاويل التي كانت تدور في ساحات ورَدهات البلدة. كانا حقًّا من الناحية «التشريحيّة» عاشقين دالهين في الغرام. وبعد غنائها الخارق في المأدبة، صار يأتي بها إلى شقّته الساحليّة حيث الطقوس الغريبة التي يمارسها مع مجانين اللذّات المنحرفة. دعاها في البداية إلى المستوى الخفيف من الطقوس،

مستوى التلميذ، حتى إذا اعتادت عليه ثقّل العيار لها قليلاً. وجيلبير من النوع الطويل الأناة أكثر من «أناة موسى النبيّ» وفي كلّ أشغاله. كان يقول: «لا تؤكل الطبخة بلا بهار وملح» و«الصبر مفتاح لكلّ الأقفال» و«الصبر صبران: صبر على ما تكره، وصبر على ما تحبّ. ما أكرهُه عدوّي وما أحبُّه مساعدي». ولهذا كان ينفق وقتًا كثيرًا في إعداد «روبواته المخلصة» كلًّا في مكانه. وجرَّ الزمنُ أيّامَه وشهورَه كفاكونات القطار. واعتادت ذكريات على جيلبير، وتعلّق فؤادها به، وتلهبُ النار أحشاءَها لو مرّ يوم واحد لم ترَه فيه. كان الوقت يزحل.. والعلاقة تستمرّ.. والحبّ يقوى.. والقيل والقال يزداد. فتجرّأت ذات يوم، وكان سهرانًا عندها يشاهدان التلفاز، وأمامهما على المنضدة المازة المُشكّلة، وأيّوب خارج البيت، فتركته يقبّلها قبلات شفّافة على خدّها، ويشمّ شعرها، ثم يعضّ شحمة أذنها، ثم يمرّر شفتيه برومنسيّة على عنقها البضّ اللطيف. فتشعر هي بخدر ممتع تحت تأثير إغوآته الحاذقة. وتناديه في قلبِها أن يمضيَ في مَرَحِه إلى آخر الشوط. وعندما يدرك أنّها ذوت بين راحتيه كزهرة «المستحيّة» يتوقّف. فقالت له بغنج وهي تسحب إصبعها على شفته السفلى:

ـ متى نتزوّج يا جيلبير؟ ويجيبها بهدوء وخبث، متوقّعًا هذا السؤال عاجلاً أم آجلاً:

ـ لن نتزوّج قبل أن نشبع حبًّا. أنسيتِ ماذا يقول جبران؟

ـ ماذا يقول؟ وتسأل بعفويّة.

ـ الزواج مقبرة الحُبّ.

وهذه إن هي إلّا عيّنة من الرومنسيّات الروائيّة التي يمهّد بها جيلبير لمشاريعه، فيُخرجُها ببراعة خبير. وخطفت دروب الرحلة

الطويلة ذكريات كما خطفت قبلها أخريات كثيرات. كانت الحياة تسير سيرًا طبيعيًّا، فإذا الأرض تهوي تحت أرجلهنّ، ورمال جيلبير المتحرّكة بغير سابق إنذار، تلفّهنّ وتشدّهنّ إلى الأعماق. ذكريات أحبّت جيلبير وظنّت فيه فارس أحلامها. جعلها تغنّي في حفلاته ومآدبه وطقوسه الخاصّة، وكان على علاقة قويّة بإحدى شركات الفنّ، فرتّب لها ثلاث حفلات ناجحة، ودبّر لها مقابلتين تلفزيونيّتين. وكان هذا نصيبها فقط من الشهرة ومن الفنّ! وهنا انتهى مشوارها الفنّي بكامله. هذا «الروبو الوفيّ» كانت تشرّج بطّاريّته ليبدأ عمله بين الأشباح ذوي المعلومات السابحة مع الأثير. وذكريات ستكون شبحًا أثيريًّا ينساب بين ظهرانيهم.

وبعد أن «استوَت» ذكريات حبًّا ورومنسيّة، أدرك جيلبير أنّ وقت المرحلة التالية قد حان، وهي مرحلة العشيقة. لن يدفعها الآن ليد عشّاق آخرين.. هذا سيكون في مرحلة لاحقة. أسلوب جيلبير إدخال العادات القذرة إلى حياة المرء على مراحل بالتقسيط، وأكثر من هذا.. بل جعل هذه العادات حاجات. وهذه العادات كفيلة بتخدير أو قتل الأخلاق، وتعطيل هذه الومضات الكهربائيّة الحسّاسة التي تسمّى الضمير. أي باختصار مسخ الإنسان آلة. وعندما يخلو الإنسان من الأخلاق والضمير، ويكون المال دينامو حراكه، ومصدرُ المال إنسان ممسوخ هو الآخر! يتحوّل مصدر المال إلى «ريمونت كونترول» ذي سلطة سحريّة على هذا الإنسان الروبو. وهكذا كانت «روبوات» جيلبير عينيه وأذنيه ويديه في كلّ مكان. ذكريات ستصبح الغانية «الروبو الأثيريّ»، وأيّوب سيكون «الروبو الوفيّ» والصامتَ ذا المهمّات المستحيلة.

وبدأت الليالي الحمراء الصاخبة بين جيلبير وذكريات. وذكريات

تعيش على حلم الزواج، والشهرة الفنّيّة. بيد أنّها عندما راحت تشبع من رجولته الفيّاضة لذّة ومالاً، وتذوق في جنّات تابواته الثمار المحرّمة، بدأت أحلام الفنّ والزواج تخبو شيئًا فشيئًا. مع الوقت أصبحت مدمنة عليه إدمانها على القهوة والسيكارة والمخدّرات. وما كانت تطلبه من الإشباع كان أقلّ بكثير ممّا حصلت عليه. لقد صنع فوق جسدها، لشهور، ألوانه الجنسيّة التي طمست بالكامل خطوط رؤاها وطموحاتها. وكانت آثار رائحة عطره فوق مضجعهما تثيرها حتى النشوة. وزادت مشغوليّات جيلبير مع مرور الزمن، فراح ينكفئ شيئًا فشيئًا من نحوها، وكان هذا يجعل أفكارها تطير في كلّ اتّجاه. بدأ القلق الرهيب يجرّح قلبها وأعصابها، والدموع ترطّب وسادتها كلّ مساء. خافت أن تخسره.. خافت من الحياة بدونه.. خافت من الحبّ بدونه.. وبدأ كأس متعتها وشبعها يتناقص. أترى هناك امرأة أخرى في حياته؟ ساءَلت نفسَها. وين الدني ووين أهلها!! لم تكن تعي المسكينة في أيّ تيهٍ قذف بها هذا الإنسان. لو غاب عنها شهرًا من الزمان كانت تجنّ لفقدِه، فتحاول الاتّصال به بأيّ وسيلة وتفشل. فانهارت أعصابها وذوى بريق عينيها. وأخفت ألمها عن أخيها الذي كان يجتاز في ألمٍ شبيهٍ هو الآخر، ولم يخبرها به. ثم رنّ الهاتف ذات يوم:

ـ ذكريات.. أنا آتٍ الليلة.. إنّي أذوب شوقًا إليك. كلمات جيلبير في قالب من الشاعريّة الخبيثة.

ـ جيلبير! حبيبي! أين أنت؟ لقد جنّ جنوني.. حرام عليك يا قاسي.

وكان جيلبير قد خطّط في هذه الليلة أن يغرس ثمرة هذه العلاقة الشاذّة في أحشائِها. وكانت ليلة ليلاء. ذاقت فيها ذكريات من المتع

والبهجات ما لم تذقه في سابقاتها. ومرّت الأيّام وبدأت تشعر أنّ شيئًا راح يتغيّر في جسدها، يؤلمها ويرهقها ويُشعرها بالغثيان. قال لها الطبيب وهو يبتسم:

ـ مبروك. أنتِ حامل.

وصُعقت المسكينة للنبأ. وأمضت أيّامًا كئيبة مريضة. ورأى أيّوب أخته غيرها بالأمس، فاقترب منها واحتضنها وسألها:

ـ ما بك يا ذكريات؟ قولي لي أرجوك. وأجابت المسكينة بعد موجة بكاءٍ مخنوق:

ـ أنا حامل يا أيّوب.

* * *

٩

ليس الله صامتًا البتّة،

وإنّما نحن الصُمّ.

سرتيانج

بدأ أيّوب يعي، مع الزمن، أبعادَ العالم الأربعة الذي غاص فيه، عالم جيلبير عزوري. وفهم جيّدًا «الظاهرة الجيلبيريّة» أو «الفصاميّة الوجوديّة» لواقع جيلبير: أمام الرأي العامّ وجود، وفي السراديب وجود آخر. مع أعدائه وجود أيضًا، ومع روبواته ونسائه وجود آخر قائم بذاته، وهذا الأخير هو الدينامو الحقيقيّ لكلّ حراك جيلبير. إنّ الجزء الحقيقيّ فيه هو الغائص في بحر روبواته ونسائه.. كالسفينة تمامًا! فإنّ الجزء الأهمّ والأكبر منها، هو المختبئ تحت الماء حيث تهدر المحرّكات بصمت، ولا يشعر بها الركّاب فوق السطح. واستسلم أخيرًا، أيّوب وأخته، لتيّارات جيلبير الماكرة، تجرفهما إلى مستنقع نجاسات لا يجفّ. السنون تركض، العمر يقفز، وهكذا الشباب أيضًا

أحلام تتواثب. لم يكمل أيّوب دراسته هو الآخر، ولم يتعلّم مهنة شريفة يواجه بها تمرّد الأيّام، فراح جيلبير يعلّمه «مهاراتٍ متنوّعة». هو الذي لقّنه فنّ المغامرة، وحذاقة الترهيب، ودهاء الترغيب، ولباقة الرياء، وقسوة القلب، وسرعة الاقتناص، حتى أصبح كائنًا حيوانيًّا هاربًا.. لا عمل له إلّا المطاردة.. وحراسة الأوكار والانقضاض على الفرائس: تهريبات، إبتزازات، إقتحامات، سطو، تجارة سوداء، نساء سلاح ومخدّرات. وليس أمامه إلّا أن يجيد كلّ هذه الأعمال، لأنّها أركان وجوده. فاستطاع والحالة هذه أن يبتاع له شقّة دلوكس في الضواحي، وقطعتي أرض كبيرتين في السفوح الشماليّة. وأخته هي الأخرى، بات لها شقّتها الفخمة أيضًا. وهكذا تلاقى الهدفان المشوّشان في دربٍ واحدة، والرجوع إلى الوراء يعني الهلاك الحتميّ. قال جيلبير لأيّوب ذات يوم، أثناء الحملة الانتخابيّة:

ـ السيّد أكرم أبو غصن. تعرفه أليس كذلك؟ فسأل أيّوب:

ـ صاحب المصارف، والأسهم الأكبر في شركة الفنادق OMO؟

ـ هو بعينه.

ـ والمطلوب؟ سأل أيّوب ثانية.

ـ نحتاج لخمسين مليون دولار. بأيّ طريقة. هو لك، وأنت تعرف كيف تتصرّف. ثم تابع الكلام:

ـ إنتبه! لا أريده أن يشتمّ رائحتنا لا من قريب ولا من بعيد. وقال أيّوب بنبرة رجوليّة واثقة:

ـ إعتبر المسألة منتهية سيّد جيلبير. نحنا تلاميذك.

ـ نفّذ المهمّة مع اثنين من مخلصيك لا أكثر.

ـ سمعًا وطاعة يا مولاي.

وبقي أيّوب ساهرًا الليل بطوله يفكّر ويخطّط كيف يتصيّد هذا الطائر الدسم، وهذه ليست المرّة الأولى. وغالبيّة ضحايا أيّوب إمّا الوزير أو النائب أو الزعيم أو الاقتصاديّ. كان يحتاج إلى شهر لكي يدرس تحرّكات أكرم أبو غصن. وهكذا أمضى الأيّام والليالي يراقب ديناميّة حياة أكرم. ولم يمضِ ثلاثة أسابيع حتى تأكّد لأيّوب أنّ ضحيّته هذه سهلة للغاية. كان هذا الرجل يقود سيّارته، ذات الزجاج الدخّانيّ بنفسه ولا يستخدم سائقًا البتّة. وذات يوم، في الساعة الحادية عشرة مساءً، عندما وصل السيّد أكرم وركن سيّارته في المرأب في أسفل البناية، عائدًا من عمله وبيده الحقيبة السوداء. وثب أيّوب ورجل من الاثنين اللذين معه، وانقضّا عليه بنبرة مرعبة، وعيون ناريّة بارزة من وراء القناع المطّاطيّ الشفّاف. واحدهما شدّ عنقه ويديه من الخلف، وأيّوب وضعَ المسدّس في فمه. وقال:

ـ سأفجّر دماغك يا ابن القحبة إذا لم تطِعْني. بحْسُب ألله ما خلقك. مْشي معي مقطوع حسّك.

وجرّاه إلى السيّارة خارج الحديقة في الزقاق الخلفيّ، وهو يهتزّ كورقة الخريف رعبًا. ألقيَا به في الصندوق بعد أن قيّدا معصميه وراءَ ظهره بسرعة ساحر وكمّا فمَه، ورمى أيّوب الحقيبة السوداء في المقعد الخلفيّ، وقاد هو بسرعة إلى منزل السيّد أكرم نفسِه في الجبل، الڤيلّا التي خصّصها لليلاتِ الكيف والعربدة. وكان البيت خلوًا من بشر، وكانون الثاني باردًا جدًّا. وصلوا بعد نصف ساعة، وركنوا السيّارة في مكانها أمام البيت. وأنزلا الرجل من الصندوق والمسدّس في رأسه، وكلمات الشتيمة والإهانة رهيناتٌ أخرى رفيقات له. سأل أكرم بعد أن حرّروا فمَه، وصوته يتهدّج:

ـ من أنت؟ ماذا تريد منّي؟ سأعطيك مالاً كثيرًا. . أرجوك دعني وشأني.

ـ بالضبط. لقد أصبتها. قال أيّوب، وتابع أكرم:

ـ سأحرّر لك الآن شيكًا بمئة ألف دولار. أيكفي هذا؟ وضحك أيّوب:

ـ هيّا أمامي. سأقول لك كم أريد الآن في الحمّام.

وراح يدفعه أمامه. . وأدخله البيت بعد أن أطلق النار على قفل الباب من كاتم صوت. وكان البيت ڤيلّا سوبر دولوكس. ووصلا إلى الحمّام. صرَخَ أيّوب:

ـ إخلع عنك ثيابك كلّها الآن.

ـ ماذا؟! أموت في هذا البرد الشديد!

ـ الله لا يردّك، شلاح تيابك وليه. وخلع ثيابه كلّها وهو يرتجف من البرد والخوف. وأدخله الحمّام وأقفل الباب من الخارج.

ـ ماذا تفعل؟ أرجوك. . ببوس إجريك. . أطلب منّي ما تريد.

وأدخل أيّوب دفتر الشيكات وقلمًا من تحت باب الحمّام، جاءَ بهما من حقيبة السيّد أكرم السوداء. وقال:

ـ وقّع على خمسين مليون دولار أميركي. وتخرج حيًّا سالمًا من هنا.

ـ خمسين مليون دولار؟! مين أنت؟ مين وراك؟

ـ إذًا ستبقى في الحمّام في هذا البرد لتموت شقفة تلج.

ـ أقسم أنّك لن تنجو بفعلتك هذه. . وسأعرف من الذي دفعك

لفعل هذا. . كان يتكلّم بينَ هاذٍ وباكٍ. وقال:

ـ لا أملك هذه السيولة الآن، لا أستطيع أن أحرّر شيكًا بكلّ هذا المبلغ. . مستحيل! قل لمعلّمك أستطيع تمويل مشاريع كبيرة تعود عليكم بالمال الكثير. وأستطيع إعطاء وظائف كثيرة لشباب يحتاجون لعمل.

ـ لا تثرثر. . وقّع الشيك.

ومرّ اليوم الأوّل ولم يستجب السيّد أكرم. واتّصل جيلبير بأيّوب في اليوم التالي وقال له: «إستخدم جميع وسائل الضغط وأساليب التعذيب الممكنة»، فحرمه أيّوب من النوم والطعام، حتى كاد أن يموت. كان السيّد أكرم قويّ الجثّة فصبر على التعذيب، وكان يردّد لأيّوب متمتمًا: «أنتَ خادم عند أناس لا يكترثون سوى لمصالحهم. أمجادُهم على ظهرك أنت. وعندما تُستنفَد يتخلّون عنك، ونهايتك إلى الهلاك». ولكنّه عاد فأذعن في اليوم الثالث تحت الضغط، حيث قال له أيّوب: «نعرف الكثير عن اتّصالاتك بالعدوّ. . نقدر أن نرميَ بك ساعة نشاء في أوسَخ ملفّ عَمَالة». وأعطاه أيّوب رقم حسابه المصرفيّ تحت اسمٍ مستعار، والهاتف الخليوي لأحد الرجلين فاتّصل بعائلته وزوجته، وسكرتيرته في باريس وصديقه في شركة T.M.Y ورتّب عمليّة نقل المال الذي بدأ يتدفّق إلى حساب أيّوب. ولم يعرف السيّد أكرم أبو غصن قطّ من هي الجهة التي ابتزّت منه هذا المال الكثير. وهكذا في كلّ ساحاته: بيع أو شراء أو مقايضة، عقارات سيّارات شقق، كانت الأساليب الإرهابيّة والترغيبيّة «سُمْهَريَّه»، أي جيلبير، الذي «زيَّنَ معروضًا وَرَاعَ مُسدَّدا». ودائمًا. . كان يحصل على الأسعار التي يريد. أراد مرّة شراء طبقتين سفليّتين في أحد المباني ليستخدمهما كمستودعات، ورفض المالك البيع بالمنيح. فكان الصامت أيّوب هو

الحلّ: ليلة غراميّة واحدة لأيّوب مع زوجة المالك المصون، في شقّته موثّقة بالصور الفاضحة، إلى جانب صُوَره هو مع عشيقتِهِ هي الأخرى، شكّلا سكّينًا حادًّا على عنقه، فباعهما لجيلبير رغمًا عنه وطلّق امرأته فيما بعد. ويتساءَلُ الكثيرون، إزاءَ هذه التمائم المقرفة المتناثرة على جذُر عالم الشهرة والسلطة والثراء، كما كانت دماءُ الأعداء تضمّخ أسوار القلعة في قصيدة المتنبّي[1]. لماذا هكذا الفساد.. تميمة.. مخبّأة بين طيّات ثياب رجل الشأن العامّ؟ لماذا يُثري الأشرارُ ويعجز الخيّرون عن ذلك؟ أصحيح أن لا أحد يدخل حصنَ الغنى بغير سراديب الظلم والنفاق، كمقولة الماركسيّة؟ لماذا ينجح الأشرار في طرقهم دائمًا؟ وهل ينتصر الشرّ على الخير في كلّ مكان؟ هذه قضيّة لاهوتيّة قديمة! أثارها داوود النبي يومًا ما في مزاميره، ولم يقدّم لنا جوابًا شافيًا.

وقرف أيّوب من أعماله القذرة. بيد أنّ شريط حياته موَثّق بالصور والأفلام، كعملة بيضاء لدى جيلبير وأداة ابتزاز. تمامًا كما يوَثّق هو الآخر فضائح جيلبير! وهلاك جيلبير يعني هلاكه، بل ربّما ينتهي هو ويبقى جيلبير! وعرف أيّوب أيضًا أنّ أخته ذكريات باتت هي الأخرى ضائعة في هذا «الوادي المفقود»، وأصبحت عاهرة الطلبيّات الخاصّة ذات الأرقام العالية، وجارية من جواري الجبروت الجيلبيريّ. ولسوءِ حظّ ذكريات، وحظّ الطيّبين سيّئ دائمًا، فيما حظّ الأشرار «بيفلق الصخر»، أنّها لم تكتشف من زمان ما ستعرفه الآن وتتحقّق منه، أي قبل حَمَلِها المشؤوم وهو ثمرة حبّ تائه مغدور، أوقف على جدار الوحشيّة وصوّبت إليه النار القاتلة. واقتربت جُهَينة غانم، الرسّامة

(١) قصيدة الحَدَث الحمراء.

العاهرة، ذات مساء من ذكريات، في حفلٍ حزبيّ فنّيّ حاشد. وكانتا قد تعارفتا في المأدبة التي غنّت فيها ذكريات للمرّة الأولى في الشقّة الساحليّة. وقالت همسًا:

ـ ما شاءَ الله أنتِ كتير عم تنصحي! وتلعثمت ذكريات وكانت في شهرها الثالث.

ـ أجل إنّي آكل كثيرًا في هذه الأيّام. وظنّت أنّها أخفت الأمر. وتابعت جُهَينة:

ـ أنتِ لست سوى رقمٍ في طابور كبير من عشيقات جيلبير يا ذكريات. وتأمّلت جُهَينة وجه ذكريات لترى تأثير كلماتها. وازرقّت شفتا ذكريات، وتمتمت ورجفة الغضب تقطّع صوتها:

ـ ماذا تعنين بأنّي رقم يا جُهَينة؟

ـ أعرف ما بينك وبينه. وهذا موقّت. عمّا قريب تتحوّلين إلى رقم. ونظرت ذكريات في عيني جُهَينة، ونار الأنوثة المجروحة تلتهب في نظرتها:

ـ لماذا تقولين لي هذا الآن؟ هل أنت تحبّينه؟ وضحكت جُهَينة ملءَ قلبها. وقالت:

ـ مسكينة أنت يا ذكريات. لا تعرفين في أيّ أرضٍ أنت تائهة.

ـ أنا لا أفهم ما تقولين؟

ـ أنت الآن وتر غير مدوزن بعد. وعمّا قليل ستصبحين قطعة موسيقيّة مدوزنة عا كيف المايسترو جيلبير. أنت لا تعرفين من هو جيلبير عزوري هذا.

ـ لا أسمح لك أن تتكلّمي على خطيبي بالسوء. وكانت الكلمات

مشحونة بقهر وكآبة، والعينان تترقرقان. شعرت ذكريات بأنّ رجليها ما عادتا تحملانها. وأضافت جُهَينة:

ـ جيلبير وحش. ألم تعرفي بعد أنّه شاذّ جنسيًّا؟! تلك البناية الساحليّة اللعينة، حيث غنّيتِ بجنون حتى الصباح، ظاهرها لقاءَات اجتماعيّة وسياسيّة، وباطنها ملذّات مثليّة شاذّة. إسألي رجاله وحرّاسه المقرّبين، يدفع لهم المال لكي يضاجعوه. وصرخت ذكريات في وجه جُهَينة: «كفى.. كفى..» وتركتها وابتعدت وهي تشهق. في اليوم التالي سألت ذكريات بكلمات هادئة أخاها أيّوب، وكان هذا الأخير مستلقيًا في غرفة الجلوس، وبيده الريمونت يقلّب في التلفاز:

ـ هل صحيح ما أسمع عن جيلبير يا أخي؟ وبلع أيّوب ريقه، وأعياه الجواب. تظاهر بعدم سماع السؤال. ولجّت في السؤال:

ـ أجبني يا أيّوب. أصحيح ما يُقال عن شذوذ جيلبير؟! وأجاب بهدوء وقد استقام في قعدته:

ـ أنت وأنا سجينان يا أختي.. ولا خلاص لنا البتّة. ما كنت أراه بحدسي ألمسُه اليوم بيدي. هذا النعيم الظاهريّ الذي نعيشه، يُخفي جحيمًا أحمر.

ـ يعني جيلبير إنسان شرّير يا أيّوب.. ومخاوفك كانت في محلّها؟ وأطرق أيّوب وهو يتمتم:

ـ للأسف.. هذه هي الحقيقة. أنتِ وأنا طيران يغرّدان في قفص جيلبير طربًا لأذنِه المنحرفة.

وانهارت ذكريات على الأرض غائبة عن الوعي. وحملها أيّوب من فوره إلى المستشفى، وهناك أسقطت حملها وهو في الشهر الثالث. وعاشت بعد الحادثة أيّامًا وليالي موحشة غاضبة، واعتزلت الناس.

وعندما حاول جيلبير الاتّصال بها هاتفيًّا تحامته، وقالت لأخيها:

ـ يجب أن يخرج جيلبير من حياتنا نهائيًّا. ونبدأ حياتنا معًا من جديد.

ولكن كِلا الأخوين يدرك جيّدًا أنّ هذا الفكر يشبه قرارَ جحا وأبيه أن يزوّجه من ابنة الملك! هكذا قرار ليس باليد البتّة. والفرار من حروب جيلبير يعني الحكم على النفس بالإعدام. الاثنان مسبيّان متغرّبان عن حياتهما الطبيعيّة، ويعيشان أيديولوجيّة إستغلاليّة متورّمة في قالب ضعيف، وكأنّ جيلبير إلٰه تجسّد فيهما. وعندما تتنامى طاعة الرئيس لدرجة الإلغاء الكامل لفرادة الذات عند المرؤوس، تتحوّل مع الأيّام إلى مجمرة لاهبة، بل بركانٍ ثائر يوشك أن ينفجر. فالثورة ليست فكرة متحمّسة وحسب، بل تراكمات مزمنة من الآلام. وتثبّت لذكريات لاحقًا، بما لا يقبل الشكّ، شذوذ جيلبير الجنسيّ. قال لها أخوها:

ـ لقد أجبرني جيلبير على مجامعته لقاء مبلغ كبير من المال. وصرخت ذكريات في وجهه:

ـ كيف استطعت فعل هذا؟ كيف؟! فأجاب أيّوب:

ـ تحت تأثير المخدّر! وانتابني الغثيان وتقيّأت عند نهاية مفعوله. هذا الإنسان كتلة من الشذوذ والنجاسة. إنّه شيطان في ثوب رجل سياسة. إسمعي ماذا حدث منذ أسبوعين..

ـ ماذا حدث؟ سألت ذكريات بتوسّل غاضب. فقال:

ـ كان جيلبير مدعوًّا لغداء يوم الأحد عند المدّعي العامّ. وكنت أنا رفيقه في مغامرته تلك. كان الطعام «سمكة حَرّه» الأكلة التي يعشقها. وبعد الغداء لم يستطع هذا الرجل كبح جماح شهوته الجنسيّة

تجاه زوجة صاحب الدعوة المثيرة. فطلب منّي أن أجد طريقة لتنويم الزوج. فوضعت له حبوب الفاليوم في شرابه، فنام على الكنبة لساعات. وبينما كان جيلبير يضاجع الزوجة المصون فوق سريرها الزوجيّ، كنت أنا جالسًا أراقب الزوج المخدّر فوق الكنبة والتلفزيون في آنٍ معًا.

وكانت إمارات الغضب والاشمئزاز مرسومة على وجه ذكريات وهي تسمع كلام أيّوب.

لم تكن كلّ الروبوات ناجحة مع جيلبير! فهناك من شذّ عن القاعدة، وكان عصيًّا على طقوسه. ذكريات كانت حصانًا جموحًا لم يذعن بسرعة لترويضاته. واجتاحت كيانها كآبة لدرجة الانتحار. وعندما وقفت، في ليلة من ليالي اليأس والمرارة، فوق الصخرة الشاهقة لترمي بنفسها إلى الأمواج الصاخبة، رآها بالصدفة الحارس الليليّ، ووثب وراءَها وخطفها وجاءَ بها إلى مركز الشرطة. جلست على الكرسيّ تبكي بكاءَ الأطفال. بيد أنّ دمعاتها زادتها سحرًا وجاذبيّة. كان نصف فخذها الأيسر ظاهرًا. قطعة من المرمر الحنطيّ اللون. ودخل الضابط زياد، ودُهش بهذه الدمية الآدميّة المُغرية كنجمة من نجمات هوليوود. قال لها الضابط: «هل تودّين أن نتّصل بذويك ليأتوا، أم نوصلك نحن إلى البيت؟» ورفعت عينيها بدلال وغنج، غير مدركة ماذا تفعل، وسألته:

ـ هل تسمح وتوصلني أنت؟

ـ أوصلك أنا! وشدّ ما كانت المفاجأة كبيرة بالنسبة للضابط زياد.. تكرم هالعيون الحلوين. أنا تحت أمرك. تفضّلي.

وخرج الضابط زياد ليوصل ذكريات بسيّارته إلى شقّتها، أي الشقّة

التي اشتراها لها جيلبير.

قالت ذكريات لزياد بغنج وشبق:

ـ معك سيكارة؟ كان واضحًا للرجل زياد أنّ الفتاة غارقة في بلبلة نفسيّة. قال:

ـ أجل تفضّلي. وناولها سيكارة وأشعلها لها. فنفثت الدخان في الهواء، وصفا وجهُها بعد موجة البكاء، ومسحت عينيها وقالت:

ـ هل أنت متزوّج؟ وأجاب بنبرة أكثر ليونة ولطافة من لهجة ضابط شرطة. وبدأ الشيطان يذرّ أفكاره في رأسه. وكان متزوّجًا لكنّه قال لها:

ـ لا. أنا عازب. ومدّت راحتها إلى أعلى فخذه وقالت:

ـ تعال نمرح هذه الليلة في شقّتي. أنا أعيش لوحدي، وأحتاج لرجل. وشرعت تمرّر راحتها فوق صدره، ثم إلى عنقه فخدّه فأذنه. فخرج الرجل عن طوره ومدّ يمينه وشدّها إليه بقوّة وقال:

ـ قولي لي مين اللي زعّلك؟ مجنون هلّي وصّلك عالانتحار! أهو حبّ خائب؟ فأجابت:

ـ أكثر من حبّ.. حياة خائبة.

ثم كانت ليلة غراميّة صاخبة بينها وبين ضابط مركز الشرطة. الجنس عند المتألّمين مخدّر، وأحيانًا كثيرة، بلسم شافٍ. لم ينتظر زياد طلوع الصبح، وغادر بعد منتصف الليل غير ناظر إلى الوراء. فمهنته حفظ الأمن وها هو قد أعاد المرأة الضائعة إلى بيتها، وقدّمت له جسدَها كعربون شكر على ما عمِل، وكان لها من الشاكرين. ولم يلتقيا منذ تلك الليلة أبدًا. ولكنّها من ساعتها بدأت ترمي بنفسها إلى

الجنس.. تلجأ إليه عند موجات الكآبة.. كأنّه مبنى سفارة الوطن في أرض غريبة. وذات يوم كانت ذكريات قد وصلت لتوّها إلى شقّتها حوالى التاسعة مساءً، ورنّ جرس الباب وراءَها، وفتحت الباب، فإذا جيلبير بقامته المهيبة وابتسامته الساحرة:

ـ مساء الخير يا ذكريات. وردّت بضحكةٍ ساخرة:

ـ ذكريات أصبحت ذكريات عن حقٍّ وحقيق.

ـ هل تسمحين لي بالدخول؟

ـ البيت بيتك.. تفضّل. قالتها بسخرية مُرّة.

وما إن جلسا وجهًا لوجه، سحب جيلبير سيكارته، وكانت تتأمّله باشمئزاز. قال:

ـ لا أدري لماذا تدمّرين حياتك، وأمامك فرص رائعة للمال الكثير. وصمت. ثم نفث الدخان في الفضاء. وتابع:

ـ أنت جميلة موهوبة ومثيرة، ولديك جمهور يطلبك. وأنا جئت أعرض عليك فرصة المجد.

ـ المجد! ما هو المجد؟ أن أصبح لذّة السياسيّين في البلد؟

ـ هذا القاموس العتيق لم يعد صالحًا اليوم. الحياة غابة.. ولكن فيها فرص.. ومن الغباء تضييع الفرص.

ـ دمّرت حياتي وحياة أخي أيّوب.. تقتل القتيل وتمشي في جنازته يا شيطان؟!

ـ أنا دمّرت حياتك!! ماذا تقولين؟! المال بين أيديكما بحر وتقولين دمّرت حياتك! الحياة فنّ يا ذكريات ولم تتعلّمي بعد هذا الفنّ. المصطلحات العتيقة هي العائق الحقيقي عن تمتّعك بالحياة.

إسمعي.. الشغل يزدهر ويتوسّع.. ونحن بحاجة إليك وإلى مواهبك. حطّي عقلك براسك واعملي معنا.

ـ أيّها النذل. وعدتني بالزواج.. وها أنت الآن تريدني غانية موظّفة عندك.. ومغنّية أيضًا. كدت أصبح فنّانة لولا اقتحامك الخبيث لبراءَة أحلامي.

ـ بالنسبة لموضوع الزواج لا مانع عندي نتزوّج. ولكنّ العمل أولى.

وصرخت ذكريات في وجهه، وهجمت عليه فأمسكها بذراعيها وصرخ بها صرخة أرعبتها. فسكتت كجارية بين يدي مليكها:

ـ قفي يا ذكريات. حطّي عقلك براسك وفكّري بواقعيّة. لا وقت عندي للثرثرات. ستعملين عملاً محترمًا ذا مرتّب خيالي.

ولم يكن أمامها إلّا أن تخضع لطموحاته. وأطلقت بعد ذلك طيورَ أنوثتها في ليالي المرابع الماجنة الداعرة، كورثًا يردّد وراءَ إنشادِها أغاني اللذّة. ودخلت ذكريات مجتمع القادة من باب لذّاتهم، وهالها ما رأت. ورجل الشأن العامّ، كما دائمًا، خلّاق في الدبلوماسيّات والحضور الموقّر، ولكن وراءَ جدار الرياءِ هذا نتانة وعظامًا يابسة. ولجت ذكريات كهوف السياسة وبيدها قنديل الجنس. وتحوّل جسدها مع كثرة العشّاق، إلى آلة فاحصة، لا أكثر! تقيّم الأداء الجنسيّ بين رجل وآخر. وعندما يمرح مسؤول موقّر فوق جسدها الخصب، فهو يشبه خروفًا وديعًا ضالًا في مروج مفاتنها الرحبة. وعندما تنطفئ أضواء المدينة وتختبئ الحياة في أجحارها، وحياة الظلمة لها وجود وحركة وديناميّة تبزّ حياة الضوء وجودًا، يسرح القاضي والسفير والمدير العامّ والمهندس والكولونيل والقائمقام

والزعيم والضابط مع حشرات وطيور الليل إلى أوكار المُتع الشرهة. ذُهلت ذكريات من الشذوذ المستشري بين أشخاص مرموقين. فالمحاضرون عن العفّة هم قوّادو الزانيات! وكان للكثير منهم هوايات جنسيّة غريبة. يعشق بعضهم النكتة الجنسيّة الخارجة من فم العاهرة، وكانت ذكريات ماهرة في سرد هذه النكت التي كان يحضّرها لها أخوها أيّوب. والبعض الآخر كان يهوى أن تتغزّلَ المرأة بذكرِهِ أثناءَ الجماع. والحقيقة المُرّة أنّ جميع أنواع المفاسد كانت موجودة هناك.. على رفوف الهيبة والاحترام.. بعيدًا عن جهالة الأيدي الضعيفة. فالفساد على الرفوف مختبئ في بطون الكتب والملفّات، وفي الشارع ظاهر لكلّ عين.

وكان هناك موعد مع أحد القضاة في مكتبه الكبير في المدينة. ويتألّف هذا المكتب من غرفات فسيحة. فطلب جيلبير من ذكريات وجُهَينة الذهاب إليه، فأحضرهما أحد سائقيه الشباب في ساعة متأخّرة من الليل. وصلتا وجلستا في البهو، وكان ردهة فسيحة بديكورات حديثة مدهشة. والمكتبة تعجّ بكتب ومجلّدات القانون بأغلفتها المذهّبة، والحِكم القانونيّة تزيّن الجُدُر، والكنبات الجلديّة الوثيرة في كلّ مكان. الجدران ذات ألوان داكنة، وكلّ غرفة بلون. والمكان مكيّف مريح عمومًا. وهناك غرفة، ليست مكتبًا، تبدو كأنّها ليست للعمل! هناك بار وخزانة مشروب وثلّاجة، وشرفة واسعة مشرفة على البحر ولا أبنية في مقابلها، وترى خنافسُ الصيد من بعيد في البحر كأنّها النجوم. وثمّة جهازُ موسيقى مع مكبّراتِه. وعندما استقبلهما القاضي بنفسه في تلكَ الساعة المتأخّرة، قادهما مباشرة إلى هذه الغرفة. كان هناك قنّينة بالانتاينز فاخرة، على المنضدة الزجاجيّة، وصحون المازة. جلستا، وقال:

ـ بعد قليل سيأتي الطعام (ديليفري)، ماذا تشربان. . الشمبانيا أم جوني واكر؟ فأجابت جُهَينة:

ـ لا بأس نشرب من هذه. وأشارت بيدها إلى الشامبانيا الموضوعة على المنضدة.

ثم فجأة رنّ الجرس. وخرج القاضي إلى الفتى ونقده المال مع البقشيش، وقال له:

ـ ضع هذه هنا على الطاولة. ووضع الفتى حمولته ونزل ليأتي بالباقي وامتلأت الطاولة. ثم أغلق القاضي الباب ونسي إقفاله وراءَه والتهى بالطعام. القريدس والفيليه والمشاوي وأنواع السلطات والبطاطا والفواكه. ثم راح يحمل الطعام إلى غرفة الغرام، فنهضت ذكريات وساعدته على نقل الحمولة. وسألته:

ـ هل أنت متزوّج؟ وأجابها:

ـ لماذا هذا السؤال؟ ألديك شروط على من تضاجعينه؟

ـ لا . . مجرّد سؤال.

ـ أجل متزوّج ولديّ بنت وصبيّ. وسألت أيضًا:

ـ وزوجتك. . أتخونك هي أيضًا؟

ـ أوه! هل أنتِ عاهرة أم مرشدة اجتماعيّة؟ ساعديني على تحضير الطعام. بالمناسبة ما اسمكما؟

ـ أنا ذكريات وهي جُهَينة.

ـ هل أنتما متزوّجتان. . ويخونكما زوجاكما؟ قالها بنغمة دعابة، وضحكت ذكريات:

ـ دمّك خفيف.

وكان القاضي صغير السنّ، لم يتجاوز الخامسة والأربعين، ذا بنية جسديّة جذّابة وبشرة شقراء بعض الشيء، والعطر الرجوليّ الجذّاب سابح في رحاب المكتب. كان واضحًا أنّ هذا القاضي يعيش شبابه كما ينبغي. وعندما وضع الكأسين وسكب الشامبانيا قال لهما:

ـ ها أنا أعيش شبابي يا ذكريات.. وزوجتي هي الأخرى تعيش شبابها. وأظهرت هي الدهشة في شقلة حاجبيها، وسألت، لكي تصطنع حديثًا لا أكثر:

ـ أنت قاضٍ وشابّ وسيم، لماذا تخونك زوجتك؟ فأجاب بكلّ بساطة:

ـ زواجنا لم يكن حبًّا البتّة. بل صفقة.. وصفقة العمر بالنسبة لي. هي مطلّقة من مهندس، وأبوها كبير قضاة، فسهّل لي وظيفتي بسرعة مقابل الزواج بها. وسبب طلاقها من زوجها السابق أنّها تعشق الرّجال. فاتّفقنا أنا وهي على أن تبقى هي على مغامراتها وأنا على كازانوفيّاتي، والصفقة إلى الآن ناجحة.

ـ والبيت والأولاد؟! سألت أيضًا.

ـ خير الله بحر. لا خوف على أسرة ذات مدخول ماليّ حرزان. قالت ذكريات:

ـ أنتم قدوة للناس يا حضرة القاضي... وقاطعها بحزم:

ـ ما هذا! عاهرة تعطيني دروسًا في الأخلاق. أنا دفعت لك المال لكي أبتهج لا لكي تلقي عليّ المواعظ.

ثم دخل إلى حمّام الغرفة وخلع عنه ملابسه بالكامل، كما خلقتني يا الله. وخرج إليهما. ورأتا الانتصابَ القويّ.

ـ هل أخذت الحبّة الزرقاء؟ سألت جُهَينة. وأجاب بافتخار:

ـ الحبّة الزرقاء للمريضين والعجزة.

ثم أتى بالبيرة وبقيّة المازة، وأدار فيلمًا إباحيًّا، وجلست ذكريات عن يمينه وجُهَينة عن يساره. قالت جُهينة:

ـ إيّاك والأمور المقرفه!

ـ لا. ليس لهذِه الدَّرَجَة.

ـ هل نتعرّى نحن أيضًا؟ سألت جُهينَة.

ـ لن يأتيَ دوركما قبل انتهاء الفيلم. دعونا الآن نتمتّع بالإيروتيك، وإبداعات الفنّ الجنسيّ.

ـ قد تقذف أثناء الفيلم وأنت بهذه الحالة من الهياج؟ قالت ذكريات.

ـ أنا شباب دائم، وقوّة لا تخبو يا صديقتي. أجاب بكلّ زهو ومكابرة.

ومرقَ الوقت والثلاثة يشاهدون الفيلم، يتسامرون ويتناولون المازة والطعام. والنكتة الإباحيّة هي المازة الحقيقيّة والجوهريّة في هذه الجلسة الخلاعيّة الماجنة.

ـ قولي إنَّ ذكري كبير. همس القاضي في أذن جليسته اليمنى ذكريات. وأجابت:

ـ أنت ثور جميل. هل سمعت آخر نكتة؟ فقال:

ـ هيّا إرويها لي بسرعة. فقالت ذكريات:

ـ رجل ذهب إلى الصيدليّة، وقال للصيدلي: «أريد حبّة ڤياغرا

بسرعة». فأجاب الصيدلي: «حسنًا.. لا بأس. خذ هذه حبّة وادْعُ لي بها». وغاب الرجل ساعة من الزمان ثم عاد إلى الصيدلي، وقال له: «خذ هذه حبّتك أيّها الصيدليّ لم أعد بحاجة إليها». وسأل الصيدلي مستغربًا: «لماذا هل هي سيّئة؟» أجاب الرجل: «لا. ولكنّ زوجتي أعطتكَ عمرَها». فقال الصيدلي عندئذٍ: «خذها لن تخسر شيئًا.. على الأقلّ يقفُ مَعَك في العزاء». وانفجر الجميع في الضحك.

ـ حلوه.. حلوه كتير! هل جئتِ بهذه من البرامج الفكاهيّة التلفزيونيّة؟ سأل القاضي وهو لا زال يضحك.

وفجأة يرنّ هاتف القاضي الثابت وليس الخليوي. واستشعرت العاهرتان ارتباك ملامحه. وتمتم:

ـ ما هذا؟! من يعرف أنّي لا زلت في المكتب؟! الله يستر. لن أردّ.

ومرّ وقت أيضًا، ثم رنّ الهاتف ثانية. وأيضًا لم يردّ القاضي. ثم بعد نصف ساعة، وقام في المرّة الثالثة ليردّ متأفّفًا:

ـ آلو. من هناك؟ وأجاب الصوت على الطرف الآخر:

ـ أنا مصباح يا حضرة القاضي.

ـ مصباح! وما أدراك أنّي في المكتب؟

ـ زوجتك المصون هي التي قالت لي هذا.

ـ زوجتي! أين؟

ـ إنّها هنا معي في حالة من النشوة..

ـ وماذا تريد منّي يا ابنَ القحبة؟ وكان هذا الاتّصال والاقتحام المفاجئ من تخطيط الزوجة ومصباح معًا لمهاجمة القاضي في الجرم

المشهود. وسمع القاضي صوتَ باب مدخل المكتب يُغلق، ووقعَ قدمَين خافت يتّجه إلى الغرفة حيث هو مع عاهرتيه. ذُعرَ الرجل وأغلق الهاتف ومدّ رأسه من الباب، فاصطدم وجهه بوجه زوجته في أوّل الممشى، فكانت الطامّة الكبرى! وبسرعة أطفأ الأضواء فبقيَت الغرفة مُضاءَة من شاشة التلفزيون، فشدّت ذكريات يدَ جُهينه ووثبتا إلى الشرفة المعتمة، وقالت لها:

ـ هيّا ننفر بجلدنا قبلَ أن تصيبنا رصاصة طائشة من المعركة.

وأمّا الزوجته فطحَشَت إلى الغرفة ورأته عاريًا. وقالت:

ـ أين هي عاهرتك يا كازانوڤا عصرك؟ لم تكن تضاجع الهواء.. أخرجي يا بنت الشر... وشرعت الزوجة تنعت زوجها بأبشع الألفاظ والنعوت، وحدث شجار عاصف بين الاثنين. وفي حركة عصبيّة من الزوج أمسك اللمبادير وخبطه أرضًا أمام زوجته. وأمّا ذكريات وجُهينَة فقد خرجتا من الغرفة المُجاورَة في تلك الليلة الباردة. ونزلتا بواسطة المصعد الكهربائي. قالت ذكريات بدهشة:

ـ لقد قال إنّ زوجته تخونه هي الأخرى، وهو متّفق معها على الخيانة المتبادلة.

ـ هه.. يبدو أنّ الغيرة دهمتها أخيرًا، واستيقظ الضمير، فجاءَت تحاول إصلاح ذات البين.

ـ لا، فكلمات الشجار بينهما تظهر أنّ هناك مشكلة مستجدّة بين الاثنين. إنّه فصل آخر من فصول تراجيديا الخيانة.

ـ الطقس بارد. ماذا سنعمل في آخر الليل هذا؟ سألت جُهَينة وهي تتلحّف بسترتها الصوفيّة.

ـ إتّصلي بروميو. . هيّا.

ـ حسنًا. أجابت جُهَينة. واتّصلت به.

وراحتا تمشيان على الطريق تحت الأشجار المرتعشة، بين السيّارات المركونة وأسوار الحديقة.

* * *

١٠

في السياسة، إذا أردتَ خُطبًا عليكَ برجُل،
وإذا أردتَ أفعالاً فعليك بامرأة.

مارغريت تاتشر

ـ أنا لا أفهم شيئًا. من أنتما؟ ولماذا فعلتما هذا؟

سأل جيلبير مخاطبًا الرجلين من العشرة، اللذين خطفاه من أمام منزله في تلك الليلة العصيبة، ليلة التنقيب هو وأيّوب عن الكنز المزعوم. كان يقود هو سيّارته، عن يمينه رجل، وفي المقعد الخلفيّ رفيقه. وأجاب الجالس عن يمينه باقتضاب:

ـ لم نزوَّد بتفاصيل لنعطيك إيّاها، مهمّتنا إنقاذك فقط.

ـ إلى أين نحن ذاهبون؟ سأل أيضًا.

ـ عند كلّ مفرق أخبرك عن الاتّجاه.

وظنّ جيلبير أنّهم ذاهبون إلى أحياء الضواحي الشرقيّة، ولكن

سرعان ما اكتشف أنّهم يدخلون إلى حيٍّ راقٍ في قلب المدينة. بعد ربع ساعة اقتربوا من البناء المقصود. قال جيلبير في دهشة كبيرة:

ـ ما هذا؟! السيّد ح. ص. يسكن في هذه البناية!

ـ كان هذا منذ سنوات.. قبل خلافه مع زوجته.

ـ ومَن يسكن الشقّة الآن؟ سأل جيلبير مندهشًا.

ـ السيّدة لميس زوجته، ونحن ننفّذ أوامرها.

ـ الآن فهمت الحكاية! عدوّ عدوّي صديقي. قال بنبرة خبيثة. فارتاحت أعصابه وتنفّس الصعداء.

تقاطع مصالح: مصلحة السيّدة لميس ومصلحة جيلبير عزوري. يا لغرابة الأقدار! ثم قال للرجلين معه بزَهو وخيَلاء:

ـ أنا شيطان أيّها السادة.. شيطان وتحرسني الملائكة.

ـ لا تبالغ في تفاؤلك يا هذا.. أنت لا تعرف السيّدة لميس جيّدًا.

ودخل الثلاثة بالسيّارة في أسفل البناء، وركنوها في مكان بعيد عن الشارع، وصعد الجميع في المصعد الآليّ إلى الطبقة الثامنة، فإذا هم في قلب شقّة سوبر دولوكس، رياش فاخر ثمين يساوي الملايين. ورأى جيلبير السيّدة لميس في البهو الفسيح، جالسة قبالة التلفاز بثوبها الأزرق الشفّاف، ينفذ منه النظر إلى جغرافيا مغرية، والعطر المثير يعبق في فضاء المكان. شعرها قصير نصف شائب، وهي لا زالت على كثير من السحر والجاذبيّة. أمامها منفضة سكائر وبيدها واحدة دقيقة طويلة. كان التوتّر باديًا في نظراتها المترقّبة. رأت الثلاثة عند مدخل البهو، فوقفت، وسحبت كيسًا ورقيًّا منتفخًا من خزانة الكتب، وأعطته

للرجلين، وقالت:

ـ خذا أنتما هذه المكافأة. وتواريا عن الأنظار حتى إشعار آخر.

فأخذ واحدهما الكيس منها وقال:

ـ أمرك سيّدتي. وخرجا.

ـ تفضّل سيّد جيلبير. أنت مُجهَد كثيرًا، وملوّث. هل تأخذ دوشًا؟ لا نستطيع الكلام وأنت هكذا.

ـ لن أقضي الليل بطوله في ضيافتك سيّدة لميس، سأبقى واقفًا. ولا أحبّ المقدّمات، ما هي حكايتك؟ ومشت لميس إلى طاولة المشروب، وسألت:

ـ شمبانيا أم ويسكي؟

ـ بصراحة.. أفضّل القهوة.

ـ حلوة أو مرّة؟ وذهبت إلى المطبخ لدقائق لتأتي باثنين إسبريسّو.

ـ مُرّة. أجاب.

ـ مرّة كهذه الأيّام. وأضافت:

ـ إجلس على هذا الكرسيّ هناك، وضع فنجانك على المنضدة. فنفّذَ كلامها. وسألته:

ـ هل تعرف أنّي و ح. ص. على خلاف منذ سنوات؟

ـ عرفت هذا للتوّ. وبدأ يشرب قهوته.

ـ أنا أعرف جيّدًا سبب خلافِكَ معه.. لقد ضحِكتَ على أختِهِ ولطشتَ المصنع! ولكنّي لا أعرف ماذا يدبّر لك. مشاريعه سرِّيّة.. خصوصًا عنّي.

ـ المصنع والخارطة أيضًا.

ـ أيّ خارطة؟ سألت.

ـ ألا تعرفين شيئًا عن خارطة الكنز؟

ـ هذه من أسرار زوجي أيضًا.

ـ ولكن كيف حظيتِ بي في هذا الليل؟ سأل بإلحاح.

ـ لديّ بين رجاله من يخونه لحسابي. تصلني بعض تحرّكاته المعلنة للرجال. وقد عرفت أنّه يطاردك في هذه الليلة، فانتهزتُها فرصة لإنقاذك، ولأستفيد من خبراتك الباهرة في اصطياد المستحيلات.

ـ كيف أثق بكِ؟ سأل جيلبير مظهرًا الحذر.

ـ الجميع يعرف أنّي على خلاف معه. زوجي لا يحبّني وهو يخونني مع النساء. لا يهمّني هذا.

ـ ما الذي يهمّك؟

ـ تهمّني ثروته.

ـ أوووه.. أنتِ تلعبين بالأرقام الصعبة.. هذه مغامرة.

ـ وأنت مغامر شجاع.. ومتألّق.

ـ وما المطلوب منّي بالضبط؟

ـ سيكارة؟ وأعطته واحدة فأشعلها. قالت:

ـ في علمي لديك فريق من الحوريّات الذكيّات، وهنّ يأتين بها من فم السبع. لـ ح. ص. ابنة من زوجته الأولى، وابني أنا من زوجي الأوّل. وأنا.. بصراحة.. خائفة أن تذهب الثروة بكاملها للفتاة وحدها. هذا وارد لأنّ ح. ص. لا يحبّني فكيف يحبّ ابني. أنت

تحتاج لهذه التفاصيل لتفهم مهمّتك جيّدًا. صمتت قليلاً، ثم أضافت:

ـ لا أريد ثروته بكاملها.. النصف! وأريد أن تبدو الأمور قانونيّة.. من «الناحية التشريحيّة».

ـ ما هذه القضيّة المستحيلة؟ هل أنا ساحر؟! هل تريدين أن يوقّع زوجك أيضًا على تنازل عن ثروته لابنك بكلّ هدوء؟ أليس كذلك؟

ـ بالضبط هذا ما أريده. قالت، وهزّ هو رأسه ساخرًا:

ـ هه.. ههه! كنت أمزح.. وها أنت تريدينها هكذا.

ـ المرأة قادرة على كلّ شيء. أليس كذلك يا جيلبير؟ نساؤك يستطعن تحويل الذئاب إلى حملان وديعة في رياض مفاتنهنّ. إبني عنده حساب آخر تحت اسم مستعار في سويسرا.. سيتمّ تحويل الأموال فورًا إلى هذا الحساب. وأمّا الشركة والمصنعين فقد رتّبت من يشتريهما، وسنحوّل المال إلى سويسرا أيضًا، ونترك البلد أنا وولدي بسرعة. ما عليك إلّا إلهاء ح. ص. ثلاثة أيّام مع نسائك الساحرات، فأنهي أنا الأوراق لدى أصدقائي المحامين بسرعة. المطلوب عطلة نقاهة وعربدة ونحصل على التوقيعات المطلوبة من ح. ص. تحت تأثير لذّاته، ونجري صفقات البيع في ثلاثة أيّام فقط.. وإلّا فشل المشروع، وهنا الطامّة الكبرى! وانتقام ح. ص. سيكون رهيبًا.

ـ لقد اتّضحت الصورة الآن بالكامل. لديكِ خطّة جاهزة. ومحاموه؟ أيبقون مكتوفي الأيدي؟

ـ لا. سأعطي محاميه مليون دولارًا، ويدبّر راسو مع سيّده.

ـ يا لغرابة الأقدار! ما يصعّب المسألة أنّ السيّد ح. ص. يطلب رأسي هو الآخر.

ـ هذه هي المهمّة، وقد تكون صفقة العمر بالنسبة لك! ولن نختلف في هذا الموضوع.

ـ صفقة بهذا الحجم المخيف تستحقّ عمولة على قدّها. لن أفعل أيّ شيء قبل أن أقبض الثمن سلفًا.

ـ لك ما تريد. موافقة. سأتّصل بك في الوقت المناسب. جئتَ بسيّارتك وتستطيع الرحيل الآن. ومدّت السيّدة لميس يدها لتصافحه، وقالت:

ـ تسرّني معرفتك سيّد جيلبير عزوري. جميل أن نتعارف في صفقة مشوّقة كهذه. وصافحها هو الآخر، وخرج. وفي طريقه كان يفكّر في كلّ ما حدث له الليلة: هو وأيّوب والتنقيب الخائب، اللفافة والخواتم والساعة الذهبيّة والسيفان، خطفهما على يد رجال السيّد ح .ص.، سعي السيّد ح. ص. للخارطة، مشروع السيّدة لميس، ووضع أيّوب الآن في ضيافة ح. ص؟ ساءَل نفسه. لا بدّ أنّه يبوح بأشياءَ هامّة للسيّد ح. ص. تحت ضغط التعذيب، من يدري؟ وفكّر في أن يبدأ بسرعة ويضرب عصفورين بحجر واحد: إنقاذ أيّوب، والمضيّ في مشروع لميس.

وفي مقلبٍ آخر من المدينة كانت طبخة جهنّميّة أخرى تُحَضّر على نار خفيفة، بين السيّد ح. ص. وأيّوب! والرجلان لديهما الأسباب والدوافع ضدّ جيلبير. لقد وضع أيّوب كلّ ما لديه من معلومات ووثائق وأشرطة وأفلام وصور تحت تصرّف السيّد ح. ص. غير آبهٍ للشخصيّات والنساء الموجودة في الصور، وهم من الوجوه البارزة في المجتمع، فهذه الحسابات تسقط في لحظة الثورة الانتقاميّة الكبرى. حياته وحياة أخته ذكريات أثمن بكثير من كلّ هذه التهريجات الريائيّة

الماكرة. قال أيّوب للسيّد ح. ص:

ـ هذا هو كنزي. أريد الانتقام من جيلبير. سنبيع شقّتينا أنا وأختي ونرحل، ولن أنظر إلى الوراء أبدًا.

ـ إلى كمّ يرجع تاريخ هذه الوثائق؟ سأل السيّد ح. ص. وهو رجل بدين الجثّة ذو عينين فاتحتين وخدّين أحمرين:

ـ لقد بدأت أجمعها من عام ٢٠٠٠ وهي موثّقة بتاريخها ومكانها. وراح يعدّد أيّوب الشّخصيّات الواردة في هذه الوثائق. ثم قال ح. ص.:

ـ هناك شخصيّات لا نريد لها الأذى. سنحذف كلّ من تهمّنا سلامته.

ـ ولكن.. ماذا يجول في رأسك بشأن كلّ هذا؟ سأل أيّوب.

ـ إسمع. سيكون لديك خمسة أشهر لتأليف كتاب تحت اسم مستعار تؤرّخ فيه لحياتك مع جيلبير، وتضع فيه الوثائق والصور التي أقول لك عنها من هذه. اسم مؤلّف الكتاب سيكون غريبًا مجهولاً، وكذلك دار النشر والمطبعة. لن يعرف أحد مصدر هذا الكتاب. فقال أيّوب مستهجنًا:

ـ هذا لا يخيف جيلبير! قد يستعمل هذا الكتاب كمادّة إعلاميّة لشهرته. وقد يردّ بمؤتمر صحافيّ أو بكتاب آخر.

ـ هذا الكتاب وحده لا يفي بالغرض. ولكن إلى جانب كمين محكم يرمي به في بؤرة التورّط مع عملاء وإرهابيّين.. ستكون الضربة القاضية. وسيذكر التاريخ جيلبير عزوري كخائن وطنيّ كبير.

ـ أنا طوع بنانك. ولكنّي أحتاج لحمايتِك لحين تركي البلد.

ـ إطمئنّ يا أيّوب. ستكون خاتمة الرواية الجيلبيريّة كما يشتهي قلبك. ويبتسم ح. ص. ابتسامة ساخرة.

* * *

كانت مهمّة ذكريات في تلك الليلة المقمرة عند المقدّم شكيب أبي نادر. زوّدها جيلبير بالعنوان ومواصفات الزبون، ومكانته، وأذواقه، والمصلحة معه. وخبّرها أيضًا أنّ المقدّم قويّ البنية النفسيّة، بحيث بقي حسن الأداء في عمله رغم فقدانه لولده الوحيد لفتاة في جريمة مروّعة. كان فتاه مثليًّا، ورفقته هي الأخرى من المثليّين يمارسون اللواط في بيت أبيه. وتورّط الفتى معهم في المخدّرات أيضًا. وذات يوم قام الأصدقاء على صديقهم ابن المقدّم، بعد أن فعلوا الفحشاء معه، قتلوه وسرقوا من المنزل ما خفّ حمله وزاد ثمنه. وكادت أن تكون فضيحة تاريخيّة! لولا تدخّل الوزير بنفسه فلملمَ الموضوع، وظهّرَه كأنّه سطو مسلّح، فقُتِل الولد دفاعًا عن النفس. لمْ تدرِ ذكريات أنّ هذا الزبون سوف يوجّه حياتها في اتّجاه أرفع شأنًا، وبما لا يُقاس، من مجرّد «عاهرة مثاليّة» تعمل في «القطاع الخاصّ». المرحلة الآن سوف تدخلها إلى «القطاع العامّ» ومن الباب العريض! المهنة هنا شريفة ولو كانت في ثوب عاهرة، والغاية تبرّر الوسيلة. منزل المقدّم شكيب في حيّ بعيد عن المدينة. في شقّة فاخرة في ضواحي السفوح الشرقيّة، حيث الأعين عملة نادرة والتواري أكثر سيولة. وضابط الأمن خبير في لعبة «الحركة الزئبقيّة» أو لعبة تغيير اللون مع المحيط كما تفعل الحرباية. وهذه من ضرورات المهنة بل هي جوهرها. فالوصول إلى أوكار النجاسة لا بدّ من تعويذة تحيل الأجساد أشباحًا خارقة للجدران والأبواب المغلقة. لعبة التخفّي والترصّد والمراقبة تشبه إلى حدٍّ بعيد الجهاز العصبيّ في الجسد.

فوظيفة الجهاز العصبيّ ترصُدُ الألم والخلل في أيّ عضو، وإيصال المعلومات عنه إلى المخّ أي المركز المعلوماتي الكبير. وهكذا الأجهزة المخابراتيّة إن هي إلّا خلايا عصبيّة تترصّد «الأورام الشاذّة والاضطرابات والوعكات» في المجتمع، وتأتي بالمعلومات لكي يستفيد منها المُعالج، أي القضاء والسلطة الإجرائيّة في البلد. والذي يطارد الأشباح يعرف كيف يكون شبحًا، والذي يسابق الغزلان يملك سرعتها. ورجل المخابرات لديه لذّاته وابتهاجاته هو الآخر! تمامًا كرجل السياسة والشأن العامّ. فهل القادة أكثر شهوة من عامّة البشر؟ هل الذكاء المتّقد ترافقه شهوة جنسيّة متوهّجة؟ ويسأل آخرون لماذا كثرة الفضائح الجنسيّة بين الساسة والقادة؟ الجواب بسيط.. وهو أنّ القادة يستطيعون الحصول على أطباق خاصّة مميّزة من البهجات النسائيّة لا تتوفّر للنفر العادي، لأنّهم قادرون على الشراء. والجائع الذي يأكل الفاصوليا يتلذّذ، ولكن ليس كالذي يأكل القريدس، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى أنّ النساء هنّ نقطة الضعف الأقوى، ونقطة القوّة الأضعف، في كلّ الميادين والساحات. وفي حالة الحرب يهجم المحارب على عدوّه بقوّةٍ في نقطة ضعفه. من هنا كانت الساحة الجنسيّة في التاريخ غنيّة بالجاسوسيّة والخداع والمؤامرات وسقوط أو قيام أنظمة وحكّام. المقدّم شكيب خبّأ ملذّاته بعيدًا جدًّا عن ثعالب المراقبة. لا زوجته وابنته ولا أصدقاؤه ولا زملاء العمل يعرفون مخبأ صندوقة هذه الملذّات. كان شكيب حريصًا كلّ الحرص على التلذّذ بعيدًا عن هالته الاجتماعيّة، خوفًا من تلطيخ هذا الثوب المظاهريّ، الذي ظلّ يحيك وينسج فيه سنوات طوال. شقّته بعيدة عن المدينة لجهة الشرق. وبحكم وظيفته يستطيع إيجاد العذر للتخفّي: «مهمّة خاصّة» وفي أحيان كثيرة تكون هذه «المهمّة الخاصّة» لذّة من نوع

شديد الخصوصيّة. أهذه نعمة إلٰهيّة أم هي معصية بشريّة؟ أن يكون لبعض الناس قدرٌ طافح جدًّا من متع هذه الدنيا الفانية. سليمان الحكيم كان له ألف زوجة وجارية، وقال في نهاية المطاف: «الكلّ باطل وقبض الريح»[1]. وفي الاستشهاد بالكتاب المقدّس نصادف أيضًا القادة التاريخيين الكبار الذين كانت لهم خِزانات بهجة ولذّات بعيدًا عن أعين الفضوليّة السبعة. فداوود النبيّ الملك كانت له نزواته المارقة هو الآخر، وقد كلّفته غاليًا جدًّا، ولم يسأل عن حجم الفاتورة المخيف! لقد أرسل جيشه إلى الحرب[2] بقيادة يوآب، ثم قام عن سريره وراح يتمشّى على سطح منزله.. وهنا وقع في الفخّ! حيث رأى المرأة الجميلة العارية بشَبَع تستحمّ. قرب النهر.. تحت شجرة.. في بيتها رآها من النافذة.. في حمّام القصر.. في حمّام عامّ.. الله يعلم. واتّقدت شهوة الملك المحبوب من الله. وهذه المرأة هي زوجة أحد قادة جيشه! فأمر بوضع هذا القائد في خطوط المعركة الأماميّة، ثم الرجوع من ورائه لكي يُضرب ويموت. وهكذا كان. وقتل القائد في المعركة، واستطاع الملك داود أن يحصل على هذه المرأة المستحمّة ويتمتّع بها، لقد صارت زوجته فيما بعد. ولكنّ الله أمات ابنه منها تأديبًا له. في أيّامنا هذه لا يتطلّب الأمر كلّ هذه المشقّة للحصول على امرأة عارية تستحمّ. فلو كان داوود والمرأة وزوجها القائد في أيّامنا هذه لحصلت الخيانة ويبقى الزوج زوجًا للمرأة.. ولا يموت.. ولا معركة طاحنة.. ولا من يحزنون.. ولا ضرورة البتّة لهذه الطبخة الحلوة / المُرّة التي طبخها الملك النبيّ داوود من أساسها.

---

(١) سفر الجامعة ٢: ١٧.

(٢) سفر صموئيل الثاني الإصحاح الحادي عشر.

انطلقت ذكريات بسيّارة جيب شيروكيه إلى العنوان الذي زُوّدت به. كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً. عند مفرق الأوتوستراد كان رجل ينتظرها قرب سيّارته. أشار بيده ليوقفها فتوقّفت. واقترب منها وقال:

ـ ستلحقين بي وتركنين سيّارتك في المخزن، ثم نتابع الرحلة بسيّارتي.

فقاد أمامها وسارت وراءه.. وانتهى بهما المطاف في آخر البلدة في مكان منعزل قرب صخور الشاطئ. كان هناك ڤيلّا من طبقتين. فدخلت بسيّارتها وركنتها في المستودع، ثم صعدت إلى جانب الرجل وانطلق بها نحو الجبل. وشدّ ما كانت دهشتها! عندما نزع شاربيه الاصطناعيّين والبيروك الجلديّة التي كانت تخفي شعره الرماديّ الغضّ. وقال:

ـ المقدّم شكيب أبي نادر. ومدّ يده مصافحًا.

ـ أوه.. هذا أنت! هذه لم يخبرني بها جيلبير.

ـ هذه لن يخبرك بها أحد. إنّها الوحيدة لا قبلها ولا بعدها. وفي كلّ مرّة سوف نلتقي بها سيكون هناك سيناريو مختلف. هذا من دواعي الحيطة والحذر.

ـ الخوف والحذر لا يجعلان السكس طيّبًا. كيف تستمتع وأنت حذِر هكذا؟ سألت سؤالاً شبه فلسفيّ ولا تدري كيف عَنَّ لها.

ـ لا. بالعكس! هذه الاحتياطات المتجدّدة تجعل البال أكثر اطمئنانًا.

وسار مسافة ثلث ساعة إلى مكان منعزل في باطن الجبل، حيث بناية من ثلاث طبقات. ركن السيّارة في المرأب. هبطا السلّم إلى

الطبقة السفليّة، وانحنى ليأخذ المفتاح من تحت «الدعسة»، وفتح الباب وأضاءَ الأنوار، فإذا هي شقّة فاخرة رحبة بديكوراتها ورياشها الثمين. وفي وسط الردهة طاولة خشبيّة كأنّها مخصّصة للاجتماعات. قال شكيب لذكريات:

ـ هذا وكر ملذّاتي. شقّة كبيرة بثلاث غرف مريحة وثلاثة حمّامات دولوكس. خذي دوشًا ساخنًا وأنا أعدّ شيئًا خفيفًا نتناوله كڤيتامين طاقة. فسألته مندهشة:

ـ ألن تنضمّ إليّ؟ فأجاب:

ـ لا.. فالأشباح لا يستعجلون اللذّة، لأنّهم كائنات شفّافة. ولذّاتهم على قدر كبير من الرومنسيّة. المقبّلات هي سرّ الطبق الشهيّ.

ـ ما هذا؟ لديك فلسفة في اللذّة.

واقترب من نظام الصوت، وأدار الموسيقى:

ـ ستسمعين الموسيقى وأنت في الحمّام. هيّا اخلعي عنك سترتك، وهذه المساحيق والسكربينة وادخلي إلى الحمّام. وسأضع أنا لك ما ترتدين عند باب الحمّام. فقالت:

ـ تعاملني كعروس في «الليلة الأولى». حقًّا لكلّ رجل مزاج يختلف عن سواه!

ـ أعتقد أنّ الرجل الذي لا يملك مزاجًا في الجنس لا يقدر أن يحرّك مزاج شريكته. الجنس أيضًا نكهة وأريحيّة.

وانفجرت ذكريات بالضحك. ثم دخلت إلى الحمّام وسمعت الموسيقى في الحمّام. النظام الصوتي في الشقّة ممتدّ لكلّ غرفة، وفي كلّ جدار مكبّر صوت. ثم سمعت شكيب يقول لها:

ـ ملابسك هنا عند الباب. فقالت في سرّها: «غريب أمر هذا الإنسان. ماذا يدور في رأسه؟».

وعندما أنهت دوشها فتحت الباب ورأت على الكرسيّ لباسًا داخليًّا وقميصًا وجاكيت مع بنطلون رياضيّين وحذاءً رياضيًّا. فزادت دهشتها وحيرتها: «هل سألعب مباراة تنس أم أضاجع رجلاً؟».

خرجت وارتدت اللباس الموضوع على الكرسيّ، وجاءَت إلى المطبخ.

ـ «نعيمًا» قال لها.

ثم تناولا مازة خفيفة، وتناوشا في الكلام بعض الوقت. قالت له:

ـ أنت تحبّ أن تحصل على المتعة ببطءٍ شديد. وهذا يناسب جدًّا المرأة.

ـ أتعرفين ما قاله سعيد عقل؟

ـ وتهتمّ بالشعر أيضًا! ماذا قال؟

ـ «لا تقربي منّي وظلّي فكرةً لِغدي جميله». الوصال يُنهي الشوق، ومرحلة الشوق الطويل أجمل بكثير من الذروة.

ـ ما أعجَبَك من رجل! أنت فيلسوف ماجن.

ـ إسمعي. سنلعب بعد قليل لعبة تعلّمتها بين قبائل «الزولوي» في وسط أفريقيا لمّا خدمت هناك سنتين. واسم هذه اللعبة «غواماديرا» أي البَهجة المتدرّجة.

وسحب علبة كرتونيّة ظاهرها كأنّها ورق «الشدّة». . وعندما أخرج الأوراق من العلبة، رأت ذكريات رسومات إيروتيكيّة ورموزًا أفريقيّة.

قال لها إنّ هذه اللعبة فولكلور كان يمارس قديمًا على قطع نحاسيّة، ثم تحوّلت فيما بعد إلى قطع خشبيّة ثم كرتونيّة. وراح يعلّمها لعبة بسيطة ترتكز على رهان معيّن لورقة ما ورمز ما، فإمّا يربح المراهن رهانَه أو يخسر. ولكنّ الخاسر يخلع عنه قطعة ثياب واحدة من لباسه. وكلّ واحد في دوره. والذي تنكشف عورته ويتعرّى أوّلاً هو خاسر الجولة. هذه اللعبة مستوحات من تقليد شعبيّ، لدى قبائل «الزولوي»، يمارس في ليلة الزفاف، والغاية منه تشجيع العروس على التعرّي لزوجها في الليلة الأولى بعد العرس. والذي تنكشف عورته أوّلاً يحلقها له الطرف الآخر. هذه قواعد اللعبة.

ـ هيّا إنّي متحمّسة لهذه اللعبة. قالت ذكريات بدلع مغرٍ عندما أخبرها قوانين اللعبة.

وراحا يلعبان. وكلّ من يخسر رهانًا يخلع قطعة واحدة من ثيابه. وفي نهاية المطاف ظهرت عورة العقيد وصار عاريًا تمامًا. وذكريات لا زالت في لباسها الداخليّ. قالت:

ـ ممم... ألم تشعر بالإثارةِ بعد؟ سألت، وأجاب:

ـ قانون اللعبة يقول إنّ الذي تظهر عورته أوّلاً يحلقها له شريكه.

ـ تكرم عيونك. قالت. وانحنت له كأنّها جارية حوريّة تسجد لأجل متعة السلطان. فأحضرت ماكينة الحلاقة الكهربائيّة، وجثت بين فخذيه وبدأت بلطف تحلق له ذكورته. وتحقّق الانتصاب أخيرًا بقوّة. وقالت: «نعيمًا.. ها أنت الآن جاهز». ولم يقوَ على الصبر بعد ذلك، فتابعا عندئذٍ جولات الغرام، في الغرفة فوق الفراش الوثير، حتى «النهاية السعيدة». ثم كان نوم طويل. وصحت ذكريات قبل

انبلاج الفجر. وتمتمت وهي ملقاة إلى جانب شكيب في السرير، عريانين:

ـ لقد خطفتَ منّي طاقتي كلّها أيّها الثور المتفلسف. أنا أحتاج إلى أسبوع نوم الآن. كانت تقول هذه الكلمات لأنّ رجولة شكيب من نوع مميّز. كأنّها جرعة أولى من المخدّر. وعلمت يقينًا، بحدس المرأة الذي لا يخيب، أنّ هذه الليلة سَيَليها أيضًا ليلاتٌ وليلات. وهي لا زالت غارقة في هذه الأفكار بين صاحية وغافية، سمعت قربها شكيب يقول متمتمًا هو الآخر:

ـ لن ترحلي ذكريات. ستعملين معنا. وسيكون لك وظيفة. وهذا أمر سيؤذيك جدًّا أن ترفضيه. وقفزت من سريرها كأنّ سلكًا كهربائيًّا قد مسّها:

ـ ماذا تقول يا هذا؟!

ثم نهض شكيب إلى الحمّام شبه نائم هو الآخر، يتمتم:

ـ أجل ذكريات. أنا أراقبك من زمان.. بل أراقبكم لكي أختار من هي الأصلح للوظيفة.

ـ أيّ وظيفة؟! سألت.

ـ ستعملين لحساب جهاز أمنيّ خارج البلاد.

ـ أنت لا زلت حالمًا بلا شكّ. أصحُ يا أخي طلع الصباح. وسترجعني إلى سيّارتي. قالت هذا وهي تشعل سيكارة.

ـ لست حالمًا. لقد تمّ اختيارك. والأمر منتهٍ شئتِ أم أبيت.

ـ يا للوقعة المنحوسة!

وسمعت صوت ماءِ الدوش في الحمّام ينساب مع صوت شكيب:

ـ أنت مغنّية صاحبة صوت ساحر. ستغنّين في نادٍ ليليّ. هذا هو بريستيجُكِ الخارجيّ. الأوراق كلّها جاهزة والباسبور والاسمُ الجديد والنيولوك. والمهلة قبل الانطلاق شهر واحد. حضّري نفسكِ.

ـ وما معنى هذه الليلة؟ سألت وقد بدأت الفكرة تجول في خاطرها.

ـ ديناميّة من ديناميّات التمويه، لا أكثر. وهذا الثور المتفلسف لا يشبع بليلة واحدة. سنلتقي أيضًا. نقطة أخرى هامّة أيضًا.

ـ ما هي؟

ـ لا تخبري أحدًا بهذا الموضوع. وبالتحديد جيلبير عزوري. لصالحِك وسلامتِك إنسَي أمرَه بالكامل.

ثم أوصلها إلى سيّارتها مع شروق الشمس باكرًا، قبل أن تخرجَ زواحف الحياة من أجحارها. كانت تقود سيّارتها إلى شقّتها في المدينة غير شاعرة بالسرعة التي تقود بها. كانت تسابق أفكارها الهاربة من واقع غريب بدأ يبتلعها، كأنّه مذكّرة جلب آتية من الجحيم، وعليها أن تنفّذ دون جدال. بيد أنّها راحت تفكّر بالموضوع بطريقة مختلفة: «لمَ لا؟ الخروج من البلاد بطريقة قانونيّة محترمة.. فرصة العمر! وتخلص من قذارات وعبوديّة جيلبير إلى الأبد. وراحت تفكّر أيضًا بأخيها أيّوب إذا كان باستطاعتها ترحيله هو الآخر معها. وبدت الأمور كلّها جيّدة، وارتاحت للفكرة واقتنعت بها. وهذا ما حدث بعد ذلك. أصبحت ذكريات شخصيّة جديدة باسم جديد وعمل جديد، وغادرت البلاد في نهاية المطاف مع أخيها. ثم عادت بعد سنتين لثلاثة أسابيع فقط، لكي تنفّذ هي والإعلاميّة ريهام بدوي الإنتقام الثنائيّ الرهيب.

* * *

١١

من الأفضل أن يكون في وجهك أسدٌ مفترس،

على أن يكون وراءَ ظهرك كلبٌ خائن.

مثل إيرلندي

ـ جُهَينة تعمّدتِ القتل، وكانت مدفوعة أو مُحَرّضة.. بيد أنّ الوفاة لم تحدث على يدها، قال أيّوب.

ـ ماذا تقصد؟ سألت ريهام بدوي.

ـ ديب عساكر مات بطلقٍ ناريّ في رأسه، بحسب الطبيب الشرعي. وجُهَينة قالت إنّها ضربته بمزهريّة الغرانيت في المكان نفسه حيث نفذ الطلق الناريّ.

ـ المحامي سيف يعمل على هذه النقطة، قالت ريهام.

كان هذا الحديث دائرًا بين أيّوب وريهام في مكتبها في الطبقة العاشرة في مؤسّسة جيلبير عزّوري الإعلاميّة، المشرف على تلال أبنية

المدينة الرماديّة المكتظّة في ذلك العصر الحارّ. وكان هذا اللقاء بينهما، من بين لقاءاتٍ قليلة، بعدَ تلاقيهما ثانية، وقبل سنة من الانهيار النفسيّ الكامل ودخولها المَصحّ. بيد أنّ الغرفة المكيّفة تجعل الجلسة في هذا المكان المرتفع منعشة، وتستحضر شيطان السيكارة وقهوتِها ليؤنس كلّ من ريهام وأيّوب على حدّ سواء. أشعل أيّوب سيكارة وسأل:

ـ هل لديه جديد؟

ـ لا جديد حتى الآن.

ـ لماذا أنتِ مهتمّة كثيرًا بجُهَينة؟ لقد اعترفت بنواياها وتصميمها على القتل. وجيلبير لم يحرّك ساكنًا.. مع أنّه بمقدوره أن يفعل الكثير.. أنتِ ما لكِ يا ريهام؟ وحدّقت هي في وجه أيّوب، ورأت في عينيه الخير والشرّ لونين يمتزجان ليخلقا لونًا آخر غريبًا. قالت:

ـ جُهَينة ضحيّة يا أيّوب.

وابتسم في سرّه ابتسامة اليأس والشفقة على النفس. فهو يعرف تمامًا أنّ كلّ «روبوات» جيلبير ضحايا. هو ضحيّة.. أخته ضحيّة.. ريهام ضحيّة.. روميو ضحيّة.. واللائحة تطول. سألها:

ـ ألستِ أنت كذلك يا ريهام؟ وصمتت مطرقةً. فتابع:

ـ هل نسيتِ نفسَك يا ريهام؟ أنتِ لا زلتِ مديرة مؤسّسة جيلبير الإعلاميّة.

ـ ما تقوله صحيح. وتنحنحت وهي تنفث الدخان في الهواء بعصبيّة، ووضعت رجلاً فوق رجل وأسندت كوعها على ركبتها. لقد صَعُبَت جُهَينة عليّ كثيرًا. سأحاول فعل شيء ما.

ـ هل لدى محاميكِ أشخاص في دائرة الاتّهام؟ سأل أيّوب.

ـ لا.. حتى الآن، أجابت.

ـ ألم تطلبي أنتِ المساعَدَة من جيلبير؟

ـ لا.

ـ لماذا؟

ـ جُهَينة لا تريد مساعدة من أحد.. حتى أنا.

ـ لماذا لا يتدخّل جيلبير في القضيّة برأيك؟ سأل أيّوب بنبرة عميقة طويلة. مع أنّ ديب عساكر صديقه!

ومرّت ثوانٍ صامتة بليغة، قبل أن تجيب ريهام:

ـ أتظنّ أنّ للصداقة قيمة أو معنًى ما هنا يا أيّوب؟ المصلحة هي الآمر هنا. أرجوك.. خلِّ موضوع المحامي سيف سرًّا بيننا.

ـ لا تخافي، سيبقى هكذا. ولكنْ، لديّ شيء هامّ أريد قوله لكِ، وهو سرّ أيضًا، ورأسي بالدَقّ. أنا لن أبقى مع جيلبير كثيرًا، سأرحل قبل أن يُرَحّلني هو بطريقته الخاصّة.

ـ تكلّم يا أيّوب.. أرجوك. أنا بئر أسرار، وأفهم اللعبة جيّدًا. أحقًّا سوف تترك جيلبير؟! وصمت أيّوب قليلاً، وأعاد إشعال سيكارة أخرى، وقال:

ـ روميو وديب وجُهَينة ملفّ واحد من فبركة جيلبير عزّوري. وأنا جزء من خطّة التنفيذ.

ـ لم أفهم يا أيّوب.. أوضح أرجوك، قالت ملحّةً، ورجفةُ شفتيها تجعل كلماتها متقطّعة.

وقف أيّوب والسيكارة بيده، ومشى مُطرقًا إلى الواجهة الزجاجيّة. نظر إلى الأفق، وريهام ترافقه بعينيها، كما ترافق كاميرا المخرج الممثّل. ثم استدار نحوها، وقال:

ـ موت روميو في السجن خطّة من جيلبير. وأنا دفعت جُهَينة.. حرّضتُها على قتل ديب بواسطة تسجيل مُفبْرَك. هي ذهبت لتقتل جيلبير. للأسف.. لم تنجح.. لقد جَبُنَت. وكنت أنا حاضرًا.. مختبئًا.. بين غصون الشجرة عند الشبّاك، للتأكّد من سير الخطّة. وكنت سأكمّل على ديب بعد خروج جُهَينة المذعورة. ففوجئت بدخول شخص لم يكن في حسابات المايسترو جيلبير على مسرح الجريمة، وفعل هو ما كنت أنوي أن أفعله. فانتظرتُ حتى رحيل هذا الشخص، ولذت بالفرار.

ـ آآ.. هذه هي القطبة المختفية التي نبحث عنها! تكلّمت والدهشة تشدّ قسمات وجهها. ولكنّ البصمات على المسدّس هي بصمات ديب! قالت ريهام. وأجاب أيّوب:

ـ أنا رأيت القاتل الحقيقيّ يضمّ أصابع ديب لتمسِكَ بالمسدّس، وضغط هو على الزند بأصابع ديب، طلقة واحدة، حيث ينزف الجُرح من ضربة جُهَينة. ومسح قفا راحتيْ ديب بمنديله. لقد تصرّف بذكاءٍ وهدوءٍ غريبين. كان أيّوب يتكلّم وريهام جاحظة العينين ذاهلة ممّا تسمع. وسألت أيضًا:

ـ أنت قادر على إنقاذ جُهَينة يا أيّوب؟ هل تريد أن تقول هذا للمحامي؟ قالت هذا وهي ترمقه بعين التوسّل.

ـ أقول لكِ هذا، لأنّي فعلاً عازم على ذلك، سأرتّب الموضوع معكِ. وسوف يُبقي المحامي شهادتي سرًّا، لأنّي سأرحل في اليوم

الذي أقدّم فيه شهادتي أمام المحكمة.

ـ أنت رجل طيّب يا أيّوب. أرجوك ثق بي. كلانا سيبقى في الكواليس. المحامي وحده في الواجهة. ولكن.. لماذا أراد جيلبير التخلّص من ديب؟! لماذا؟ وأجاب أيّوب:

ـ السبب المباشر.. كثرة المشاكل والشجارات بين ديب وجُهَينة، وتعثّر الأشغال بسبب هذه المشاكل. ثانيًا، علاقة جُهَينة بروميو من وراءِ ديب.. والتي خرجت عن دائرة المسموح به. وجيلبير كان يراقب تحرّكات روميو وجُهَينة بدقّة.. من خلالي أنا طبعًا. وثالثًا، تألّق نجم ديب السريع حتى بات يشكّل منافسًا قويًّا لجيلبير. هذه لا تفهمينها أنت. الذئاب لا تتناهش إلّا حيث الصيد وافر. ألم تسمعي عن هذا الحيوان الخرافيّ (الكاتوبليباس)؟ مخلوق مستحيل يأكل نفسه بنفسه مبتدئًا من قدميه. ويقول الشاعر: «النّارُ تأكل نفسَها وهي تأكل محروقاتها».. وفهمك كفاية.

ـ أنا أثق في كلّ ما تقول يا أيّوب، فلا تجعلني أندم على هذا.

ـ الذي خبّرتكِ إيّاه وثيقة ضدّي يا ريهام.

ـ لماذا تفعل هذا؟

ـ أريد الانتقام. وأطرقت ريهام لثوانٍ إذ سمعت كلمة (الانتقام)، فقالت:

ـ غريب هذا الإنسان! لم يترك له صديقًا.

ـ جيلبير ليس إنسانًا عاديًّا. إنّه وحش يحرّكه عقل آدميّ.. عقل خارق.

ـ ولكن! كدت أنسى.. لم تقل لي.. من هو هذا القاتل

المجهول الذي رأيته في مسرح الجريمة؟

ـ سأتّفق مع محاميك بأنّي لن أتكلّم بما رأيت إلّا تحت قوس المحكمة.

خرج أيّوب من عند ريهام، واتّصلت هي من فورها بالمحامي سيف:

ـ ميتر.. هناك مستجدّات في غاية الأهمِّيّة يجب أن أطلعك عليها.

وهكذا وضعت ريهام المحامي سيف في أجواء قصّة أيّوب. وابتسم سيف، وقال:

ـ من حيث المبدأ حُلّت العقدة، ولكن تبقى مشكلة التفاعلات والتداعيات. هل تريدين المضيّ في هذه القضيّة إلى النهاية، أستاذتي العزيزة؟

ـ جُهَينة مظلومة.. أريد مساعدتها.

ـ على حساب علاقتك بجيلبير؟ سأل المحامي، وأجابت ريهام:

ـ أنا أبقى وراءَ الكواليس.. ويبدو الأمر كأنّها هي وكّلتك. هذه مهمّتك. وأيّوب يظهر في المحكمة فقط.. ثم يختفي بعد شهادته. ونبقي جيلبير بعيدًا عن الشبهات.

ـ حسنًا.. سأحاول كلّ ما هو متاح لنا أستاذتي العزيزة، أجاب المحامي سيف.

وبعد حوالى الأسبوعين خطّط المحامي للقاءٍ مع جُهَينة في السجن. كان الطقس جميلاً، وكان طابور زائريّ السجن مخيفًا. ولكنّ السجون تسهّل، عادةً، مرور المحامين والنفسانيّين ورجال الدين

والمساعدين الاجتماعيّين وغيرهم. يسمح بالدخول إلى حرم السجن بعد التفتيش الدقيق في غرفة «السكانر»، حيث تمرَّر محفظة الداخل وملفّه وحذاؤه وأيّ شيء آخر يحمله في الآلة الفاحصة؛ ويأخذ ورقة «إذن الدخول» أو «جواز مرور إلى الجحيم» من المفتّش ويعطيها للعسكريّين الذين سيفتحون له الباب الحديديّ الكبير. جلس المحامي سيف ينتظر مجيء جُهَينة. ووصلت هي بلباسٍ محا بالكامل ما تبقّى من أنوثتها الذاوية، فبدت كأنّها عاملة من عاملات المصانع.

ـ أهلاً جُهَينة.. تفضّلي، قال المحامي. جلست وقالت:

ـ ألم تقل لكَ ريهام يا أستاذ إنّي لا أريد متابعة هذه القضيّة؟ أنا لا أريد شيئًا. لماذا تتعبون أنفسَكم؟ أنا اعترفت بجريمتي وأخذت حكمًا وانتهت القضيّة.

ـ ما أقوله لكِ الآن يا جُهَينة يجب أن يبقى سرًّا حتى موعد المحكمة.

ـ لا أحبّ الأسرار كثيرًا، ميتر.

ـ لقد ظهر القاتل الحقيقيّ يا جُهَينة.

ـ ماذا؟ وجحظت عيناها بدهشة حذرة خجولة، غير مصدّقة ما تسمع. ماذا يعني هذا؟ سألت بهدوءٍ.

ـ يعني أنّ حُكمَ محاولة القتل أقلّ بكثير.. أقلّ جدًّا من القتل. وأنت حاولتِ القتل ولم تقتلي.. ولكنّ ضحيّتك مات على يد سواك برصاصة في رأسه في مكان ضربتك أنتِ.

ـ ومن هو هذا القاتل المجهول؟

ـ لن نعلنه إلّا أمام المحكمة فقط.

ـ ميتر سيف. لديّ حدس قويّ في هويّة القاتل، وأنا غير آبهة، وأرفض متابعة القضيّة. قل لريهام أن تتوقّف. وأنا لن أوقّع لك على شيء. سيكون هذا مشروعك أنت وريهام. أنا لم أوكّل أحدًا يدافع عنّي، قالت بحزم.

ـ لماذا يا جُهينة؟ لماذا؟

ـ لم أعد أريد الحياة خارج السجن. ليست حياةً البتّة التي كنت أعيشها هناك. هنا أستطيع الرجوع إلى ربّي بهدوءٍ وطمأنينة. هنا أستطيع أن أكون نقيّة نظيفة.

ـ هنا؟

ـ أجل هنا. وقل لها أن تبتعد عن هذه القضيّة لمصلحتِها وسلامتها.

ـ على كلّ حال، لن أيأس منكِ. أصبحتُ أنا نفسي متحمّسًا للقضيّة أكثر منكِ ومن ريهام.

* * *

ـ هل رحّلتَ البضاعة كلّها يا أبو أدهم.. القنابل اليدويّة وقذائف الآربيجي؟

ـ نعم يا أستاذنا. كلّ شيء تمّ على ما يرام.

ـ ألم يكن هناك صدامات مع نمر وجماعته؟

ـ لا، البتّة. لم نسلك هذه المرّة الدروب التقليديّة، لقد مشينا ليلاً في البراري.. خطّ نار.

ـ حسنًا. لديّ الآن قضيّة في غاية الأهمِّيّة بالنسبة لي. أريد تنفيذًا عالي الدقّة. الخطأ ممنوع.

هذا الحوار يدور في أحد الأوكار الجبليّة النائية لعصابات تهريب السلاح، بين السيّد ح. ص. وأبو أدهم، رئيس عصابة يعمل لحساب ح. ص. منذ سنوات في صفقات بيع أسلحة لتنظيمات إرهابيّة. كان نصف هذا المخبأ محفورًا في صخر الجبل، والنصف الآخر مبنيًّا منذ عقود من حجارة الخفّان غير المورّقة، والحجارة صفراء، نثرت فوقها الوشوم، والشعارات السياسيّة، والرسومات البدائيّة كنوع من الدعاية بغاية التمويه. ويبدو أنّ ظاهر هذا المكان، ومن خلال بقايا السيّارات المتناثرة في كلّ ناحية، قد خُصّص لبيع قطع السيّارات أو إصلاحها. ولا يربط هذه الكتلة من الفوضى والعبثيّة ببقيّة العالم غير مسلك ترابيّ ضيّق، شديد التعرّج، لنصف ساعة من الزمن من أقرب بلدة حدوديّة. بيد أنّه في غرفة سفليّة صغيرة، والتي تشكّل القلب النابض لهذا الجُحر، كانت التجارة الحقيقيّة تسرح على أفواه التخطيط، والتي تُدار من خلال أنصاف آدميّين، لا يظهرون للعمّال البسطاء المياومين إلّا نادرًا، وهم الأشباح! منهم ذوو النفوذ، ومنهم أصحاب خبرات تقنيّة فنّيّة عالية، ومنهم من له تاريخ طويل في الحياة الخارجة على القانون. وليس غريبًا أن تكون هذه الغرفة عابقة برائحة الدخان والرطوبة والزيوت باستمرار، حيث لا منفذ لها سوى الشبّاك الحديديّ الضيّق مع السقف لجهة الجبل. لا أحد في الغرفة سوى ح. ص. وقد حضر متنكّرًا بشارب ونظّارتين سوداوين ولباس مهندس، وجليسه أبو أدهم تاجر كبير للأسلحة. قال ح. ص. وهو يضع الخارطة.. خارطة الكنز الشهير أمام أبو أدهم على الطاولة:

ـ إليك هذا الطعم.

ـ طُعم! ومن هو السمكة التي تريد اصطيادها بهذا الطعم؟ سأل أبو أدهم.

ـ إنّه أحد الرجال المتنفّذين في البلد.

ـ صيد حرزان إذًا؟

ـ القضيّة أقلّ خطورة من الصفقات السابقة. بيد أنّها تحتاج لحذر شديد، قال ح. ص.

ـ وما نوع الصفقة هذه المرّة؟

ـ الإيقاع بهذه الشخصيّة المتنفّذة بيد الدولة.. متلبّسة بالجرم المشهود.

ـ هذا خطير! قد نتحوّل نحن بدورنا إلى صيد للجيش.

ـ ستضحّي برجل أو اثنين من رجالك لا أكثر، اللذَين سينفّذان العمليّة. وأعدك بأنّه لن يبقيا طويلاً في السجن.

ـ واعترافاتهما تحت التعذيب!

ـ إختر رجلين يجهلانك.. ولا يعرفان شيئًا من أسمائك المختلفة، ولم يرياكَ في حلّتك الحقيقيّة قطّ. نجاح العمليّة يعتمد على اختيار هذين الرجلين. هديّتي لك «حرزانة..» إطمئنّ.

ـ ما نوع هذا «الطُّعم»؟ سأل أبو أدهم وهو يفضّ الظرف الورقيّ.

ـ هذه خارطة كنز الرئيس الراحل كميل شمعون، أجاب ح .ص.

ـ ماذا تقول؟ وجحظت عينا أبو أدهم.

ـ ما بكَ؟ قلت لك إنّها «طُعم».

ـ وهل للرئيس كميل شمعون كنز؟

ـ لا كنز و«لا مَن يحزنون». هذه «الخرطشات الخرقاء» هي كمين

من بنات مخيّلتي لأنتقم من عدوّي المزمن. . جيلبير عزّوري.

ـ جيلبير عزّوري؟! آآآ. . قضيّة تصفية حسابات إذًا.

ـ الهامّ هو الثمن الذي سوف تقبضه. أليس كذلك؟ قال ح .ص.

ـ واضح واضح، قال أبو أدهم وهو ينظر الخرطشات السرياليّة على الخارطة. وسعل السيّد ح. ص. سعلة، وقال بتأفّف:

ـ الرائحة هنا لا تُطاق. . شحم مازوت. . وكهرباء. . ورطوبة. . ودخان. لن آتي إلى هنا ثانية. أنا سأتّصل بك بطريقتي لأعطيك التعليمات التالية، ونلتقي في مكان آخر.

ـ كما تريد، سيّدي الكريم.

ـ فكّر جيّدًا. . واخترْ رَجُليك برويّة، وكن كما عهدتك دائمًا.

ـ إطمئنّ سيّد ح. ص. إطمئنّ. هذه «حرتوقة» بالنسبة لعمليّاتنا الكبيرة. وهذه هل ستبقى معي؟

ـ إحتفظ بها جيّدًا. ووقف السيّد ح. ص. وقال:

ـ إسمع! لن أخرج أمام العمّال. سأصعد عند الشجرة من وراء التلّة، وألاقيك بعد المنعطف بخمسين مترًا. وأنت خذ مفاتيح السيّارة ووافِني إلى هناك.

ـ وأنا؟ كيف أعود؟

ـ لا تعُدْ يا أخي. . سَرِّب عالبيت. لقد انتهى يوم العمل. هيّا. . هيّا.

* * *

سيِّدي الرئيس،

أكرّر اعتذاري.. وأتجاسر وأطمع في طول أناتك، وصبرك على هذياناتي.. ربّما.. بل ثرثراتي الطويلة المملّة، والتي تشبه ديدانًا طفيليّة وقحة زاحفة إلى قدس أقداس الفخامة. ومرّة ثانية.. إغفرْ لعينيّ الخاطئتين حيث تجرّأتا وارتفعتا إلى عرش فخامتك السامي.

يزدحم التاريخ المشرقيّ، ولنا الكثير الكثير لنباهي به من إرثنا في هذا الشرق، بقصص مئات القادة، وقلّة هم قادتنا إلى الخير والصلاح، الذين اشتهروا بنهَمٍ مريض إلى الإماء والجواري.. والغلمان حتى! والبعض منهم سعى في إثر الجواري والغلمان بالسواء. ويُزاد عليهم، في أيّامنا هذه، ما اصطلح على تسميته بـ (الجنس الثالث). والتغزّل بالغلمان ترك بصماته فوق صفحاتِ تاريخنا الأدبيّ، وأخرج لنا روائع خالدة في الشعر. لقد دأب قادة الشرق، في كلّ عصر ومصر، على الخضوع لجبروت الشهوة، فأطاعوها طاعة العبيد لسادتهم. وتنوّعت أمزجتُهم الغريبة في تناول أطباق اللذّة. الرومان قديمًا، كانوا يتلذّذون بأطايب الموائد الدسمة حتى لا يستطيعوا الحركة من التخمة، ثم يضعون إصبعهم في فمهم ويتقيّأون، ليعودوا إلى التلذّذ بالأكل من جديد. إنّها لذّة الأكل لأجل اللذّة فقط. هذا بالنسبة للأكل، فكيف بلذّة الجنس؟ لقادة الشرق «سنسر» مرهف جدًّا في ترصّد الهالات الحراريّة للجَمال من الجنسيّات المختلفة: العربيّات والروميّات والفارسيّات والهنديّات... إلخ، ولم ترتوِ الشهيّة الجنسيّة لديهم بما قسّم الله لكلّ رجل، فإذا المخادع ملاعب تعَرٍّ وخلاعة، ومسارح لعشراتٍ من الموديلات والملِكات: هذه تدلّلُ وتلكَ تفرك وهاتيك تقبّل وأخرى تقدّم الخمر، وسمراء ترقص وشقراء تغنّي، وغجريّة حوراء تقرأ الطالع، ومَسبيّة هيفاء تروي حكايات الغرام

والبطولات التاريخيّة. حتى إنّه لا يخلو سِفرٌ تاريخيّ أو أدبيّ، في دروجنا، إلّا ويحوي حكايات العشق الكازانوفيّة، والكثير منها ليس مدعاة فخر البتّة. والغرب، يا سيّدي الرئيس، كان يدرك منذ البداية ولع الشرقيّين بالجمال الجنسيّ.. فراح يصدِّر إلينا، من جملة صادراته التي ليست من الجيّد عنده بلا شكّ، ذوات العيون الزرق والبشرة الشقراء اللائي لعبن اللعبة المغويّة بحذاقة، ورمين صنّارة أنوثتهنّ الباهرة في «مستنقع الشّرق»[1].. الله.. الله يا خليل حاوي! فاصطدنَ «السمكات» الفائقة السرِّيّة من ملفّات دوائر القرار، ورحّلنها مع بريد سحرهنّ إلى عواصم اللاعبين الكبار الذين هندسوا الخارطة السياسيّة هنا، ولا زالوا، منذ بداية القرن الماضي. وفي الوقت الذي كان قائدنا وزعيمنا يتهاوى على مضاجع الشهوة.. كانت قلاع الجغرافيا السياسيّة، وسياجاتنا الاجتماعيّة والقوميّة تتهاوى أمام هيبة المهندس الغازي، وأصبحت ضجّة كؤوس الصبابة والجوى، وغناءُ الحسان والقيان، عازلاً مخيفًا لا تخترقه أصوات سنابك الزحف وصهيل الخيل إلى آذان قادتنا. والديناميّة الشرقيّة لا تؤكّد النظريّة التصاعديّة للتاريخ، ولا النظريّة الانحداريّة حتى، بل تثبّت بشكل حتميّ الحركة الدائريّة المُرّة والرتيبة للتاريخ، بحيث لا زال القادة يكرّرون ما فعل السالفون، بل وبزّوهم بأشواط مواكبين زمن التكنولوجيا وسرعة الاتّصالات، وانفتاح الأسواق، وصناعة الجمال، وتجارة الجنس، والقرية الكونيّة، والتعويذة الطبِّيّة المذهلة التي نفخت في الشيخ الذي خبَت فحولته، طائرَ فينيق جنسيًّا ساخرًا من خَفَر وعجز السنين المتراكمة.

---

(١) قصيدة (الجسر) للشاعر خليل حاوي.

أريد ههنا يا فخامة الرئيس، أن أسرد على مسامعك، وأنا جدّ واثقة من سموّ أخلاقك، ونظافة سمعتك، وهي حالة شاذّة عن سائر القادّة، ولكلّ قاعدة شواذّ على كلّ حال. ولا أدري لماذا تحضرني الآن مثل هذه الحكايات والنهفات؟ ولا ما هي الغاية حتى.. من قولها لك؟ إن هي إلّا مرارات تضطرم في أحشائي، وخيبات مفترسة تنهش تفاؤلاتي بالأيّام الآتية، ويأس لم يُبقِ على فتات أمل عائم فوق مستنقعات وهم المستقبل. إنّ المساحة الأكبر من غابة مصائب شرقنا البائس، يا سيّدي الرئيس، تعربد فيها نمور السياسة، وسباع الطبقة الحاكمة. إنّ القادة والزعماء نجوم إعلام من الدرجة الأولى! إلى جانب الفنّانين والمطربين. وأمّا العلماء والمفكّرون والاقتصاديّون والكتّاب فقد آثرت نجوميّتهم، عندنا، أن تختبئ في كواليس اللعبة التاريخيّة، ليكون العرض المسرحيّ سياسيًّا بامتياز. ووضعيّتهم هذه تشبه حالة اللبوءَة التي تتنازل عن صيدِها للأسد الخمول، الذي يزأر لها من بعيد، وهو لا يتقن مهنة الصيد البتّة، فتبتعد لينفرد هو بالحصّة الأكبر من الفريسة: القلب والرئتين، فقط لأنّه سيّد الغابة. الفكر يصنع التاريخ، وأمّا السياسة فتنفّذ. هذا من حيث المبدأ. وأمّا في شرقنا البائس، فالسياسة تدمّر التاريخ، وعُلّقت صلاحيّاتُ الفكر إلى أجلٍ غير مسمًّى. صوَر النجوم الساسة تملأ الدنيا وتشغل الناس، وتضجّ بها الفضائيّات والإعلام المكتوب والمرئيّ والمسموع. ولست في وارد أن أعدّد لفخامتك الأسماء.. لأنّ الفضيحة بالنسبة لهم تشبه الأوكسيجين بالنسبة للجسد المحفوظ المحنّط، والتعرّض للهواء يُنهي الجسد ويفتّته. الشكل صورة حياة ولكنّ الجوهر موت. هكذا محنّطات السياسة في ظاهرها حياة ولكنّها موت من الداخل.. والفضائح تزيدها موتًا فوق موت. لقد طاب لقائدٍ عربيّ بارز أن يدعو إلى مخدعه إحدى

المطربات الجميلات. وأنصافُ المغنّيات، وأنت أدرى يا سيّدي الرئيس، يَعملنَ في «الدعارة الرسميّة» لدى القادة على كافّة المستويات. وقد نجح، كما دائمًا، مديرُ مخابراته في اصطيادها، بالمال طبعًا، وما هذا بالصيد الذكيّ! ولبّت هذه المطربة الدعوة بابتهاج، كأنّ هذا فخر وامتياز لها أن يضاجعها هذا الزعيم الهامّ. والثمن، بلا أدنى شكّ، هو رقم خياليّ. المفكّر يعمل وينتج لعشرين سنة ولا يملك من المال نصف ما تعمله «الفنّانة» في ليلة واحدة. وشدّ ما كانت المفاجأة كبيرة بالنسبة لهذه المطربة المثيرة، حيث إنّ إثاراتها الأسطوريّة، والبركات الجنسيّة التي سكبتها على الزعيم الهامّ كانت فوق طاقة قلبه الضعيف، فأصيب بأزمة قلبيّة قويّة، ونقل إلى المستشفى المركزيّ. فيما انسلّت هي بترتيبٍ ذكيّ من مدير المخابرات، حتى لا تشمّ أنوف الفضوليّة الصحافيّة سرَّ هذه الذبحة المفاجئة.

عندما قام أحد القادة اللامعين برحلة دبلوماسيّة إلى أميركا، اصطحب معه عند عودته إلى وطنه خليلة شقراءَ جذّابة، فأصيبت الزوجة بنوبة غيرة حادّة، وطلبت منه أن يطلّقها. فطلّقها باعتبارها أصبحت خارج الخدمة بعد أن نقدها مبلغًا مرقومًا كتعويض نهاية الخدمة. ورئيس شرقيّ آخر، وهو لا زال عازبًا، كان يهوى أن يدخل على الخادمات والطبّاخات، وحتى الوجيهات من النساء، وهنّ في الحمّام عاريات. فالصدمة التي تعبّر عنها المرأة المستحمّة العارية عندما يفاجئها بجحوظ عينيه، توصله إلى ذروة النشوة. فالتقاه صديقه رئيس البلد المجاور ذات يوم، وسأله:

ـ أما آنَ لك أن تتزوّج، وتكتفي بزوجة واحدة وتتّقي الله؟

فأجابه:

- كيف يريدنا الله أن نتّقيَه، وقد خلق فينا شيطانًا لا يكتفي لا بواحدة ولا باثنتين ولا بثلاث! هذه الأحجية لا حلّ لها.

وهناك من يؤتى إليه بطلبيّة خاصّة من الجنس الثالث، وقد خصّص فريقًا طبّيًا كاملاً لفحصهنّ قبل عمليّة الشحن إلى عاصمة بلده. وهكذا دار التاريخ دورته الحلزونيّة ووصلنا إلى نقطة البداية، واستحضرت عرّافة الزمن روحَ الملوك والسلاطين القدماء إلى أبدان قادة يومنا هذا.

وعندما رأى الغرب قادتنا في أفخم فنادق ستوكهولم وجنيف ولندن وباريس وروما يتصيّدون الحسناوات اللدنات القدود، راحوا يؤسّسون النوادي الخاصّة لهؤلاء القادة، ليطلقوا طيور نزواتهم من أقفاصها. وقد خبّأت هذه النوادي في زواياها وردهاتها ما لم ترَ عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على قلب بشر من حوريّات البهجات الخرافيّة. وما لا يعرفه الكثيرون أنّه عندما يقوم رئيس من الشرق بجولة في عاصمة أوروبيّة مشهورة بالخلاعة والمجون، يُبسَط له تحت قدميه (البروتوكول الأحمر)، أو التقليد غير الموثّق رسميًا، ويقضي بإمتاع وإشباع هؤلاء القادة حتى تخمة التخمة. وتحضرني الآنَ، وهذه على ذمّة الراوي، أنّ أمراءَ الجزيرة كانوا يكرهون الرئيس العراقيّ صدّام حسين، لأنّه كان يوثّق لذّاتهم وخلاعتهم بالصور والأفلام عنده، ليقوم بابتزازهم سياسيًّا ساعة يشاء. ومن مفارقات هذا الزمن العجائبيّ أيضًا، أنّه عُرضَ على صدّام حسين نفسه نجمة الإغراء الإيطاليّة إيلونا ستالير، لكي يوقف هجومه على الكويت أثناء حرب الخليج الأولى. فشذّ عن القاعدة، وكان ماردُ جنون العظمة عنده أقوى بكثير من جنادب شهوته الجنسيّة. وقيل إنّ الحسناءَ ذاتها عُرضت أيضًا على بن

لادن، وليس ما يثبت أو ينفي هذا. وأتجرّأ سيّدي، وأورد هنا مثالاً، هو خير دليل على بشاعة وغطرسة أخلاق الطبقة الحاكمة في هذا الشرق الحزين. رئيس عربيّ قال له وزيره:

ـ سيّدي الرئيس. إبنك المصون ينتهك شرف ابنتي. فأجابه الرئيس بما يشبه الأمر:

ـ دَعْ ولدي يتسلَّ.

لقد عاد الحديث الآن إلى الواجهة سيّدي، عن الرابطِ المتين للنساء بالسلطة والحكم، وتأثيرِ الجنس في إدارة لعبة الحكم. خصوصًا في عدد من الفضائح التي طالت الكثير من الزعماء شرقًا وغربًا، حتى في وسط أنسام الربيع العربي والتي أسقطت عروشًا. فربطَ بعضُ المتابعين، بين مصير هؤلاء الساقطين سياسيًّا وبين نوعيّة العلاقات التي كانوا ينسجونها، كما الخيوط العنكبوتيّة في فضاء سياساتهم.

ليڤي كوهين والملك فاروق، مونيكا وكلينتون، كريستين دوفييه جونكور ووزير الخارجيّة الفرنسي رولان دوماس، رويال وساركوزي، الرئيس الأميركي جون كينيدي ومارلين مونرو، الكاتبة الأميركيّة بولا برودويل وقائد الحرب على العراق ديڤيد بترايوس الذي وقع في حبال أشراكها، ووقع من مقامه الرفيع وأُقيل من مهامّه. ولعلّ آخر فضيحة في فلسطين فضيحة رئيسة الوزراء الإسرائيليّة تسيفي ليڤني، تصوّر نفسها مع صائب عريقات لابتزازه سياسيًّا. ورغم محاولات الإقصاء والفصل بين المرأة وعالم القيادة، إلّا أنّ الجنس اللطيف، سيّدي الرئيس، بقي دائمًا وأبدًا، على صلة عميقة بمجتمع صناعة القرار منذ عهد كليوباترا وشجرة الدرّ وثيودورا وماري أنطوانيت وجوزفين.. وإلى زمننا الحالي. فعند الحديث عن علاقة النساء بالعروش والكراسي لا

نجد فرقًا بين الشرق والغرب، شمال وجنوب، أو بين بوذيّ وكونفوشيّ، أو مسلم ومسيحيّ.. ولكنّ تحفتنا التاريخيّة رواية «ألف ليلة وليلة» الشرقيّة، أبطالها شرقيّون، ومسرحها شرقنا المتداعي، حافلة برقصاتِ الحسناوات الخليعة في الغرف السوداء، وأقبيةِ السياسة، وطافحة بتعويذاتِ إغواءاتهنّ، التي قدّمنها سمًّا زعافًا، في أطباق مفاتنهنّ لإقامة ملوكٍ أو إسقاط عروش.

* * *

الجـزء الرابـع

غروبات شروق



١٢

يا أمّةً غدَتِ الذئابُ تسوسُها ... غرقتْ سفينتُها فأينَ رئيسُها؟
غرقتْ، فليسَ هناكَ غيرُ حطائِمٍ ... يبكي مُؤبّنُها ويضحكُ سوسُها
تتمرَّغُ الشهواتُ في حُرُماتِها ... وتَعيثُ في عَظماتِها وتدوسُها
تَعْسًا لها مِن أمّةٍ.. أزَعيمُها ... جلّادُها، وأمينُها جاسوسُها؟
رُشِيَتْ مآذنُها، فلمْ تغضَبْ لها ... غضَبَ الكرامِ، وباعَها ناقوسُها
ليسَتْ منَ الأشبالِ فِتيَةُ أمَّةٍ ... إن سادَ أحمقُها، وعزَّ خسيسُها
وَمَتى تؤيِّدْ بالرُّعاعِ حكومةٌ ... كانتْ أحطَّ مِنَ الرُّعاعِ نفوسُها
وعِصابةٍ، مَلأَ المناخِرَ نَتنُها ... خضَعتْ طوائفُكمْ لها وطقوسُها
مِنْ دَمعِ بائِسِكم وقوْتِ فقيركمْ ... تُجنَى ضرائِبُ ظلمِها ومُكوسُها[1]
هبَطوا الجَحيمَ فرَدَّهُمْ بَوَّابُها ... إذ خافَ مِن إبليسِهِم إبليسُها

(١) مفردها المَكس أي المال.

أشبالَ ذا الوَطنِ الجَريحِ إلى مَتى؟ أنتمْ سيوفُ بلادِكم وترُوسُها
موتوا كِرامًا! أو فعيشوا أمّةً تهوي على يدِها العُلى وتبُوسُها

الأخطل الصغير

غرفة رقم ١٠٥

المصحّ العقليّ في العاصمة

خريف ٢٠١٥

سيِّدي الرئيس،

لقد فتحت خزانة (الفلسفة السياسيّة) باحثة عن بعض أصناف العباءات والعمائم، التي ألبسَها الفكرُ للسياسة. أيَّ حلّةٍ من الحُلل تعطّفتِ السياسة في تاريخها الطويل حتى يومنا هذا؟ هل صُنّفت علمًا؟ أو صنّفت وظيفة؟ أهي أداءٌ وممارسة؟ أم هي حيلة؟! أتُراها موهبة؟ أم أنّها فنّ؟ أو كما نسمع كثيرًا في أيّامنا هذه عن (فنّ الممكن)؟ لقد اشتقّت كلمة (سياسة) من فعل (ساسَ) كما يخبرنا قاموس العربيّة، والمعنى: قام بالأمر، تدبّره. فينبثق، والحالة هذه، المعنى الذي يفيد: القيام بأمر ما، إتمام وإنجاز المَهامّ. وما يختصّ بأمور الناس، دبّر وتولّى شؤونهم. وبمعانٍ أخرى رديفة هي الحُكم، أو موقع السلطة والرئاسة، أو إدارة شؤون العامّة. في الكلمة اللاتينيّة، يشمل المعنى أيضًا: تدبير شؤون الدولة. والسياسة، من حيث شكلها، وهذا حتميّ، ديناميّة ذاتُ اتّجاهين بين الحاكم والمحكوم، وهي، بالتالي بحر الدولة بكامله، وكلّ ما يرفدُه من مسؤوليّات وصلاحيّات ومصالح وتدبيرات ومهامّ متنوّعة. السياسة هي السلطة والإدارة العظمى في التكوّنات

الاجتماعيّة الإنسانيّة، وكلّ ما هو مشكول بظاهرة السلطة. يعرّف دايڤيد إيستون[1]، علمَ السياسة، وفي رأيه أنّ السياسة علم، بأنّه دراسة توزيعاتِ البُنية السلطويّة «للقِيَم» التي تخدم مصلحة المجتمع. تعريف غريب حقًّا! ولكنّه واقعيّ. يقول دايڤيد إيستون بوضوح، إنّ التركيبة الحاكمة هي التي تصنّع قوالبَ «القِيَم والمبادئ» التي تهدف إلى المصلحة العامّة. وهذه «القِيَم» بتعبير آخر هي «الوحي المعصوم» أو «لاهوت» الشعارات والتشريعات والطروحات والسياسات الداخليّة والخارجيّة، التي يجب أن يقتنع المواطن بأنّها لمصلحته. وهنا مهارة الحاكم في هندسة هذه اللعبة. ألم تفعل هكذا الفاشستيّة؟ وكذلك الشيوعيّة؟ ثم الأنظمة الشموليّة والراديكاليّة وغيرها من الأنظمة؟ ما أجمل المفردات العميقة، وأغنى المصطلحات المكردسة في صندوقة الثقافة السياسيّة! الملكيّة، السلطنة، الأرستقراطيّة، الديموقراطيّة، الرأسماليّة، البروليتاريا، الأوتوقراطيّة، البيروقراطيّة، البرسترويكا، الثيوقراطيّة، التكنوقراطيّة، الشوفينيّة، الغيفاريّة (التابعة لإرنيستو تشي غيفارا)، التعدّديّة، الفيديراليّة والكونفدراليّة... إلخ، هذا غيضٌ من فيض من الكلمات المدهشة! لدينا، أيّها السادة، قاموس كامل مكمّل للمفاهيم السياسيّة، وهذا يجعل منها علمًا عالي الدقّة بتعريفاته ومصطلحاته، غنيًّا بمواضيعه وأبوابه. ومن التعريفات المدهشة التي عَثرتُ بها، كما أعثر بالجرذان في قبو بيتي، أنّ السياسة فهم العلاقات بين أجزاء الديناميّة السياسيّة، وتاليًا تفسير ما يدور في الميدان، كتوطئة لا بدّ منها، نحو رسم الخطوات المقبلة الملائمة. تعريف واقعيّ هو

---

(١) مفكّر سياسيّ معاصر، وباحث بارز في الظواهر السياسيّة.

الآخر! فالسياسة بسط آفاق الفكر لاستيعاب الأحداث المستقبليّة، بحكمة وواقعيّة. والسياسيّ الناجح قارئٌ فذّ للمستقبل، وما أكثر السياسيّين المتنبّئين! وفي تاريخ الشعب اليهوديّ في التوراة، أنّ رجل الدولة، أي الملك، لا يجرؤ على أخذ قرار واحد دون الوقوف على مشورة النبيّ المعتزل في الجبال. أَعلى السياسيّ أن يستشرف أحداث المستقبل ليأخذ قرارَه على ضوئِها؟ أم أنّ السياسيّ المُبدع هو الذي يأخذ قرارَه الذي يُحدّد له مستقبله؟ هل السياسيّ قارئ للمستقبل أم صانع المستقبل؟! والسياسات المعاصرة، على أنواعها، استحدثت تعريفاتها المتنوّعة هي الأخرى. والثمار التي نجنيها اليوم، في المجتمعات كلّها، إن هي إلّا بذار هذا التعريفات المرعبة، مثلاً: «السياسة توزُّع القوّة والنفوذ في مجتمع ما أو نظام معيّن». وهل القوّة تلتزم حدودها؟! ليس هناك من قوّة في الوجود إلّا وتريد أن تؤكّد ذاتها في قوّتها! وعندما تعبّر القوى، في الهيكليّة الحاكمة، عن ذاتها، سيحدث الصدام، حتمًا، في نهاية المطاف. تعريفات وعباءات وعناوين ومصطلحات تعكس جانبًا واحدًا في السياسة، وليست البتّة، تحديدًا وافيًا شافيًا. وهذه التعريفات السياسيّة المتنوّعة تشبه إلى حدٍّ بعيد وصف العميان للفيل، بحيث يُعطي الأعمى توصيفه للجزء الذي يضع عليه أنامله من جسد الفيل الضخم. أمسك واحدهم الرِّجْلَ وقال: «الفيل كالعمود»، وأمسك آخر الذنَبَ وقال: «الفيل كالمكنسة»، وهكذا.. عقلنا غريب حقًّا يا ناس! إنّنا نعشق ونبدع كلّ هذه التصنيفات والعناوين والشعارات. ولكنّ النظريّة في وادٍ والتطبيق في واد! قدّم الخطيب والفيلسوف الروماني الشهير شيشرون ذات يوم، هذه المقولة:

١ ـ الفقير: يعمل.

٢ ـ الغنيّ: يستغلّ رقم واحد.

٣ ـ الجنديّ: يدافع عن الاثنين.

٤ ـ المواطن العادي: يدفع للثلاثة.

٥ ـ الكسول: يعتمد على الأربعة.

٦ ـ السكّير: يشرب من أجل الخمسة.

٧ ـ مدير البنك: يسرق الستّة.

٨ ـ المحامي: يغشّ السبعة.

٩ ـ الطّبيب: يقتل الثمانية.

١٠ ـ حفّار القبور: يدفن التسعة.

١١ ـ رجُل السياسة: يعيش من العَشَرة.

لم يعطِ شيشرون هنا تعريفًا للسياسة، ولكنّه قال لنا، وبإيجاز بليغ، ماذا يفعل السياسيّ، إنّه يعيش من العشَرة.. ويلعب أيضًا بالعشَرة. شيشرون قال بصراحة، ما هو عليه السياسيّ في الواقع. وأمّا أفلاطون فقد حدّثنا، لدرجة الملل والقرف أحيانًا، عن السياسيّ الكامل في المدينة الكاملة التي تخضع لقانون كامل. وهذا لا وجود له البتّة، في غير خيالات أفلاطون، وأحلام يقظاته الكثيرة.

بالنسبة للتعريف الذي يتحدّث عن القوّة، والمقصود بالقوّة، وهذا هو واقع الحال، أن تفرض جهة ما إرادتها على الجهات الأخرى. فالسياسة، بالتأكيد، لفيف من أطراف متفاوتة القوّة، وهناك القويّ دائمًا، وهناك الضعيف دائمًا. والسلطة الحاكمة في البلاد تقوم بإعطاء «مسحة القوّة» أو «بَرَكة القوّة» أو «عِماد القوّة» لقوّاتِ المجتمع كافّة:

إعلاميّة كانت أو عسكريّة، أو اقتصاديّة، أو اجتماعيّة، أو ثقافيّة، أو دينيّة، لمصلحة نهضة البلاد وبحبوحتها. والاستخدام الحكيم / الخبيث لهذه الأوراق (أوراق القوّة) للوصول إلى تحقيق الأهداف / المصالح هو جوهر الحركة السياسيّة. من هنا القول إنّ السياسة هي (فنّ الحُكم)، أو كما قال موسوليني (موهبة الحُكم)، أو فنّ إدارة الصراع، أو فنّ إدارة المشكلة، أو، مثلاً، فنّ إدارة الحاجات! وأنا أحبّ أن أضيف: فنّ إدارة الأذهان والغرائز، وفنّ مسخ الثقافة. لا يستطيع طرف ما، في غالب الأحيان، أن يفرض كلّ ما يريد على الآخر. وهنا الثغرة الهامّة، وما أكثر الثغرات! خصوصًا القانونيّة منها، التي نفذ منها خبث «البازارات والتسويات» للحصول على أفضل المكاسب وتقديم أقلّ التنازلات. وأمّا في العصور القديمة، حيث كانتِ السياسة مُراهِقةً بعد، آنذاك كانت «تفَوْكِس» على طبيعة العلاقات الإنسانيّة في الدولة، وعلى الأسس الأخلاقيّة للحُكم والحاكم معًا. والفكر اليونانيّ، تحديدًا، كان فكرًا مثاليًّا أخلاقيًّا قِيَميًّا بامتياز. وهكذا الدساتير الحديثة عادت ونهلت من القانون الروماني الأوّل.

وفي ربوعنا المحلّيّة، يا فخامة الرئيس، غزَتِ السياسة، بوحشيّةٍ مغوليّة، إمارة السيكارة وفنجان القهوة، وَسَبَتْ من بقاعِها تلك الجارية الحسناء الهادئة.. متعةَ ارتشاف القهوة وتنفيخ السيكارة. في البيت وفي العمل، في الشارع وفي الجامعة، في ميادين الفنّ والثقافة، في الأندية والمقاهي، في الليل وفي النهار، في الجُرد والساحل، تبقى السياسة تلك الزائرة الثرثارة والفضوليّة، تقتحم وجودنا، ناقلة إلينا أخبارَ عالمِها المجنون، وسارقة منّا طمأنينة العيش، وبراءَة المحبّة، وحلاوة الجلسات الرائقة على فنجان قهوة وسيكارة.

* * *

«المُعالِجة النفسيّة شروق عبد الله.

شروقٌ خافت خجول.. وغروبٌ ساطع متوهّج!

لم تذق هذه المرأة الفاتنة نار الحُبّ، بعد أن أنهتِ الماستر في العلوم النفسيّة، إلّا في أتون الاختبار الجنسيّ الشَبِق. منذ مراهقتها، كانت ساخنة الشهوة، فحمل بساط ريح الشهوة إليها الحُبّ، ملتهبًا صاخبًا. لقد عبرت إلى مملكة آمور وبلاد إيروس، فوق جسور النَّهَم الجنسيّ المكبوت. سمراء واسعة العينين، الشعر ليلكيّ مشعّ ثائر، والقدّ منسجم التداوير والتضاريس. إنّها تمرّد جنسيّ يجهل مضمون «بيان مطاليبه» الذي ينادي به. إنّها صخرة انتحار لأيّ رجولة أوجَعَتها وَخَزاتُ الجمال المثير. كانت قد اكتشفت، منذ المراهقة، ألغازَ هذه الجاذبيّة الفيّاضة في قوامِها الجميل، كأنّه مجسّم حيّ لعشتار أو أفروديت أو ديانا. ومنذ باكورة مواسمها.. حَزَرَت «كلمة السِّرّ» أو «كلمة المرور» التي أدخلتها إلى مغارة اللذّة. فراحت تدخلُ، خلسةً، إلى هذا الكهف الطافح بلآلئ المُتَع ودراري البهجات المُسكرة، كأنّها وحدها، في هذا العالم، قد حظيَت بهذا الكنز العظيم. ولسبب قوّة التمحور عندها، حول جسدها، لم تقدر أن تختبر الحبّ الأوّل! فالجسد الجنسيّ يبقى، دائمًا وأبدًا، هوس النرجسيّة الأنثويّة. واللباس المذبوح فوق جسد أثيريّ التفاصيل والنتوءَات، يُرضي أنوثتها المتّقدة إلى «علي بابا» ما.. جذّاب قويّ شجاع.. يستطيع الإبحار في أوقيانوس نرجسيّتها اللامتناهي. بيد أنّ شروق قويّة الشخصيّة، ذكيّة النظرات واثقة الخطرات، لامعة في التحصيل العلميّ. ولا تدري لماذا اختارت دراسة علم النفس، هي التي بإمكانها دراسة القانون والطبّ والهندسة. ربّما أدركت بالحدس، أنّها تملك الإكسير العجيب الذي «يحلحل» و«يفكّ» أصعب المشاكل النفسيّة تعقيدًا: الشخصيّة الثاقبة

والعقل الذكيّ والجسد المثير. ولم تفهم شروق مضمون الرجولة، إلّا من خلال عدسة الجسد المثير. فرفضت فكرة أن يكون هناك رجل يحبّ، لأنّ حاسوب جسدِها أنبأها أنّ أصابعَ الرجل تنقر، دائمًا، في مواقعِهِ الإباحيّةِ الصاخبة.

كانت أمسية لطيفة، أرّخت لبداية قصّة حبّ مغدورة، تمامًا كريهام وجُهَينة وذكريات. في حفل ثقافيّ نظّمه المجلس البلديّ، لتوزيع الأوسمة على مجموعة من المبدعين في مجالات شتّى، كان السيّد رامز شعبان، الاقتصاديّ المعروف، جالسًا في الصفّ الأمامي يتأمّل الحسناوات فوق المرسَح، وهنّ يحملن الأوسمة بالتتابع، إلى رئيس البلديّة، الذي يقدّمها بدوره للمُكرَّمين. ورامز شعبان «ضرسو طيّب»، يعرف كيف يقطفها في وقتها. كانت دعوة هذا الدبّور الكازانوفيّ إلى هذا الكرْم فرصة نادرة، لكي يجد له عنقودَ جَمال يُضيفه إلى سلّة «فجْعَناته» الغراميّة. ولم يكلّفه هذا جهدًا كبيرًا، فقد جاءَته من نفسها لطلبه. بعد انتهاء برنامج الحفل، تنحّى ليتناول قطع الموالح والحلو فوق مائدة التضييفات ويشرب المرطّبات، فدنا منه الدكتور حاتم عبد الله ليعرّفه بابنته البارعة الجمال شروق. والدكتور حاتم يعرف جيّدًا أنّ رامز عازب مزمن، ولن تأسر عزوبته في قفص الزوجيّة غير جاذبيّة شابّة تردُّه ابن عشرين، هو الذي قارب الخمسين. ولكنّ الذي يجهله الدكتور حاتم، وهذا لبّ القضيّة، أنّ رامز هذا لا يفكّر بالزواج لا هنا ولا في الآخرة! هو بحر هائج مائج لا يهدأ عند شاطئ، ولا يسكن عند خليج. إنّه ذوّاقة نساء نقّال دوّار، يغامر وراءَهنّ مغامرة التجّار الباحثين عن الدّرر النادرة، واللآليء الثمينة.

ـ بْحِبّ عرّفك عا بنتي شروق سيّد رامز. لقد أنهت الماستر، وهي منطلقة إلى الدكتوراه. قال الدكتور حاتم موجّهًا الكلام إلى رامز

شعبان، وكان هذا يتلمّظ قطع الحلوى بشيءٍ من الشراهة، وعيناه تقفزان بين دوالي الكرم الوَفر أمامه. فاصطدمتا، فجأة! بالسحر الشارق يدنو ويقف إلى جانب الرجُل حاتم. وراحت أنامل عينيه تغوص في جنون الشلّال الليلكيّ، وتداعب الجيد البضّ حتى الخصر الرقيق. والحلقتان في أذنيها تتدلّيان كمِبخَرَتين.. أهدتهما لها ربّة الجمال لكي تحمياها من أبالسة الأرض. ومدّ رامز يده مُصافحًا، ودهشَتُه فراشٌ عالقٌ في لهيب نور شروق:

ـ أهلاً.. أهلاً بالأميرة شروق! ليلنا نهار طالما الجمال مشرق يا شروق. وأحنى قامته قليلاً وهو يصافحها، آخذًا يدها بكلتا راحتيه. فابتسمت شروق ابتسامة الرضى، وعيناها تقيسان ملامح وجهه سنتيمترًا سنتيمترًا، بجهاز سنسر امرأة باحثة عن رجل على قدّ مساحة أنوثتها المجنونة. ألهبتها عيناه القويّتان وقامته الممشوقة والحضور الجذّاب. إنّه رجولة فيّاضة! قادرة على إنعاش ذبول الشوق في مواسمِها الحائرة. قالت:

ـ هذا من ذوقك سيّد رامز. أنت وسيم أكثر من حاجة هذه المناسبة! وكانت هذه الكلمات القليلة من شروق نفخة هواء في رماد ناره الخامدَة حتى إشعار آخر.

ـ إلى الدكتوراه إذًا؟ سأل رامز. وأجابت:

ـ هذا هو مشروعي.. حتى الآن. وفي جوابها هذا تورية مقصودة، ليبدوَ المستقبل له مفتوحًا على احتمالات شتّى.

ـ أنتِ ابنة أبيك. ستصبحين دكتورة بنت دكتور.

ـ الله يخلّيك سيّد رامز، قال والد شروق.

أقيم هذا الحفل في سهرة حلوة من سهرات أيلول ٢٠٠١ في تلك

البلدة الجنوبيّة الساحليّة، حيث استصلحت البلديّة الشاطئَ الخرب، وعبّدت كورنيشًا بحريًّا جميلاً، على امتداد ثلاثة كيلومترات، يصل الآثار القديمة بالميناء الجديد. وكان هذا الحفل في الساحة القريبة من الآثار القديمة، حيث عمل النقّاشون لشهور لكي يجهّزوا منحوتاتهم لحفل تكريمهم. قالت شروق لرامز بجرأة أذابت قلبه:

ـ هل تحبّ المشي سيّد رامز؟ فطبعت كلماتها دهشة مذعورة في تداوير عينيه، وأجاب من فوره:

ـ لا أحبّ غيره. ضحك في سرّه، واتّقد الكبرياء النرجسيّ فيه، مرتاحًا لقوّة جاذبيّته.

رامز شعبان رجل عصاميّ صنع نفسه بنفسه. بيد أنّ ثروته لم تأتِ بالصوم والصلاة! ولولا نسر السياسة الذي طار به عاليًا، لما استطاع أن يحلّق أبدًا. تبقى التعويذة السحريّة، دائمًا، هي سرّ القضيّة. لقد اشترى رامز جبلاً مهملاً في سفحٍ ساحليّ في الجنوب، قريبًا من البلدة. وكان سعر متر الأرض هناكَ ٢٠ دولارًا. واشترك معه في هذه الصفقة الحرزانة أخوه وابن خاله. وراح يستصلح هذا الجبل من مساعدة معارفه، وأصدقاء ذويه في وزارة الأشغال ووزارة الطاقة والداخليّة وكذلك الأحزاب التي يؤيّدها، فحوّل هذا الجبل، في ثلاث سنوات، إلى جنّة غنّاء. ولم يدفع، في عمليّة الاستصلاح هذه، دولارًا واحدًا من جيبه. ثم عاد وباع هذا الجبل، وخلال شهور، المتر بـ ٥٠٠ دولار لشارين كثيرين. فكان هذا المشروع انطلاقته الذكيّة والقويّة في دنيا البزنس. وفي عشر سنوات، كان رامز قد أصبح مساهمًا كبيرًا في شركات عقاريّة وهندسيّة وفنادق ومصارف، ومالك شركة كبيرة للاستيراد والتصدير، ولم يبلغ بعد الخامسة والأربعين من العمر. كان مغامرًا طموحًا عنيدًا، لا يؤمن بالفشل البتّة. وهذه عيّنة من شعاراته:

«القانون تركَ مساحاتٍ كبيرة وثغرات، يستطيع الذكيّ الدخول منها إلى دولة الثراء»، «أحِبَّ المال يُحبّك»، «بعض الناس خلقوا ليُحكَموا والبعض الآخر ليَحكُم»، «الذي يحدّد مستقبلي هو أنا وليس الظروف»، «النجاح قضيّة وقت»، «الفاشل هو الجبان والكسول فقط، لأنّ النجاح متاح لإيّ إنسان»، «ليس هناك من وقت متأخّر أبدًا»، «لا تستخفّ بفرصة واحدة مهما كانت بسيطة». لم يكن رامز ذا نزعة شرّيرة، كان طامحًا شرهًا. وإلى جانب الذكاء الماليّ، كان لديه كاريزما وحضور، جعلا منه دونجوانيًا لافتًا. فمنذ أن بات المال سيّالاً بين يديه، راح يمتّع شبابه بما عنّ له وطاب. فاشترى شقّة فخمة في (فتقا) الهادئة الموحية، يستوحي فيها أنواع البسط والكيف، بعيدًا عن ضجّة المدينة، وصِنّارة الفضوليّين الذين يستهويهم صيدُ أسرار الآخرين. هنا في (فتقا) أراد أن يلتهم الدنيا التهامًا، قريبًا من الساحل الكسروانيّ الجميل، في نصف المسافة بين الريف والخليج.

ـ ليش بعدك أعزب؟ مية بنت بتتمنّاك، سألت شروق وقد أبدت في غنج نبرتها إعجابَها.

ـ الزواج نصيب، أليس كذلك؟ لم تستوِ طبخة الزواج في رأسي بعد.. تحتاج إلى توابل الحبّ المطيّبة.

ـ ألم تحظَ بهذه التوابل بعد؟ سألت أيضًا.

ومن هذه الدردشة البسيطة، وهما يتمشّيان قرب البحر، يسمعان إيقاعات الموج الخافتة، أدرك رامز أنّ للفتاة رغبة عميقة في الزواج. ومن خبرته مع النساء، عرف أنّ شروق امرأة لاهبة جنسيًّا. الله أيّام زمان! كان يتلوّن وجه الفتاة مئة لون لو نظر إليها شابّ. اليوم تهجم الفتاة على الشابّ «هجومًا إرهابيًّا» شرط أن يكون عريسًا. أهذه الأيّام

تحقيق لنبوءَة إشعيا النبيّ، التي تتحدّث عن سبع نساء يتمسّكن برجل واحد في الزمان الأخير، طالبات كفايتهنّ من القوت والكساء، شرط الحصول على اسم الرَّجُل[1]؟ أيّن الحُبّ أجمل يا ترى؟ والعلاقة أسمى؟ أفي زمن البراءَة و«السترَة» أم في زمن الحرِّيّة الجنسيّة؟ هل الجنس حقًّا ثلّاجة الحبّ؟ أم هو ناريت الحبّ؟ أم تُرى الحُبّ أنواع: رومنسيّ، جنسيّ، عقليّ، نفعيّ، خياليّ، واقعيّ، عبثيّ...؟ تقارُب رامز وشروق السريع أذهلهما معًا. «طنجرة ولقيت غطاها!» هي أُعجبت بطلّته وحضوره وتفوّقه الماديّ السريع، وهو، بلا شكّ، أُخِذَ بالقدّ المثير الأهيف، والعينين الكبيرتين الذابحتين. القضيّة تقاطع مصالح إذًا! وليس هو حبًّا البتّة. هي تريد الزواج وهو الجنس. الجَمَل بنيّة والجَمّال بنيّة. البايلوت عنده هدف، وخاطف الطائرة له هدف وركّابها.. كلّ له هدفه.. ولكن نقطة التلاقي والتقاطع الراهنة هي الطائرة. حسناء مثيرة تريد الزواج، ورجل قادر جذّاب يريد الجنس، ستكون، حتمًا، نقطة التلاقي والتقاطع الراهنة هي الفراش. هذا هو «ميكانيك الغرام». طلب منها رقمَها وأخذت هي رقمه، وراحا يتواعدان.. يلتقيان.. يتهامسان.. يبوحان.. ويتعانقان... إلى أن انتهى بهما المطاف في الشقّة الفخمة في (فتقا). لم تكن شروق خائفة من الجنس قبل الزواج، علم النفس يقول إنّ الكبت يولّد شقاءَ الإنسان، والتفريغ يريح. هذا هو ببساطة مبدأ فرويد، كلّ مشاكل الإنسان النفسيّة مصدرها «المكبوتات الطبيعيّة». باتت هي تطلب الجنس بقوّة، وهو تحامى الكلام عن الزواج، فاكتفت بنعيم الفراش خارج المخدع الزوجيّ. وعندما تعرّيا للمرّة الأولى، في تلك الشقّة الرومنسيّة، تقارع الجسدان.. وتناهشا.. وقرأ كلّ منهما جسد الآخر

(١) سفر إشعياء النبيّ ٤ : ١.

كأنّه حكاية مشوّقة.. أو قصيدة غرام حفظها عن ظهر قلب أيّام المراهقة. ومن تلك الليلة في (فتقا)، التهب العشق المغامر والحَذِر في آن معًا، وكنسَلَت هي فكرة الزواج بالكامل، ولسنوات! وعاشت هذه العلاقة المجنونة، في كهف اللذّات مختبئة، لخمس سنوات بطولها! لا أحد يعلم بها. غرام وجنس خلسة. وعندما سألها والدها عن رامز، أجابت باقتضاب:

ـ ليس هناك نصيب يا أبي. رامز لا يريد الزواج.

واستطاعت شروق أن تخفي هذه العلاقة عن كلّ الناس.. وعن أقرب الأصدقاء حتى. كانت هذه العلاقة كنزها الثمين، فهل تعطي مفاتيح سعادتها لثرثرات الفضوليّين العاذلين؟ لقد دفنت هذا السرّ في قبر نشوتها، وختمته بختم رومانيّ قديم. لقد أخفت هذه العلاقة عن والدها وأخويها، وصديقتها المخلصة في الدراسة، حيث كانت تحضّر الدكتوراه. ودائمًا كانت الحجّة حاضرة لعقلها الذكيّ، الذي يأبى التفريط بفرح استثنائيّ نادر، ولو كانت أوراقه الثبوتيّة غير قانونيّة، وفصوله متوارية في كواليس الحَذَر. وبالنسبة لرامز، كان عليه أن يحافظ على قدرٍ كبير من السرِّيّة، إذا أراد لهذه العلاقة أن تعيش أمدًا طويلاً. وشتّان بين الرجل والمرأة من حيث السرِّيّة في موضوع الحبّ! عاش هذا الغرام الجنسيّ الشبق سنواته الخمس ثائرًا، صاخبًا، عبثيًّا، عنيفًا، خارجًا على شرائع الحبّ ومواثيقه، ونما وتأصّل وتعمّقت جذوره. كلّ من رامز وشروق شعر بأنّه أسير الآخر. هو لم يسعد مع امرأة كشروق، وهي ذاقت مع رامز فنَّ ومهارةَ بحّارٍ خبير، راح يكتشف في جسدها المترامي الأطراف كنوزًا ومُدهشات، كانت هي تجهلها! كانت شروق تأتي من الشيّاح بالباص أو بسيّارة تاكسي، وهو يأتي من الحازميّة بسيّارة تاكسي، نزولاً عند رغبتها. لأنّ السيّارة

الراكنة قرب البناية تشكّل علامة فارقة، ودليلاً قويًّا. كان لقاؤهما مرّة في الأسبوع، ولم يكن هذا كافيًا. بعد أشهر صارا يلتقيان مرّتين في الأسبوع. وأمّا في السنة الثالثة فكانا يلتقيان شهرًا كاملاً في السنة، شهر حزيران، ما خلا لقاءات سريعة متفرّقة طبعًا، فيقضيانه معًا كأنّهما عروسان جديدان. ورامز أخلص لها في هذه المرحلة، وهو نفسه مذهول من بقاء هذه العلاقة على قيد الحياة. كان الشوق بينهما يتّقد يومًا بعد يوم، ولا يدريان ما قماشة هذا التمرّد الذي يرفلان به. أعمق قصص الغرام هي الجامحة.. الخارجة عن الأطر والمقاييس.. بل والشاذّ منها. وعندما تبعّد الظروف الطارئة بينهما لشهر أو شهرين.. كان الجنون يحطّم عقلها وأعصابها، ويذيبُها الشوق إلى شفتيه العذبتين، وأناملِه الموهوبة التي تستطيع بمهارة عازف، إبداع الموسيقى الرائعة على جسد مدوزن حرّ. سألته ذات ليلة، وهي تقبّل عنقه وتداعب شعرات صدره المبلّلة:

ـ إلى أين نحن ذاهبان يا رامز؟ هل لثورتنا نهاية؟ ويجيب رامز حائرًا:

ـ لا تفكّري بالغد يا شروق.. إبتهجي فقط.. طالما كلّ شي تمام. بكرا بيفرجها الله.

ـ أتعلم ما يحلّ بي إذا خسرتك يا رامز؟

ـ هل تعلمين يا شروق؟ أجابها بسؤال.

ـ ماذا؟

ـ لقد اختبرت قبلك نساءً كثيرات. ولكنّي منذ أن عرفتك لم أذق غيركِ. صدّقي أو لا تصدّقي. أنت نيوفرجن يا شروق.. لا تُقرأ الداتا النسائيّة في تاريخي على برنامجك المتطوّر. لقد ألغيتِهنّ جميعًا.

ـ لقد منحتكَ حبّي العميق.. وجسدي.. ولكنّي لا أستطيع أن أمنحك ثقتي كاملة. أنت فَرَاش لا يكفيه ولا مرجُ زهور.

ـ أنتِ امرأة تختلفين عن سواك. لم أبقَ مع امرأة أكثر من خمسة أشهر.. وها نحن الآن لنا ثلاث سنوات. لقد أجبرتني على الإخلاص لك. أنت جزيرة مكتشفات مشوّقة.. وكلّ النساء سواك مراكب أوهام. أجساد الأخريات نسمات حدودها النشوة، وأمّا أنت فالنشوة عندك بدءُ العاصفة.

ـ لماذا لا نتزوّج يا رامز؟ سألت، وقد قرّبت شفتيها ومرّغتهما على شفتيه، فأجاب وبالكاد استطاع الكلام:

ـ الزواج لا يناسب عقليّتي المجنّحة.. الزواج يقيّدني يا شروق.

ـ ويومًا ما؟ إذا وجدتَ روحًا مجنّحة كروحك؟ سألت أيضًا. وتنحنح وهو ينفض سيكارته ثم يرشف رشفة من البيرة على الكومود عن يساره:

ـ عندها.. لن يكون أمامي سواك. وصمتت والفرح برّد قلبها. بيد أنّ القلق الملحّ كان يصطاد من قلبها طيور البهجة الحذرة، تمامًا، كالطيور الخائفة من الفزّاعات وسط مروج القمح. قالت:

ـ سيُكشَف أمرنا عاجلاً أم آجلاً يا رامز.

ـ أنا أنفّذ لكِ كلّ ما تطلبين.. وأفعل كلّ ما أستطيع لكي نبقى بعيدَين عن العيون. وإذا حدث ما تخشينه.. سنعالج الموضوع في ساعتها. دعينا الآن نشرب نخب السعادة الحاضرة. ويقرّب شفتيه بدوره إلى أذنها، ويثير في لجين عنقها موجة من المتعة. قالت:

ـ قلبي يُنبئُني بنهاية ليست سعيدة. لا أفهم هذا.. لقد بات القلق

بومة تزورني صباحًا ومساءً، وفي الكوابيس.

كانت هواجس المسكينة شروق في محلّها. أغنية المستقبل الحزينة لم تكتمل إيقاعاتها بعد.. وهذا القلق الغريب كان عرّافها الصادق الذكي. لماذا نعاج السعادة، دائمًا، وطيور الفرح العظيم لا تشرب إلّا في البرَكِ الآسنة؟ ما ذاقت شروق سعادة إلّا في هذه العلاقة الممنوعة. هذا الكلام دار بينهما غير مرّةٍ، ويعودان إلى نقطة الصفر. وتأكّد لها مع الزمن، أنّ رامز لن يتزوّج أبدًا.. هو رجل اللذّات العابرة للمخادع والأجساد، فقط. بيد أنّ العمر يمرّ سريعًا! وعمر المرأة لا ينتظرها، فأجبرَها أن تفكّر جدّيًّا في الزواج. هي المثقّفة النفسانيّة، وصاحبة الجاذبيّة الجنسيّة الباهرة، بمقدورها أن تجد رجل أعمال آخر وبسهولة، مهندس، أو طبيب، أو سياسيّ، أو أيّ رجل شأن عامّ بارز.. ولو كان هذا على حساب العقدة الوجدانيّة القويّة المشكولة برامز. الانفصال عن رامز ليس سهلاً البتّة، سيُدميها ويُحطّمها. لقد جاءتها، ذات يوم، سميحة صديقتها منذ السنة الأولى في الجامعة، وهذه تجهل قوّة التيّار الذي يجرف شروق، وسألتها:

ـ أليس هناك عريس يحوّم يا شروق؟ لا تقولي إنّه لا يُعجبك رجل ما؟! وتجيب شروق باقتضاب:

ـ الزواج نصيب يا سميحَة.

ـ ستصبحين دكتورة عن قريب.. وآخرتا؟

ـ لم يحضر بعد الرجل المُقنِع، تجيب شروق.

ورغم كثرة المناسبات التي تشكّل فرصة لحضور هذا الفارس المُقنع، إلّا أنّ وجدانها المأسور برجولة رامز، السوبر مُقنعة، كان حائلاً يمنعها من فتح أبواب حصونِها لمغامر آخر. عقلها يريد هذا

الرجل المُقنِع وهو مقتنع برامز! ولا تدري أنّ المأساة تكمن لها في العتمات الآتية. لقد ظنّت المسكينة أنّها غرست جنائن بهجتها مع رامز بعيدًا عن عيون الفضوليّين والنمّامين. والحقيقة أنّ هناك عينًا شرّيرة كانت ترصد كلّ حركاتِها، وتنتظر نضوج غرساتها في الربيع المقبل، وكانت توثّق هذا الغرام الخائف، وتسجّله في دفاتر الابتزازات الوسخة هي الأخرى. وقرأت هذه العين الخفيّة فصول الرواية المضطربة بدقّة وشوق، ودرست نقاط ضعفِها ونقاط القوّة، وراحت تطبخ طبختها. وهكذا انتهى فصل السعادة الكاذبة في حياة شروق، لتبدأ جلجلة المأساة. وعندما تخسر المرأة حبّها الوحيد، والكامل، تتبعثر عواطفها وتطيش في متاهة الرجال.. علّها تحظى بشبيهٍ مساوٍ لخسارتها، ولن تحظى.. فتبقى منحدرات الهاوية، وفي كلّ الاتّجاهات، هي الخطوات التالية بعد الوصول إلى القمّة.

كانت البداية رسالة SMS من مجهول إلى هاتف رامز، تقول له: «لقد كشف الرادار غراميّاتك السرّيّة، وأيضًا وكر الحبّ في (فتقا)، وعصفورتك الفاتنة شروق. أنا مستعدّ للاتّفاق. إنتظر علامتي». وأحزنته صدمة المفاجأة. ولكنّه لم يخبر شروق بهذا الاتّصال، لولا رسالة مماثلة في فترة لاحقة جاءَت إلى هاتف شروق: «الغرام السرّي بات في مجال راداراتنا، والحبّ المجنون المشتعل في (فتقا)». وطيّرت هذه الرسالة عقل شروق، وأُصيبت بنوبة (ستريسْ) حادّة وكآبة. وكان حزنها مختبئًا مذعورًا، لا يشعر به أحد. ثم راحت الأسئلة تضجّ في رأسها مع لكمات الذعر، وجافى النوم عينيها. كانت في المرحلة النهائيّة لمشروع الدكتوراه، فأرجأته، وكان عذرها أمام الجميع، أنّها تريد أن تستريح لفترة ريثما تجد المراجع الضروريّة. وكان موعد اللقاء المقبل في أيلول. فبعثت برسالة إلى رامز تقول له:

ـ هناك مستجدّات خطيرة يجب أن نلتقي قريبًا. وردّ رامز عليها:

ـ نلتقي يوم الجمعة مساءً في الخامس من تمّوز المقبل الساعة السابعة في (فتقا).

بيد أنّ هذا اللقاء لم يحدث، وعاشت على أملٍ كاذب. ولم تلتقِ برامز بعدها أبدًا. لقد رحل رامزَ من حياتِها، هكذا كيمامة ساحر! وانتهت سكرات الحبّ بفكرة الفراق، تمامًا، كما يصحو المرء فجأة، من حلم جميل. لم يكلّف رامز نفسَه عناءَ النظر إلى ورائه.. فيرى الدمار الهائل، الذي أحدثته قنبلته في ذات شروق.

كانت شروق، في الموعد المحدّد في الخامس من تمّوز، قد استقلّت سيّارة التاكسي من منزلها في الشيّاح، قاصدة إلى (فتقا). وصلت حوالى السابعة والنصف مساءً. نقدت التاكسي الأجرة، وخرجت من السيّارة. كان الصبية الصغار يلعبون كرة السلّة في الطريق، شعرت بنظراتهم كأنّها سهام تخترق أعماقها، فصوّبت وجهها إلى الأرض حتى لا يقرأوا اسم رامز في عينيها، ويكتشفوا سرّها. وأخذت المصعد إلى الطابق الخامس. وشدّ ما كانت الدهشة مرعبة! عندما فتح لها الباب رجل خمسينيّ لا تعرفه.

ـ مين أنت؟ رامز مش هون؟ سألت بكلمات هاذية كأنّها تمتمات محتضر.

ـ السيّد رامز ليس موجودًا.

ـ أين هو؟ ماذا يحدث هنا؟!

ـ رامز غير موجود، لأنّه لم يعد مالكًا لهذه الشقّة. أنا المالك الجديد.. تفضّلي، تفضّلي.. بماذا أستطيع أن أخدمَك؟

ـ وهل باع رامز الشقّة؟!

ـ أجل.

ـ متى؟! كيف؟! لماذا؟! سألت غير مصدّقة حقيقة الموقف.

ـ منذ أسبوعين، أجاب الرجل.

ـ هل هذه مزحة؟ مش معقول! وسحبت هاتفها الخليويّ واتّصلت به، وأجابها صوت غريب هو الآخر:

ـ من المتّصل؟

ـ أريد السيّد رامز شعبان من فضلك.

ـ إنّ الرقم خاطئ سيّدتي.

ـ عفوًا.. أهذا رقم هاتفك؟ وقال لها الرجل الرقمَ الذي طلبَتهُ.

ـ هل تعرف رامز شعبان؟ سألت والذعر يشلّ كيانها.

ـ عفوًا سيّدتي.. لم أسمع بهذا الاسم قطّ.

* * *

١٣

سيِّدي الرئيس،

عندما رُحتُ أتصفّح المراجع، وأقرأ عن الساسة الكبار، مصمّمي الجغرافيا السياسيّة في العالم، والتاريخ أيضًا، أُعجبت بالمبادئ السامية التي نادوا بها، مرارًا وتكرارًا. قرأتُ مثلاً، مبدأ الرئيس الأميركي أيزنهاور، الذي أعلنه في الخامس من كانون الثاني ١٩٥٧، في رسالة وجّهها إلى الكونغرس عندما ألقى خطابه السنوي. وتمحور المبدأ حول فكرة «سدّ الفراغ السياسيّ» الذي نتجَ في المنطقة العربيّة بعد انسحاب بريطانيا منها. فطالب بـ «تفويض» الإدارة الأميركيّة لتقديم مساعدات عسكريّة لدول تحتاج أن تدافع عن أمنِها ضدّ الأخطار الشيوعيّة. ما هو هاجس الرئيس أيزنهاور يا ترى؟ أمن هذه الدُّوَل. . أم محاصرة العدوّ المتمادي في نموّه وقوّته؟ هو لا يريد المواجهة المباشرة مع السوڤييت! وإنّما يريد، بهذه السياسة، مقاومة التسلّل السوڤييتي إلى الشرق الأوسط، بتحصينه بعناصر القوّة المناهضة

للشيوعيّة. وكذلك تقديم المساعدات الاقتصاديّة، حتى لا تؤدّي الأوضاع الاقتصاديّة السيّئة إلى انتشار وباء الماركسيّة. ترى ماذا يقصد أيضًا «بالخطر الشيوعي»؟ وهل الشيوعيّة خطر حقيقيّ؟ وعلى من خطر؟ هي خطر.. ولكن ضدّ مصالح أميركا والرأسماليّة في العالم. إنّ الشيوعيّة باقية حتى ساعتها بأفكارها ورموزها وأركانها وثقافتها، دخلت إلى الشرق الأوسط، وإلى الكثير من الأمم، ولو بصيغ مطعّمة بالقليل من الحرّيّة الرأسماليّة، وقد مضى على خطاب أيزنهاور ستّون عامًا! وقد لاقى هذا المبدأ، وهذا للتاريخ، معارضة هزيلة من بعض العرب، بحجّة أنّه سيؤثّر سلبًا على لحمة العرب، في النهاية، عن طريق تقسيمهم إلى فريقين متنازعين: أحدهما مؤيّد للشرق وآخر للغرب. كان هذا منذ ستّين عامًا، وهو هكذا اليوم، وسيبقى، بلا شكّ، لستّين عامًا أخرى آتية. وبالرجوع مسافة قرن من الزمن إلى الوراء، إلى نقاط الرئيس ويلسون عام ١٩١٨ الاثنتي عشرة، حيث كان همّ ويلسون السلام العالمي، وليس في الشرق الأوسط وحسب. يا للطوباويّة المثاليّة! كان هذا الإعلان شبه إدانة لسايكس بيكو الذي سبق مبادئ ويلسون بسنتين اثنتين. دعا ويلسون إلى منح القوميّات التي كانت تخضع لسلطان الدولة العثمانيّة «كلّ الضّمانات» المتاحة لتثبيت حقّها في الأمن والتقدّم والاستقلال. وطلب أيضًا من حلفائه الأوروبيّين التخلّي عن سياساتهم الاستعماريّة، واحترام حقّ الشعوب في تقرير المصير. إنّ أفكار ويلسون الخياليّة تشكّل نكتة كبيرة في يومنا هذا! بالمقارنة مع سلوكيّات الرؤساء اللاحقين، خصوصًا في الشرق الأوسط. وإذا كان ويلسون جبرائيل الملاك.. فكارتر بلا شكّ هو عزرائيل.. وكيسنجر أيضًا بعلزبوب[1]. أو إذا قرأنا مثلاً أفكار جون

---

(١) من أسماء الشيطان.

لوك[1] في (فلسفة السياسة) سنكون قد استمعنا إلى مسرحيّة هزليّة تاريخيّة، هو الذي كتب كثيرًا عن التسامح. لقد انتقد لوك (الحكومة المدنيّة) أي السلطة السياسيّة التي لا يمكن أن تكون إلّا مَلَكيّة (كما في أيّامه)، وانتقد (السلطة الأبويّة) للملوك التي رُوِّجَ لها أنّها قامت كنتيجة تاريخيّة طبيعيّة حتميّة، أي بالثورة. يقول لوك إنّ هذا خطأ تاريخيّ كبير، والحلّ، برأيه، في العودة إلى الحالة الطبيعيّة عند الإنسان. والحالة الطبيعيّة هي الحرِّيّة والمساواة، فلا تبعيّة ولا طاعة أو خضوع بين البشر، والذين ولدوا من فضاءٍ واحد ونظام واحد لا اختلاف بينهم، ولديهم المؤهّلات عينها. وهذه الحرِّيّة الطبيعيّة لها حدود طبيعيّة أيضًا. والقانون هو العقل الذي يقول إنّ الجميع سواسية مستقلّون، لا يُلحِق واحدهم الضرر بالآخر، لا في الحياة ولا الأمن ولا الحرِّيّة. الله يا جون لوك! يا أستاذ جون أنت، بكلّ تأكيد، من نظام آخر، وفضاءٍ آخر سوى فضاءاتنا الملوّثة هذه.. أنت رسول سماويّ ملعون! بيد أنّ المعضلة التي واجهت جون لوك، هي هي دائمًا وأبدًا، أنّ لكلّ فرد مُلكيّة وحرِّيّة وأمن واستقلال وسيادة مطلقة على ذاته، الجميع يملكون كلّ هذه الامتيازات، والقسم الأكبر من البشر لا يحترم الحرِّيّة والمساواة والعدالة! لا بدّ والحالة هذه من علاج. من هنا كانت النقلة، عنده، من الحالة الطبيعيّة إلى السياسة، أي الاجتماعيّة. والاجتماعيّة هي قرار الاتّصال بالآخر من أجل الحماية المتبادلة للأمن والحرِّيّة والعدالة. ولضمان الحصول على الحقوق دون التعرّض لأذيّة الآخر، لا بدّ للجماعة من قوانين تتمّ من خلالها المحاسبة وتنفيذ الأحكام. من هنا تكوّن الثالوث الجوهريّ للاجتماع السياسيّ:

---

(١) فيلسوف تجريبي، ومفكّر سياسي إنكليزي ١٦٣٢ ـ ١٧٠٤. تأثّرت الثورة الأميركيّة بطروحاته.

١) القوانين المعروفة والواضحة والمُجرّبة. ٢) الجسم القضائيّ الذي يحكم بموجب القوانين بموضوعيّة، وهذا ممكن لأنّه لا يطبّق قانونه الشخصيّ بل قانون المجتمع السياسيّ. ٣) السلطة القادرة على تنفيذ الأحكام. وهذا ممكن أيضًا، لأنّ من سيملك زمام السلطة، يملك القوّة المشتركة المخوّلة من كلّ الجسم الاجتماعي.

النقلة التالية ستكون نحو (العقد الاجتماعي). وهذا العقد لن يجعلنا نخسر أو نفقد حقوقنا في تبادلها مع الآخرين، لأنّ (العقد الاجتماعي) سيحمي الحقوق الطبيعيّة. وسوف يتمّ التخلّي عن الحقوق التي ليست من الأولويّات، لأنّ الدولة ستنوب عن الفرد في ممارستها، وسيكون هذا لصالح الجماعة. وكمحصّلة نهائيّة لما سَبَق، فإنّ الحقوق انتقلت إلى الدولة بعد أن كانت في الحالة الطبيعيّة. وللدولة أيضًا الحقّ في تفسير القانون الطبيعي والحقّ في الحكم، وفي العقوبة. وصار للمجتمع السياسي سلطة مشرّعة وأخرى قضائيّة وأخرى تنفيذيّة. وأمّا بالنسبة للحقوق الفرديّة، فقد انتقلت من حقّ المُلكيّة الطبيعيّ إلى حقّ الملكيّة القانونيّ.

وخلاصة الكلام، يا سيّدي الرئيس، أنّ القانون في نهاية المطاف هو الذي يحقّق العدالة والسلام، في حدود احترام حقّ وحرّيّة الآخر. بيد أنّ القانون منتج بشريّ هو الآخر! والإنسان ضعيف في كلّ ما جادت به قريحته، وأبدعه ذكاؤه الخلّاق. ولا منتج كامل على الإطلاق، وإنّما هو في رحلة التطوّر والتمرحل، دائمًا وأبدًا. قوانين البشر ناقصة لأنّ البشر ناقصون يا فخامة الرئيس. ولأنّ القانون ناقص.. هو مليء بالثغرات.. فتسلّلت والحالة هذه، أفاعي الخداع من هذه الثغرات لتوغرَ صدر الإنسان على أخيه الإنسان. وهذه الثغرات إن هي إلّا مساحات رماديّة، يختبئ فيها الإنسان القويّ، فلا

الأسود يشيرُ إليه، ولا الأبيض يفضحُه. أوليست «الحصانات» ملاجئَ «المحصّنين» من سلطة القانون؟ هذا من جهة. ومن جهة ثانية تقزّمَ جَبَروتُ السلطة ليجعل من المال ماردًا مخيفًا. حتى قوّة السلاح (السلاح الرسمي وغير الرسمي) باتت جرادة إزاءَ هيبة هذا العملاق.
وإذا نظرنا إلى القوّة بالدرجات، في هرميّة السلطة، فإنّ المال هو القمّة، ويليه السلاح ثم القانون في أسفل الهرم. وبدل أن يكون السلاح (المقصود هنا السلاح الرسمي فقط) حاميًا ومنفّذًا للقانون، بات خادمًا خاضعًا لقوّة المال وتعويذاته الماكرة. لقد قامت عصبة الأمم في نهاية الحرب العالميّة الأولى، ثم الأمم المتّحدة في نهاية الحرب العالميّة الثانية بغاية تحقيق القوانين والمواثيق، فتصبح القوانين فيصلاً بين النزاعات الأمميّة. وحتى ساعتها لم يمنع هذا «القانون الأمميّ» المزعوم حربًا واحدة من الحروبِ الناشبة في كلّ بقاع هذا الكوكب. لماذا؟ لأنّ القانون لا حولَ له ولا قوّة! الحرب تشعلها قدّاحة المال، والقانون تخرسُه كِمَامة المال. وهكذا الكبار، صنّاع القوانين والمواثيق، تتحكّم في صراعاتِهم قوّة المال، والمال فقط.
قال تشرشل عند نهاية الحرب العالميّة الثانية: «إنّ الصراع المقبل سيكون في الشرق الأوسط»، الشرق الأوسط بلاد الذهب الأسود / اللعنة السوداء. وهكذا تنبّأ تشرشل عن حقيقة مرعبة نعيشها الآن في شرقنا البائس، وهي أنّ الشرق الأسود بذَهَبِه وبؤسِه بات الساحة الأكثر سخونة، من بين ساحات الصراعات الأمميّة الأخرى، محلِّيّة كانت أم عالميّة. لماذا؟ ألا يحقّق القانون توزيعَ النفط بالتساوي بين حاجات جميع الشعوب؟ أيّ قانون سيَحفظ التوزيع العادل؟ أيّ قوّة ستنفّذ القانون؟ إذا كان السلاح جارية عند سلطان المال، والصراعات ثورة وتحايلاً على القانون؟ قال بابا روما ذات يوم، متألّمًا من جشع

الكبار: «إنّ أميركا تفضّل إتلاف منتوجها من القمح، وهو المنتوج الأوّل في العالم، على أن تخفّض سعره في السوق العالميّة، وملايين من البشر يموتون جوعًا في أفريقيا». لقد تحوّل القانون، في نهاية المطاف، يا سيّدي الرئيس، إلى قصيدة غزليّة، وتراسل بروتوكوليّ دبلوماسيّ يُطربُ به الساسة آذانَ الجماهير. وفي أحيانٍ كثيرة، ممسحة لقذاراتِ الساسة ونجاساتهم.

* * *

أدركت شروق، أخيرًا، أنّ الزواج هو الوسيلة الوحيدة للتخلّص من جروح الماضي، وعبثيّة الحُبّ الجامح / الجانح، فراحت تستعجل إيجاد العريس. والواقع أنّ الأيّام كانت أسرع إليها في ما تدَّخِرُه لها من الآلام. لم تمضِ شهور قليلة على نهاية العلاقة بينها ورامز، حتى ظهر رجل استطاع أن يشكّل طينة عقلها بأنامل خزّاف ماهر. إنّه البروفسور الذي ناقشت معه أطروحة الدكتوراه. رجل في بحر أربعينيّاته، رجولة كاملة، مثقّف، والأحوال المادِّيّة جيّدة. ومنذ اللحظات الأولى، أبدى إعجابًا بها، وشجّعها في موضوع الأطروحة وقدّم لها الإرشادات والنصائح. كما زارها في بيتها مرّات.. ثم طلب يدها أخيرًا. شعرت شروق عندها بسلام وطمأنينة. وتفاءَلت أنّ غمامة الجنون السوداء قد زاحت من سماء وجدانها المرهق. وها هي شمس ما بعد العاصفة تشرق ثانية لشروق عبد الله. صارت تخرج معه، وعاشت أيّامًا رائعة أنستها مرحلة رامز. وشدّ ما كانت المفاجأة الكبرى صادمة.. عنيفة.. متوحّشة.. وضربة قاضية! عندما قال لها البروفسور، ذات مساء، وكانا معًا، في مقهًى منعزل:

ـ شروق.. سأكون صريحًا معك، وواضحًا جدًّا.. نحن غير متلائِمَين. لقد فكّرت كثيرًا قبل أخذ القرار. يجب أن ننهي العلاقة

اليوم.. بسلام.. وقبل الغد. لأنّ الغد أكثر إيلامًا من اليوم، ولكلينا. كانت كلماته، بالنسبة لها، كأنّها «عمليّة إرهابيّة» يفجّر بها المقهى.. والشارع.. وعالم شروق.. وتاريخ شروق.. والوجود بكامله! سألت وهي غير مصدّقة ما تسمع:

ـ ولكن لماذا؟!

ولم تنل منه جوابًا مريحًا.

فيما بعد عرفت شروق، وتيقّنت، أنّ طيور الحبّ في وكر (فتقا) طارت.. وطارت بعيدًا.. وأذاعت سرّ هذا الجنون الذي عبث بها خمسة أعوام. ظنّت أنّ ثقافتها وجسدها الفاتن المثير، إكسير يعقّم ماضيها من جهة، ويذوّب مقولات الأخلاق عند الرجل من جهة ثانية، وفي النهاية يطلب الرجل الفراش. فاتها أنّ الرجال أصناف! ويبحث الكثيرون منهم عن المرأة الأحجية التي لم يحلّ لغزها رجل بعد. واسودّت الدنيا في عينيها حتى اليأس. ولكنّها لم تشرب بعد مراراتِ كأسها الكبير، وخبائثُ الأيّام تكمن لها عند المنعطف الأخير.

* * *

وقفز الداهية ديب عساكر إلى الإعلاميّة ريهام بدوي، ذات يوم، ليقول لها:

ـ بالعربي المشَبْرح بدّي أطحش عا رامز شعبان.

ـ لماذا؟ شو عِملّك رامز شعبان؟ سألت ريهام.

ـ لم يفعل شيئًا. ولكنّه لم يسيّج حول كرومه جيّدًا. والرزق السايب يعلّم الناس على الحرام.

حوار خبيث، هو الآخر، كان دائرًا بين الإعلاميّة ريهام بدوي

والمهندس ديب عساكر في أحد المؤتمرات الصحافيّة لأحد رجال الشأن العامّ.

ـ ألا تنتظرني حتى أنتهي؟ إلحق بي إلى مكتبي بعد المؤتمر الصحافي، قالت ريهام لديب متأفّفة من إزعاجه.

ـ أنتِ مشغولة وأنا أيضًا. والموضوع واضح وبسيط، قال ديب.

ـ واضح وبسيط! كلّ مواويلك معقّدة ومخيفة يا رجل. إنتظرني في ردهة المدخل ريثما ينتهي المؤتمر.

وانتهى المؤتمر وبدأ الجميع يهمّ بالخروج. واقتربت ريهام من ديب، وتنحّيا إلى زاوية الردهة.

ـ هه.. ما الموضوع يا أستاذ ديب؟

ـ بالمختصر. أريد محاصرة الاقتصادي رامز شعبان.

ـ كيف؟ سألت ريهام.

ـ سوف تعلنين في برنامجك التلفزيوني عن موضوع الحلقة المقبلة.

ـ أيّ موضوع؟

ـ الموضوع سيكون (الفضيحة المتعلّقة بالاقتصادي الكبير رامز شعبان). وتقولين إنّ عندك وثائق دامغة.

ـ ألا يعرّضني هذا لأذيّته؟ سألت بهدوء، وعيناها تترصّدان أفكار ديب.

ـ لا، البتّة. رامز تهمّه كثيرًا سمعته العطِرَة.

ـ وبعدها؟

ـ لا شيء. تنتظرين حتى يتّصل هو بك. وسيفعل. وفور اتّصاله تخبرينني وتنتهي المهمّة.

ـ فهمت الموضوع. عمليّة ابتزار!

ـ هذا بزنس وليس ابتزازًا.

ـ لا.. حاشاك.

ـ أريد أن أشتري منه شَروة. ولكنّي أريدها بالثمن الذي يناسبني.

ـ وما نصيبي أنا من هذه الصفقة؟ سألت ريهام.

ـ لن نختلف. سيكون لك ما تشائين.

ـ وهل أنت واثق من ردود أفعاله؟ ألن يطلع لنا مفاجآت؟

ـ أنا واثق تمامًا منه. إنّه تحت مجهري منذ زمن.

ـ لقد جرّبتك في صفقة سابقة، وكنت صادقًا معي. وإذا ختلتني في هذه.. لن أفوّتها لك على خير.

وهكذا كان. فقد طلعت ريهام، في إحدى حلقاتها الحواريّة الاجتماعيّة، لتعلن أنّ عندها وثائق دامغة، مرتبطة بفضيحة كبيرة.. والاقتصاديّ المعروف رامز شعبان ضالع فيها بشكل وبآخر، وستعرضها في الحلقة المقبلة.

بيد أنّ المفاجأة كانت مذهلة! وخيّبها رادار توقّعاتها هذه المرّة، عندما دخلت عليها السكرتيرة، بعد أيّام، لتقول لها إنّ السيّدة شروق عبد الله تنتظرها خارجًا.

ـ شروق عبد الله؟!

ـ وتقول إنّها صديقة قديمة، أوضحت السكرتيرة. جحظت عينا

ريهام، وهلّت أساريرها:

ـ آه.. شروق!! شروق عبد الله. إنّه عمر. يا للمفاجأة السارّة! دعيها تدخل حالاً.

ودخلت شروق. وتعانقتِ الصديقتان الفاتنتان عناقًا باكيًا استمرّ لدقائق، وجلستا قرب الزجاج المشرف على الشاطئ.

ـ رزق الله أيّام زمان! لقد تغيّرتِ كثيرًا.. وتحلّيتِ كثيرًا، قالت ريهام وهي تنظر إلى قامة شروق، وجاذبيّة ملامحها.

ـ وأنتِ أيضًا تغيّرتِ، وتحلّيتِ كثيرًا، وأصبحتِ مشهورة، أجابت شروق.

ـ لا تؤخذي كثيرًا بظاهر الأشياء يا شروق. حقيقة الأمر غير ما ترينه بالكامل. أنا بحاجة ماسّة إلى ومضة طمأنينة من عالم الماضي البريء، الذي كنّا نعيشه أيّام الجامعة. أتذكرين؟ لقد جئتِ في الوقت المناسب.

ـ ألستِ سعيدة يا ريهام؟ سألت شروق بدهشة.

ـ خدعة كبيرة هو عالم الشهرة يا شروق. خبّريني عنّك أنتِ.. كيف الأحوال؟ ألا زلت عزباء؟ وتنهّدت شروق تنهيدة طويلة، واستطاعت ريهام بسهولة أن تقرأ لغة الكآبة المرسومة في عينيها:

ـ أجل. لا زلت عزباء.

ـ لماذا؟ أنتِ مثقّفة.. وساحرة.. ما شاءَ الله!

ـ هل تسمحين؟ أريد أن أولّع سيكارة.

ـ لا أقبل. أعيديها. أنتِ ضيفتي.. ولّعي من هذه. ورفعت إليها الصينيّة المزركشة والمليئة بأنواع السكاير. أخذت شروق سيكارة

وأشعلتها. أضافت ريهام:

ـ لا أريد أن أطلب القهوة بسرعة.. لأنّي أريد لهذه الزيارة أن تطول.

ـ هذا يتوقّف عليكِ يا ريهام. قصدت إليك في خدمة.

ـ من هالعين قبل هالعين. تكلّمي يا شروق ما بكِ؟ وصمتت شروق صمتًا كلّ ثانية بعام، ثم راحت تنفث الدخان في الفضاء. ورأت ريهام عينيها تترقرقان والرجفة الخفيفة في أناملها، فألحّت عليها:

ـ أريد أن أساعدَك يا شروق.. قولي ما بك أرجوك؟ وتكلّمت شروق:

ـ ريهام.. ما قصّتك مع الاقتصاديّ رامز شعبان؟ وامتُقعت ريهام وأخرستها المفاجأة. هذه لا مكان لها في حسابات ديب البتّة. فتصادمت الأفكار في ذهنها، وأجابت بسؤال:

ـ وهل تعرفين رامز شعبان يا شروق؟ وأجابت شروق بما يشبه التوسّل:

ـ لقد جئتك، يا ريهام، باسم الصداقة القديمة بيننا. عهدتُكِ قلبك كبير وعاقلة. أرجوك أبقِ موضوع هذا اللقاء، والكلام بيننا الآن طيّ الكتمان. وخرجت ريهام عن طورها، وتكلّمت بصوت عالٍ:

ـ أنا بئر أسرار يا شروق.. سأعمل المستحيل لمساعدتك، ولن أسمح بأن يمسّكِ أذًى. تكلّمي، أرجوك.

ـ هل هناك علاقة بينك وبين رامز؟ وضحكت ريهام، وتنفّست الصعداء قائلة:

ـ لا أعرفه ولا مَن يحزنون. . لم أرَه إلّا في صور المجلّات! صدّقيني. فاستراحت شروق وتكلّمت عندئذٍ:

ـ أنا ورامز على علاقة منذ خمس سنوات. ومنذ أشهر جاءَتني رسالة تهدّد بفضح هذه العلاقة، والتي عملتُ المستحيل لكي أبقيها سرِّيّة طوال تلك السنوات. ولا أدري مصدر هذه الرسالة. واختفى رامز كأنّ الأرض انشقّت وابتلعته. ثم سمعت كلامك الأخير في الحلقة السابقة. . فانهارت أعصابي وخفت من فضيحة مُحتملة. وشَرَقت شروق بدموعها.

ـ هكذا هي الحكاية إذًا! قالت ريهام وقد تنفّست الصعداء. وناولت شروق علبة المحارم ـ الكلينكس، ثم طلبت المشروب الغازيّ على الإنترفون، وجلست إلى جانبها تحتضنُها وتخفّف عنها. وقالت:

ـ فهمت الآن ما هي الحكاية. . وأكثر ممّا أنتِ تعرفينها بكثير. أَلا زلتِ تحبّينه؟

ـ نهاية هذه العلاقة كانت مؤلمة جدًّا؟

ـ كيف وقعتِ هذه الوقعة المنحوسة يا شروق! لقد استغلّك هذا الماكر. . خمسة أعوام. . وتبخّر. كلّهم يفعلون الأمر نفسه. عليك أوّلاً أن تضعي حدًّا للماضي، نهائيًّا، وتفتحي صفحة جديدة. وأمّا بخصوص. . الفضيحة. فهذه لعبة أعرف أنا من هو مصمّمها. وتأكّدي يا شروق. . أقسم لكِ بكلّ عزيز أنّه لن يعرف مخلوق بهذه العلاقة بينكما. وهذا وعد من ريهام بدوي الصديقة القديمة. كفكفي هذه الدموع الثمينة. «بتبكي كرمال ثعلب شيطان»؟!

ـ أنتِ لا تدركين عمق العلاقة التي كانت بيننا.

ـ ستنسين يا شروق، صدّقيني.. ستنسين. الحياة لا تساوي شيئًا.. وهي ماضية.

ـ ولكن.. كيف ستتحدّثين عنه وأنت لا تعرفينه؟! سألت شروق وهي تتمالك وتمسح وجنتيها.

ـ هذا شرح طويل، إنسي الأمر بالكامل. كنت أحبّ أن نلتقي بغير هذه الظروف.. والظروف أقوى دائمًا.

وأدخل الخادم المشروب الغازيّ والقهوة. وهدّأت ريهام شروق وطمأنتها، حتى انتهت موجة «الستريس»، وعادت إليها روحها. فتحادثتا كثيرًا في الماضي والحاضر وما يمكن أن يكون عليه المستقبل. سألت ريهام:

ـ متى أنهيتِ الدراسة؟ ألن تفتحي عيادة؟

ـ إنّي أفكّر بهذا. ولكنّي الآن.. أنا من أحتاج إلى الطبيب، وإلى فرصة نقاهة وشفاء كامل. لا أستطيع تقديم العلاج للآخرين وأنا نفسي بحاجة إليه. وكان حبلٌ من الصمت.. ثم عادت ريهام، وقالت:

ـ أعتقد يا شروق أنّي سأكون مريضتك الأولى..

ـ ماذا؟!

ـ أجل يا شروق. أنا متعبة نفسيًّا.. أكثر ممّا تتصوّرين.. أعصابي مهترئة. لقد انتكستُ غير مَرَّة، ثم تحسّن الوضع.. موقّتًا.

ـ أنا مندهشة ممّا تقولين! قالت شروق وهي تنظر مليًّا في عينيْ ريهام، تحاول أن تترصّد حركة الألم في بريق عينيها.

ـ لا تستغربي. لن يكون هذا اللقاء الأخير بيننا.. سنلتقي كثيرًا.

أعطيني رقمك وعنوانك وبريدك الإلكترونيّ.

وتبادلا الأرقام الهاتفيّة والعناوين. وخرجت شروق. أمسكت ريهام الهاتف، من فورها، واتّصلت بديب:

ـ إسمع يا ديب. أريد أن أنسحب من موضوع رامز شعبان.

ـ لماذا؟ هل اتّصل بك؟

ـ لا.. ولكنّ موضوعه سيؤدّي إلى تداعيات مضرّة بآخرين. وأنا لن أسمح بهذا الضرر المحتمل.

ـ لن يكون هناك ضرر بأحد يا ريهام. أنتِ لن تقولي شيئًا في برنامجك عن الرجل. الأمور ستبقى تحت الطاولة. المقصود هو وحدَه.

ـ الفضيحة ستؤذي أشخاصًا عديدين يا ديب.

ـ لم تفهمي.. لن يكون هناك فضيحة البتّة. هذا مجرّد ضغط. وعندما يتّصل بك سنطلب منه ما نريد، وينتهي الأمر.

وهكذا كان.. فقد رنّ هاتف ريهام بعد أيّام، وهي في مكتبها، وقالت لها السكرتيرة:

ـ السيّد رامز شعبان على الخطّ.

ـ حوّلي لي الخطّ فورًا.

ـ صباح الخير أستاذة ريهام. أنا رامز شعبان موضوع حلقتك المقبلة. أجابت ريهام بنبرة شُجاعة واثقة، وباقتضاب:

ـ أهلاً سيّد رامز. بماذا أستطيع الخدمة؟

ـ كم تريدين لكي «تكنسِلي» موضوعي من أجندتك المقبلة؟

ثلاثين ألف. . ستّين ألف. . مئة ألف؟ أريد إنهاء هذه المسألة الآن.

ـ أنا مستعدّة للإتّفاق معك، لقد فاجأني اتّصالك بصراحة. وبالتأكيد لن أتحدّث عنك في برنامجي. سأتّصل أنا بك بأقرب فرصة ممكنة.

ـ هل أضع يديّ بماءٍ باردة؟ سأل رامز.

ـ أجل. إطمئنّ سيّد رامز، وثق بي.

ـ سأنتظر إذًا اتّصالك قبل حلول الأسبوع المقبل.

ـ أوكي.

وأخبرت ريهام ديب من فورها بمضمون هذا الاتّصال السريع من رامز. وقال لها:

ـ ألستُ أنا نبيًّا يا أستاذة؟ لقد أحسنتِ. شكرًا على المساعدة. تستأهلين الحلوَيني مع حبّة مسك.

ـ لقد وعدته أن أتّصل أنا به. ماذا لو عاد واتّصل بي ثانية؟ سألت ريهام.

ـ لا. . لن يتّصل أبدًا. أنا سأتّصل به لأقول له ماذا أريد. لقد انتهت مهمّتك أنت. وألف شكر لك.

ـ لقد وعدتني أن لا فضائح.

ـ لا فضائح، صدّقيني يا ريهام. دورُك انتهى.

وراح ديب يهندس لقاءَه مع رامز شعبان، ويصمّم الشكل الذي سيطرح فيه مشروعه. فكّر مليًّا ثم أمسك هاتفه واتّصل به:

ـ آلو. . من المتكلّم؟ سأل رامز.

ـ المهندس ديب عساكر.

ـ أهلاً أستاذ ديب. تشرّفنا. ما القضيّة؟

ـ لقد اتّصلت بك لأخذ موعد، وليس للكلام على الهاتف.

ـ ألا يحقّ لي أن أعرف دواعي اللقاء؟

ـ لا تخف سيّد رامز.. هي صفقة لا أكثر. والصفقات الحرزانة، كما تعلم، لا تناقش على الهاتف.

ـ حسنًا. متى نلتقي؟

ـ ساعة تشاء. بالمناسبة إنسَ موضوع الإعلاميّة ريهام بدوي. لا دخل لها في صفقتنا، أنا الشخص المعنيّ وليس هي. لقد كانت جسر اتّصال بيني وبينك لا أكثر.

ـ أهذا أنت؟! من وراءَك وماذا تريد؟ سأل بانفعال غاضب.

ـ إهدأ سيّد رامز، سيكون كلّ شيء بالتفاهم.. والرضى المتبادل طبعًا. الموضوع كلّه شغل.

وهكذا التقى الرجلان على الغداء في مطعم فاخر في قلب المدينة. وتحدّث ديب عن مشروعه. وهو ببساطة: العمارات الثلاث في خلدة بعشرة ملايين دولارًا في مقابل الفضيحة.. خصوصًا غراميّات (فتقا) المجنونة! والبنايات تساوي أكثر من ١٥ مليونًا. فصعق رامز لكمين الابتزاز المحكم الذي وقع فيه، وصار يندى جبينه. والذي ظنّه سرِّيًا في وكر الحُبّ في (فتقا)، بات موثّقًا في ملفّات ديب الساخنة. ولكنّه أذعن في نهاية المطاف، حفاظًا على السمعة.. وإبعادًا لأشغاله عن التأذّي. غريب.. بعض الناس! يؤلّهون المظهر الشريف ويحرصون عليه.. ويريدون أن يعيشوا النجاسة سرًّا، في الوقت نفسه. شعر

رامز، وهو جالس قبالة ديب أنّه يكاد يطلع من ثيابه، ويقفز على ديب ويشبعه لكمًا وركلاً وسبابًا. ولكنّه كظم غيظه وتمالك، وسط حشد الزبائن في ذلك المطعم ذي الديكورات الفخمة والرياش الثمين، وأيضًا حفظًا للسمعة. عاد رامز فيما بعد، وأرسل إلى شروق رسالة إلكترونيّة، وخبّرها قصّة التهديد والفضيحة والابتزاز، ودون أن يذكر لها اسم ديب، لسوءِ حظّها! في موضوع عمارات خلدة. كان هذا الاتّصالُ الأخير بين الاثنين، تقديمَ عذر على انسحابه واختفائِه. وأدرك الاثنان بوضوح.. أنّ هذه هي نقطة ختام كبيرة لما كان بينهما. ربّما كانا بحاجة إلى فرملة خارجة عنهما، وقد عجزا عنها، لإيقاف هذا القطار المنطلق بعبثيّة نحو المجهول. وتناثرت فصول حكاية حزينة أخرى، كتناثر الأوراق في وادي الخريف. وهكذا يبدو جليًّا، أنّ إعلان الحُبّ قرار ذاتيّ، وأمّا نهايته فهي رهن المقادير. بيد أنّ «هولاكو» السياسة لا يكتفي بانتصار أو سبيٍ واحد! وهذه اللعبة دَوّارة قلّابة إلى ما لانهاية. لقد أسرت الفاتنة المثيرة شروق قلب ديب! فبدأ إذّاك الجزء الثاني من الدراما الشروقيّة. وهو الجزء الأكثر وحشيّة من الأوّل. غانية أخرى تساق مسبيّة لتصبح جارية خادمة عند قدميْ جَبَروت السياسة.

* * *

ذات يوم، كانت شروق في السوق تتبضّع.. السوق الجديدة ذات المحالّ التجاريّة الفاخرة والزبائن الأثرياء. أحيانًا كانت تخرج بسيّارتها وكثيرًا ما تستقلّ سيّارة أجرة ـ وهي تفضّل هذه. التبضّع هوايتها الوحيدة التي تفرِّجُ عنها غمّها. ويعرف الماكر ديب، بلا شكّ، جغرافيّة حراك يوميّاتها. كان يومًا جميلاً، وكانت تحمل كيسين كبيرين وتمشي مسرعة على الرصيف الأسود، بلباسها الرياضيّ، عند مستديرة

النصُب التذكاريّ. شعرت بشبح سيّارة كبيرة، وفحيح محرّكها الجديد يكاد يلامسها. التفتت إلى يسارها، فإذا هي سيّارة جيب GMC رصاصيّة اللون موديل السنة، تقف بقربها، وينزل الزجاج الدخّانيّ، وتسمع الصوت الرجوليّ الجريء، من وراء نظّارتي رايبن سوداوين والشارب والسوالف الطويلة، يقول:

ـ إصعدي يا أستاذة شروق سأوصلك أنا. ونظرت إليه، فلم ترَ غير السواد يلثّم وجهه، الشارب والسوالف والنظّارتين.

ـ من أنت؟ سألت شروق وهي تحدّق مليًّا في ملامح الفارس الجريء.

ـ هيّا اصعدي. ضعي أغراضك في المقعد الخلفيّ، واصعدي. أنا لا أعضّ.. سأشرح لك كلّ شيء.

فتحت شروق الباب الخلفيّ، ورمت أغراضها، ثم صعدت إلى المقعد الأمامي بجانب السائق. ومدّ يمينه مصافحًا وقال:

ـ المهندس ديب عساكر. هل سمعت بهذا الاسم من قبل؟ سؤال ذكيّ لكي يطمئنّ إلى أنّها تجهله. وصافحته شروق قائلة:

ـ لا.. لم يحصل لي الشرف.. أنا شروق عبد الله.

ـ لا أحتاج منك إلى بطاقة تعريف. أنت تجهلينني.. وأمّا أنا فأعرفك.

ـ تعرفني!! منذ متى؟ سألت بدهشة.

ـ أوه.. من زمان.. زمان كتير.

ـ لماذا؟ هل أنت مُخبر.. وأنا مشبوهة تتحرّى عنّي؟

ـ لا هذه ولا تلك. أنا بصراحة.. مُعجب بك.. قلبًا وقالبًا.

أقولها بلا مقدّمات مضجرة.

ـ هنيئًا لي بك أيّها العاشق الخفيّ! قالت بنبرة مازحة.

ـ أتمزحين؟ لقد عشتُ سنواتٍ خمس، بطولها وعرضها، أذوق الغيرة المرّة.

ونظرت في وجهه، وشقلت حاجبيها، والريبة تومض فيهما. بيد أنّ عبارة (سنوات خمس) هزّت كيانها. وأشعرتها بأنّها سرّ عارٍ أمام فضوليّة هذه الجرأة المقتحمة. فقالت متمالكة:

ـ أنت صريح جدًّا! ويبدو أنّك تعرف الكثير. وحاولت أن ترى عينيه من وراء الرايبن. إرفع النظّارتين حتى أعرف من الذي قرأ تاريخي، وأنا أجهله. أرادت أن تظهر قويّة واثقة في نبرة كلماتها، ولكنّ خفقات قلبها كانت تعنف. ورفع النظّارتين وقال لها:

ـ سأنزع كلّ الحواجز بيننا.. حتى هذه الرّايبن.. هه. وراحت تتأمّل ملامح ديب الصارمة والجذّابة في آن. ورأت في عينيه، بسهولة، رجلاً «يعرف من أين تؤكل الكتف».

ـ ستوصلني إلى البيت أليس كذلك؟ أرادت بالسؤال أن تستعلم عن هدفه الراهن.

ـ لا.. ليس قبل أن أضيّفك شيئًا.

وهكذا جلسا في مقهًى شاعريّ لطيف في وسط المدينة. وراح يشبك خيوطه العنكبوتيّة في كلّ اتّجاه، حتى علقت أشلاءُ عواطفها الممزّقة في شباكه. لقد عرف كيف «يشكّ عليها» في وسط التجربة! تمامًا، كما حضر الشيطان للناصريّ بعد أربعين يومًا من الصوم والعزلة

ليجرّبه[1]. وسقطت شروق في التجربة! أترى ديب هو الذي أقنعها.. أم جوعُها الملتهب إلى الرجل؟ في لقاءاتهما التالية، روى لها «حكاية حبّه» و«لوعة فؤاده»، ووصف لها نفسه ذلك العاشق الولهان، الذي قبع في مكانه صامتًا متألّمًا، ينظر إلى علاقتها برامز كجنّةٍ ممنوعة عليه. وكيف كان يعدّ الأيّام والليالي.. ويراقب من بعيد.. وينتظر.. وأضناه الانتظار كثيرًا.. وذاب قلبه من الغيرة المرّة. أقنعها، ولجّ عليها، بأنّه يريد الاستقرار والزواج. هو عريس مستعجل إذًا! ثم راح يخبّرها عن مآثره وأشغاله الكثيرة... وإذا قبلت به عريسًا سيفتح لها عيادة للعلاج النفسيّ، في أحدث سنتر في وسط المدينة. وأخِذَت شروق بطروحاته الماكرة، واعتقدت أنّ طينته من طينة رامز، من حيث الرجولة والبزنس والطموح. مع الزمن أصبح رامز فصلاً من الماضي، وتبخّر من ذاتها بالكامل. ودارت الأيّام دورانها المذعور! وشفى النسيان روحَها الكئيبة، وتزوّجت شروق عبد الله من ديب عساكر زواجًا سريعًا سرّيًّا، لا ضجّة ولا معازيم. هكذا أراده ديب طبعًا. وأسكنها في شقّة فخمة في الحدَث، أهداها لها باسمِها. وأقام الخدم تحت إمرتِها ترفل بثوب التنعّم ورفاهِ العيش. ولا تدري البائسة أنّ ديب متزوّج من الرسّامة جُهَينة غانم! وعندما راحت تتّصلُ بها، بعد ذلك، ريهام بدوي، كانت تتحاماها.. وتهرب منها نزولاً عند إرادة ديب، الذي أراد إلغاء علاقة شروق بريهام.. خوفًا من افتضاح أمره. وعاشت شروق، أميرة معزولة، جاهلة ما يُحاك لها. ومرّت الشهور.. تشرب السعادة والقلق من كأس واحدة. وشدّ ما كانت دهشتها عندما

(١) إنجيل متّى: الإصحاح الرابع.

دخلت عليها، ذات يوم، سكرتيرتها في عيادتها الجديدة، لتقول لها إنّ الإعلاميّة ريهام بدوي في الخارج تريد مقابلتها. ذهلت شروق.. وأصابها الذعر الشديد! وارتبكت ملامحها عندما رأت ريهام واقفة بقامتها الهيفاء في باب المكتب، خلف السكرتيرة:

ـ أهذا هو الاتّفاق بيننا يا شروق؟ يا عيب الشوم! نسيتِني بالمرّة، وتزوّجت بالسرّ دون أن أعرف، وأنا صديقتك القديمة. بالمناسبة مبروك العيادة.. نشالله تنجَحي.. أتمنّى لك التوفيق من كلّ قلبي يا حبيبتي.

ـ ريهام!! يا ألف أهلا وسهلا. وتعانقتا بحرارة. وأخفت شروق اضطرابها، وأغلقت باب المكتب بعد أن قالت لسكرتيرتها: «لا إزعاج البتّة إلّا في حالة طارئة». وعندما جلستا إلى فنجان القهوة الطويل النفَس والسيكارة، خبّرتها ريهام بدوي الحكاية كلّها، من ألفها إلى يائِها، مع التفصيلات والاستثناءات. وكيف أنّ ديب هو الذي باعد بينها وبين رامز من خلال الاتّصالين، وهو الذي «طفّش» العريس البروفسور بإخباره عنكِ، وأنّ رامز متزوّج أيضًا من جُهَينة الرسّامة، وما هو نوع الحياة الذي ينتظر شروقَ في آخر المطاف. وتكاد تنهار شروق بين يديْ ريهام، وهي تسمع الرواية المقرفة الكاملة. شعرت بالغثيان.. وترقرقت دمعتاها. وتمتمت هاذية:

ـ لو لم تكوني صديقتي القديمة.. والإعلاميّة المشهورة، لما صدّقت كلمة ممّا تقولين. فقالت ريهام:

ـ لا مصلحة لي في تدمير زواجك! وهذا ليس زواجًا أصلاً. ألم تسألي نفسك: لماذا يريد ديب توسيع الهوّة بيننا؟

ـ أجل.. أنت محقّة. وتابعت ريهام:

ـ لا أريد أن تصبح صديقتي القديمة عاهرة مثلي. هذه الدنيا غابة، والناس وحوش. وأنا قصدت إليك يا شروق، لأرفّه عن نفسي من هذا القرف الذي أعيشه، وليس لي في عالم الشهرة صديق! فأنا أيضًا أمرّ في تيهٍ نفسيّ كبير. أنا بحاجة إليك. لقد أرسلتكِ السماء إليّ، فلا تتلوّثي بنار جهنّم مثلي.. أرجوكِ. أنت امرأة رائعة، وتقدرين أن تبني مستقبلاً جيّدًا، فحافظي على نفسك يا شروق.

ـ ولكنّي زوجة ديب الآن! فهل هذا يعني أن أطلّقه؟ كيف.. كيف.. يا ريهام؟!

وشرقت بدموعها. وكانت حكايتها مع ديب عساكر، كحكايات الغانيات اللواتي سبقنها إلى مملكة النجاسة.

* * *

١٤

كان جيلبير في مكتبه في وسط المدينة، وكانت الساعة السابعة مساءً. مساعدوه وموظّفوه أنهَوا عملهم وغادروا. هو وحدَه، ومُسامِرَاه اثنان: السيكار بيد والكأس بالأخرى. والأفكار طيور باحثة، كغراب نوح، عن قطعة أرض تحطّ عليها وسط التيّار الجارف، وعادت خائبة. أدار الموسيقى بعض الوقت.. وضجر منها. ثم أدارَ التلفاز الكبير في قلب خزانة الجوز البُنِّيّة، وراح ينظر إلى الأشكال والألوان ولا يرى شيئًا. في ذهنه المشوّش موضوعان: معضلة زوجة ح. ص. السيّدة لميس، والثاني أيّوب المخطوف من قِبَل الاقتصاديّ السيّد ح. ص؛ والمفاجأة الأولى، فيما بعد، عندما يعرف أنّ ح. ص. هذا هو الذي ابتكر أسطورة الخارطة والكنز، وهو سبب معاناته في إثرها. أطفأ التلفاز.. وراح يمشي جيئة وذهابًا، وحاسوب دماغه الخلّاق يصول ويجول في أروقة الحِيَل التي وقّعها على صفحات تاريخه الطويل. والمفاجأة الثانية مثلها، سوف تنطح رأس السيّد ح. ص. عندما يعرف أنّ ثروته تبخّرت في طرفة عين! يمكن يروح فيها! كلّ من العدوّين

يكمن للآخر، وبحسب «داروين» يبقى الأقوى. وراحت الصور والمشاهد والاحتمالات تتصادم في مخيّلته. كان الليل قد سدل ستارته. لا شيء غير نجوم بعيدة تنبثق من العدم.. وهو ينتظر نجمة واحدة.. نجمة حلّ المعضلة. وعنّ له سؤال فجأة! أليس هناك يا ترى لصاحبنا ح. ص. «علي بابا» ما أو «مفتاح» ما أو «بساط ريح» يأتيه بما يناسب مزاجه من النساء؟ لا بدّ من هنا العبور إلى عالم ح. ص. الكازانوڤيّ الصاخب. وجيلبير يعرف يقينًا أنّ السيّد ح. ص. يقضي شهر آب من كلّ سنة، في الريف، منعزلاً عن العالم، ليختلي بأرانب اللذّة، التي لا بدّ هناك ساحر ما، يخرجُها له من قبّعته. نحن الآن في أوّل حزيران.. والوقت غير مناسب لرهانات خاسرة. جيلبير يحادث نفسه.. وعيونه مسمّرة في الليل والنجوم، والدخان يلفّ رأسه كما يلفّ الضبابُ الجنّيَّ عندما يخرج من فانوسه. هناك دروب عديدة توصل إلى الطاحونة: المحامي حسن العيّا ذو شبكة واسعة في الجنس الرسمي، وهناك الإمبراطورة ماروكو، وكذلك المصرفيّة بيّا. واحد من هذه الرزمة سيكون مفتاح الصندوق. وفيما هو في لجّة تساؤلاته، أيقظه رنين الهاتف الثابت، فأسرع إليه:

ـ آلو..

ـ آلو مرحبًا.. أريد السيّد جيلبير عزوري لو سمحت.

ـ أنا جيلبير سيّدة لميس.. لا أقدر أن أنسى إيقاع صوتك العذب.

ـ ذاكرتك فظيعة! قالت لميس بدهشة.

ـ خير إنشا الله؟

ـ محامي زوجي تمّ شراؤه بسهولة. سيقبض قبضة حرزانة، لم

ولن يحلم بمثلها طول عمره. سيسهّل لنا المهمّة على طول الخطّ.

ـ ممتاز! ولكن.. ألم تحسبي حساب زوجك عندما يستفيق من السكرة، ويكتشف أنّ الثروة طارت؟

ـ لن يكون أمامه عدوّ يهاجمه.. الجميع سيختفي.. ويضرب هو رأسه بالجدار! محاميه سينزل إلى باطن الأرض، وأنا وابني نكون قد صرنا في لندن.

ـ هذه أهمّ نقطة في المشروع كلّه.

ـ النقطة الثانية محاميّ جاهز في أيّ وقت. وكذلك مدير مصرفي والمدير العامّ في الوزارة. سيحدث ذلك خلال أيّام قليلة.

ـ المطلوب إذًا.. إغراق زوجك البائس في سكرات اللذّة، واستدراجه لتوقيعات وختوم التخلّي عن نصف الثروة.

ـ المحامي يحضّر أوراق حصر إرث وقسمة الثروة بالمناصفة بين الصبيّ والبنت. أنا آخذ حقّي بالحيلة.. لا أطمع بأكثر من هذا. وهذه الأوراق هي التي سيوقّعها ويختمها زوجي السعيد.

ـ هذا ممتاز! لقد أنجزتِ الكثير سيّدة لميس. الموضوع شبه مُنتهٍ إذًا؟

ـ بقي أن نحدّد بدء العمليّة يا جيلبير. متى؟ سألت هي بلجاجة.

ـ أخشى سيّدتي العزيزة أن ليس في هذه الأوقات!

ـ لماذا؟

ـ هل تعلمين أين يكون زوجك في شهر آب من كلّ عام؟

ـ هذه قديمة.

ـ آب هو الفسحة الزمنيّة المناسبة. . ألا توافقين؟

ـ وسننتظر لشهر آب؟! سألت بتأفّف.

ـ أعتقد أنّها الفرصة المثاليّة. أنا شخصيًّا أكره التسرّعات. . والخبرة علّمتني. في هذه الأثناء أعمّق درسي لحركة زوجك.

ـ حسنًا. . كما تريد. بالكلام عن شهر آب، ذكّرتني برشيد. .

ـ مَن رشيد؟ سأل جيلبير باهتمام.

ـ رشيد الغاوي. . قائد أمنه الخاصّ. إنّه قبضاي يقود «قرطة الشباب» حواليه.

ـ وما به رشيد الغاوي هذا؟

ـ إنّه الحاجب الذي يُحضر النساء لزوجي السعيد في بلاط لذّاته.

ـ آآ. . شكرًا لك سيّدة لميس! هذا ما كنت أبحث عنه بالضبط. وقد عييت. مبروك لك مشروعك هذا. هل لدى رشيد رقم أو عنوان أو بريد إلكتروني؟

ـ أجل. . إنتظر. . سأعطيك رقمَيه.

ـ مهلاً سيّدة لميس.

ـ ما بك؟

ـ بإمكانِكِ شراء رشيد هذا بسهولة هو الآخر.

ـ أجل. . يُمكن شراؤه، قالت لميس بنبرة واثقة، وهل تحتاج إليه؟

ـ حتمًا، سنحتاج إليه.

ـ لقد فكّرت به في الحقيقة. . ولكنّك أنتَ أقوى بكثير في هذا

النوع من الشغل، قالت لميس.

وأعطت السيّدة لميس رقم الغاوي إلى جيلبير، ولم تسأل عن الطريقة التي سيعمل بها. وربّما هو لن يفعل شيئًا. ستكون هذه أسهل وأعظم عمليّة سرقة في التاريخ. سرقة نصف ثروة خلال أيّام. اللعبة ستقوم بها حوريّتان اثنتان من (روبواتِه الوَفيّة) التي طالما سهر الليالي في إعدادها وبرمجتها. وتنفّس جيلبير الصعداء.. وارتاحت أحشاؤه. أغلق سمّاعة الهاتف.. وراح يضحكُ ملءَ صوته كأنّه يمارس جنونًا. واقترب من خزانة المشروب وصبّ لنفسه كأس ويسكي آخر، وارتمى فوق الكنبة، وهو لا يزال يضحك ويضحك:

ـ ستصنع التاريخ يا جيلبير وأنت جالس على كرسيّك مستريحًا، وبيدك الكأس والسيكار. لقد خُلِقتَ لإدارة اللعبة وليس لتنفيذها. وأمّا التفاصيل.. فالفاتنتان المكتنزتان شهوة هما كفالتها.

* * *

لم يمضِ ثلاثة أسابيع على اختفاء أيّوب يومَها، وجيلبير يتّصل بذكريات أخته، سائلاً لاهثًا عن أيّ جديد يتعلّق بأخيها، ولا جواب. بيد أنّ سكون ذكريات أثار حفيظته! كان عليها أن تقلب الدنيا بحثًا عن أخيها.. تتّصل بالشرطة أو تطلب مساعدة أحد خصوصًا هو. واتّصل بها بعد سبعة أيّام من الاختفاء، فقالت له:

ـ لقد وصلتني رسالة هاتفيّة البارحة، من شخص لم يقل اسمه: «أيّوب في حالة ممتازة، ولا يعوزه شيء، ولن يطول اختفاؤه، وهو بعد في البلد».

ولم تكن هذه الطمأنة من قِبَل أيّوب مطمئنة لبال جيلبير البتّة. لعب الفار في عبّه. أحد روبواتِه المخلصة في يد عدوّه.. هذه مصيبة!

وأخيرًا، يرنّ موبايل جيلبير في ساعة متأخّرة من الليل، وكان في الشقّة الساحليّة:

ـ جيلبير.. أنا أيّوب.. أنا حرّ الآن وأريد أن أراك.. أين أنت؟
وصعق جيلبير للنبأ المفرح!

ـ أيّوب.. أطلقوا سراحك!! كيفك يا ابن الـ...؟ شغلت لي بالي كثيرًا. هل أخبرتَ ذكريات بعودتك؟ هل صحّتك على ما يرام؟ كيف فلتوك؟! هل آتي لعندك؟ أين أنت؟

ـ لا، لا يا جيلبير.. أنا سآتي إليك حيث أنت.

ـ لا، سآتي أنا إليك. لقد أرعبني وجودك بين يدي هالأخو هيك وهيك. إنتظرني خلال ثلث ساعة.. عند السنتر الرماديّ تحت جسر المشاة. اتّفقنا؟

ـ حسنًا كما تريد، ردّ أيّوب.

وهكذا كان. بعد ثلث ساعة كان الاثنان في سيّارة جيلبير، تدرج بهما في اتّجاه جونيه، إلى أحد الأندية الليليّة المغلقة. وهناك جلسا عا رَوَاق، جلسة كاس وموسيقًى تهدّئ الأعصاب، بعد الأيّام العصيبة.

ـ أراك بحال جيّدة. يبدو أنّك لم تعامَل بطريقة سيّئة؟!

ـ لا. فصاحبك ح. ص. لا يريد أن يعرف عنك أيّ شيء. لقد قال لي إنّه يريد الخارطة، وتصفية الحساب القديم بينكما. وأنا لا دخل لي بالموضوع.

ـ هل أخبرك قصّةَ أختِه؟

ـ أجل.. أخبرني.

ـ هالإبن هيك وهيك عامل فينا كذا ضرب بضاعة فاسدة..

وبعدو ما نسي هالقصّة اللي صار عمرا سنين. ولكن كيف أطلقك هكذا بسهولة؟! فتجاهل أيّوب السؤال وقال:

ـ هناك صراع قديم. . وهو جديد مستمرّ بينكما. يريد الرجل أن ينتقم لأخته.

ـ صعبي عليه كتير. سيكار؟

ـ لا، شكرًا. ولكن أنت. . كيف خلصت من القطوع في تلك الليلة المشؤومة، ليلة التنقيب عن الكنز المنحوس؟ أين كنت؟ سأل أيّوب باهتمام بالغ. وكان السؤال ذكيًّا. وهي معضلة بالنسبة لأيّوب. . وليس لأيّوب فقط بل للسيّد ح. ص. أيضًا، لأنّ اثنين من رجاله خاناه وأطلقا خصمَه وتبخّرا. وهمّ جيلبير بالإجابة. . لولا الاتّفاق السرّي مع السيّدة لميس. وهذه من الصفقات الكبيرة التي لا يفصح عنها جيلبير بسهولة، ولو للمقرّبين إليه. وأجاب:

ـ الملائكة أنقذتني، سأخبرك فيما بعد، وقد أحتاج لمساعدتك، لست أدري.

ـ هي قضيّة كبيرة إذًا؟

ـ أجل. ولكن قل لي. . ألم يسألك أيّ شيء عن شغلنا؟

ـ لقد قال إنّه يعرف كلّ شيء عنك، وعن عمايلك الوسخة.

ـ لا زال غاضبًا جدًّا!

ـ وسيأتي يوم قال، وتقع في يده. . تابع أيّوب.

ـ أحلام يقظة. لقد اتّصلتَ أنت بي يا أيّوب، وتريدني لأمر هامّ. . ما هو؟ وبلع أيّوب قليلاً من الويسكي، وراح يزيح الكأس يمينًا وشمالاً على الطاولة، ويبرمه على كعبه:

ـ لقد جئت لك ببيت القصيد في موضوع الخريطة المنحوسة.

ـ الخريطة! هيّا تكلّم.. ماذا لديك بخصوصها؟

ـ الخارطة اللعينة! قال أيّوب.

ـ أنطق يا أيّوب، أعصابي لا تحملني هذه الأيّام.

ـ إنّ الخارطة الحقيقيّة بحوزة أحد الإرهابيّين، واسمه (أبو أدهم). لقد اتّصل بـ ح. ص. ليبتزّه بها.

ـ كيف عرفت هذا؟ سأل جيلبير بدهشة بالغة. وهل الخارطة التي معي مزيّفة كما قال أبو الجماجم؟!

ـ أجل يا جيلبير، لقد كان الاتّصال من (أبو أدهم) أمامي.

* * *

كان أيّوب يُعِدّ كتابه عن جيلبير، يشطب وينقّح، يلغي أشخاصًا ويثبّت آخرين، يجمع الصور وينظّم الوثائق.. وشارف على النهاية. وكانت قضيّة جُهَينة غانم قد أقلعت هي الأخرى، من مدارج الملفّات المنسيّة، يرافع عنها المحامي سيف بحَثٍّ من الإعلاميّة ريهام بدوي. وكان أيّوب يخطّط أن تتزامن شهادته في المحكمة مع صدور الكتاب، واثقًا من حماية الاقتصاديّ الكبير ح. ص. له، واتّصل عندها أيّوب بـ ح. ص. وقال له:

ـ لقد بدأت الجلسات. والمحامي قال لي: ستمثل أمام المحكمة بعد جلسة أو جلستين.

ـ عال عال.. أين أصبحت في الكتاب؟ سأل ح. ص.

ـ في فصوله الأخيرة.

ـ هل شطبت الأشخاص الذين أشرتُ لك عنهم؟

ـ أجل، أجل.. كلّو عا ذوقك.

ـ سألقي نظرة فيه عند الفراغ منه. وعندما يخرج من المطبعة، سوف ندرس عندئذ بدقّة.. ونحدّد ساعة وكيفيّة نشره في السوق. والآن.. حدّثني كيف الوضع مع جيلبير؟

ـ كلّ شيء تمّ كما قلت لي. جيلبير لا زال مقتنعًا بحقيقة الخارطة، وهو على يقين تامّ أنّ طريدته التالية هي (أبو أدهم).

ـ عفاك يا أيّوب.. عفاك. كن حذرًا حتى النهاية. سننفّذ كمين جيلبير قبل شهادتك حتمًا.



وانطلق الزمن انطلاقًا هاربًا، لا يحترم إشارات المرور، ولا تثنيه صفّارة الشرطيّ. وتواريخ الناس متداخلة متشابكة. وجاءَ شهر آب. وكان السيّد ح. ص. «مبَورَد» في الريف، لا يفعل شيئًا غير النقاهة والمتعة. وفي الوقت الذي كان جيلبير لاهثًا وراءَ طريدته الثنائيّة، أبو أدهم والخارطة. كانت حوريّتاه المثيرتان تقضيان الأيّام الفردوسيّة في قصر ح. ص. المنيف في الريف، تذيقانه اللذّات الساخنة مع كؤوس البيرة الباردة. لقد اتّصل جيلبير برشيد الغاوي واشتراه، ومن «قحّة» لميس طبعًا. قال له: «نسائي قماشة غير شكل، سيكون ريّسك طيّب الخاطر، وسيكون مسرورًا منك، وسيطلبنا مرّة أخرى، بل مرّات. سيكون هناك شغل بيننا فيما بعد. أنا واثق من ذلك». قبض رشيد المبلغ المرقوم وأتى بالحوريّتين بسيّارته كعادته إلى السيّد ح. ص. وفي جعبتهما خمس أوراق تحتاج لتوقيعه وختمِه. وفي هذه الأثناء، كان قد وصل SMS لجيلبير من مجهول يقول: «لقد انتقل إرث

الخارطة لي أنا. وأنا لا أكلّف نفسي عناءَ البحث عن الكنز المزعوم. أريد ثمنَ الخريطة كاش، وكفى. أتّصلُ بك لاحقًا». فقبع في مكانه ينتظر على نار الهوس، الاتّصال اللاحق. وجاء الاتّصال بعد أيّام على الهاتف الثابت:

ـ محسوبك أبو أدهم. إذا أردت الخريطة تعال إلى بلدة (بْحِلّاتا) الحدوديّة يوم الأحد ٢٧ الشهر الساعة السابعة مساءً.

ـ مهلاً.. أحتاج لتفاصيل... وقاطعه الصوت.

ـ لا تفصيلات عندي غير مئتين وخمسين ألف دولار في حقيبة سوداء. تسلّم وتسليم. إنتبه لديّ سنسر فائق الدقّة ضدّ العملة المزوّرة. فأجاب جيلبير وقلبه يطفر من البهجة:

ـ مئتان وخمسون ألف دولار وحبّة مسك. نلتقي إذًا يوم الأحد. وأقفل الخطّ.

وأبدعت حوريّتا جيلبير في سَبْيهما السيّدَ ح. ص. إلى رياض الملذّات الأسطوريّة، وسَرَقتا منه وعيَه وحصلتا على التواقيع والختوم. يوم الجمعة مساءً كانت الأوراق تامّة كاملة. وبعد منتصف الليل، كانت الأوراق بين يدي السيّدة لميس. وصباح السبت أصبحت بيد محاميها لإتمام اللعبة القانونيّة. ومساءَ السبت طارت لميس وابنها إلى لندن. ويوم الاثنين قبل الظهر كانت نصف ثروة الاقتصاديّ ح. ص. قد أصبحت باسم ابن لميس.. غريبة هي الأقدار حقًّا! مصالح البشر مشكولة، بعضها بالبعض الآخر، بحلقة من حلقات ثالوث كبير: الحاجة والحبّ والكراهية. وحلقة الوصل هنا هي الكراهية طبعًا. وفي ما عدا ذلك لا تتقاطع المصالح البتّة! لميس تهاجم ح. ص. وح .ص. بدوره يهاجم جيلبير، وجيلبير لاهث وراء الخارطة،

والخارطة تستهدف جيلبير بدورها، يا لها من مهزلة! هذه السلسلة لا نهاية لها طالما حلقاتها هي غريزة الأنا: الحاجة والحبّ والكراهية. وستبقى الذات، دائمًا وأبدًا، دينامو الصراعات الأوّل، وقوّة التحوّل والصيرورة في تاريخ المجتمعات. يوم الأحد ظهرًا، كان هوس جيلبير «يفوكس» على (بْحِلّاتا) قاصدًا إلى (أبو أدهم) بنفسه، ومعه سبعة رجال مسلّحين في ثلاث سيّارات جيب «مفيّمة». أراد جيلبير أن يتناولوا الغداء في أحد مطاعم زحلة الفاخرة، ثم أخذوا قيلولة طويلة في الفندق حتى الساعة السادسة مساءً، ثم انطلق الموكب ثانية نحو البلدة الحدوديّة. واختفت أشعّة الشمس، وشرع الليل يُرخي عباءَته السوداء، وأصبحت الطريق ضيّقة وشبه ترابيّة، في جردٍ لا أنس فيه ولا جنّ. ورنّ هاتف جيلبير:

ـ معك أبو أدهم. المكان: آخر البلدة، وراءَ خربة المعصرة، بين الهياكل الصخريّة. وأقفل الخطّ.

وكانت الدقيقة بسنة في زمن جيلبير النفسيّ. أعصابه مشدودة، وشوقه يلتهب لرؤية الخارطة الحقيقيّة. ولم يخطر لبال هذا الشيطان، أنّه يتّجه إلى كمين مُحكم، كان قد خطّط له خصمه الاقتصاديّ ح. ص. منذ سنوات، بالتواطؤ مع الروبو الثائر بصمت أيّوب. وعندما سرقت ريهام بدوي الخارطة من قبو السيّد ح. ص. في الريف، كانت تلك تمريرة ماكرة من هذا الأخير، كجزء من الخطّة. وصل الموكب إلى البلدة، ووقف جيلبير يسأل رجلاً قرب الحانة، عن مكان خربة المعصرة، وقال له أن يستمرّوا في الصعود بعيدًا خارج البلدة، ثم يأخذوا المفرق على اليمين في طريق ترابيّ لربع ساعة، فيصلوا إلى الخرائب. وانطلقت السيّارات الثلاث من جديد، وهي

تغزل في ساحة البلدة الصغيرة، وسط ضبابٍ رهيب من التراب والغبار، وهزيم[1] عاصف من الدواليب. وأوغلت الطريقُ الصاعدة الموكبَ في التلال الجرداء، حتى تلاشت البلدة بالكامل وراء غلالة الظلام، ما خلا أضواء قليلة صغيرة تومئ في بيوتها، كعيون صغار الضباع التائهة. قال جيلبير للجالس بجانبه:

ـ وكانت الأرض خربة وخالية.. تكوين واحد تنين. إسمها خِربة المعصرة.. وهي خَرِبَة كالأرض قبل خلق الإنسان. لا يسكن هنا غير الأرواح المردة والشياطين.

ـ ألا تتوقّع مفاجآت؟ سأل سائق الجيب في السيّارة.

ـ «شو بِكونْ يا شباب»؟ أهي العمليّة الأولى؟! إنّها مجرّد خارطة.

ووصل الجميع إلى الخرائب: بقايا قطع سيّارات وعلب كرتون وأكياس وصناديق خشبيّة مكسّرة وبقايا أثاث بيوت مهترئة، بقرب بناء حجريّ قديم، وهو المعصرة، لم يبقَ منه غير جدار منخفض تتداعى فوقه بضعة أحجار سوداء كبيرة، من حريق قديم ربّما. وتحرسه الأعشاب اليابسة العالية، والأشجار الشوكيّة القزمة من خلف، كانت الصخور المسنّنة تحت أشعّة القمر الفضّيّة تشبه بشرًا واقفين يصلّون. ووراء جمهرة الصخور هذه أشجار قليلة تسيّج السفح الأجرد الممتدّ إلى البعيد. سكتت محرّكات السيّارات الثلاث وترجّل منها الجميع. وانتظروا لدقائق. ثم، فجأة! صُوّبَ ضوءُ بروجكتور قويّ نحوهم منبثق من بين الصخور. وصوت، أشبه بصوت امرأة، ينادي:

---

(١) صوت الرعد.

ـ سيّد جيلبير عزوري. الخارطة معي. تعال وحدك وبيدك الحقيبة. فأجاب جيلبير:

ـ لماذا لا تأتي أنتِ؟ أنتِ في الظلام.. أنا لا أراك.

ـ تعال أنت وإلّا لن تحصل على الخارطة. فقال لرجاله: «توزّعوا يا شباب وكلّ واحد سلاحو بي إيدو. وأنا سأذهب إليه بالحقيبة». وحمل الحقيبة ومشى باتّجاه الصخور الآدميّة، حتى نصف المسافة. وقف لثوانٍ ونظر وراءَه.. السيّارات مكانها والشباب توزّعوا. ثم تابع المشي حتى اقترب من الصخور. وخرج إليه فتًى في العشرينيّات من عمره، وبيده الظّرف الورقيّ. وما إن كانت عمليّة التسلّم والتسليم تجري بصمت وهدوء، ولا صوت غير صوت حشرات الليل.. الفتى يأخذ الحقيبة، وجيلبير يحتضن الظرف براحتيه الاثنتين بشوق الملوّع إلى حبيبته.. سطعت أربعة بروجكتورات من جهات الخِربة الأربع. فأضاءَت البرِّيّة كأنّها في وَضْح النهار. وصوت رجوليّ ينادي صارخًا:

ـ الجميع في أماكنهم وليه.. مخابرات الجيش، أو نطلق النار. المكان محاصر من كلّ ناحية. وصرخ جيلبير:

ـ «هذا كمين؟!!» وسحب مسدّسه وانبطح أرضًا. وذعر الشابّ العشرينيّ ذعرًا شديدًا وضمّ الحقيبة إلى صدره وقفز هاربًا بين الصخور، وسعى جيلبير وراءَه خافض الرأس. بيد أنّ الكمين كان واسعًا وجاهزًا لشنّ حرب. وتحوّلت الخربة إلى معركة، ولكن يائسة بالنسبة لجيلبير. عشرات العناصر من الجيش بجهوزيّتهم الكاملة، في مقابل سبعة رجال بالمسدّسات. وخرج جيلبير من بين الصخور يحاول الوصول إلى السيّارة للهروب.. فانهمر عليه شلّال النار من كلّ ناحية.

قتل واحد من السبعة وجرح آخر قرب السيّارات. وأصيب واحد من شابَّي (أبو أدهم) فزحف إلى أسفل جدار المعصرة، والثاني قبع مختبئًا بين الصخور هو وجيلبير والباقون. تراجعت حدّة التراشق بعد ربع ساعة. وصدح مكبّر الصوت ثانية:

ـ لا مكان للهرب.. سلّموا أنفسكم. وسأل جيلبير الشابّ الآتي من قِبَل (أبو أدهم):

ـ هل أنتما اثنان فقط؟

ـ أجل. أجاب الشابّ والخوف يرجف قامته كورقة الخريف.

ـ هل نستطيع طلب المساندة من (أبو أدهم)؟ سأل جيلبير.

ـ طبعًا. وأعطاه الشابّ رقم هاتف (أبو أدهم). وحاول جيلبير مرّات الاتّصال به، ولكنّ الخطّ مقفل.

وبقيَ الرجال في أماكنهم زهاءَ ساعة. ما خلا طلقة أو طلقتين بين الفينة والفينة. وأخيرًا، عزم جيلبير أن يهرِّب الجميع عن طريق صعود الجبل. وانقسموا إلى فريقين.. وزحفوا نحو الريف الأجرد، وبقي الجريحان حيث هما، حتى وصل الجيش إليهما. وبعد نصف ساعة من المشي في البرِّيّة، سمعوا هدير مروحيّة.. بل هما مروحيّتان! ومجهّزتان ببروجكتورات قويّة، ولم يستطع أحد الاختباء لأنّ الأرض جرداء. وهبط من الطوّافتين مجموعة من ثلاثين رجلاً. فأذعن جيلبير لسوء المصير، وسلّم الجميع أنفسَهم أخيرًا، وحُملوا بالمروحيّتين إلى مركز التوقيف. ولكنّ التّهمة التي حضّرها له ح. ص. ووشى به إلى مخابرات الجيش، أنّ الخارطة رموز سرِّيّة رمزيّة لمخابئ مستودعات السلاح الذي يباع لإرهابيّين خارج البلاد. ونجح في الإيقاع بعدوّه المزمن جيلبير عزوري.

يا للتقاطع الغريب بين الرجلين! أحشاؤُهما قِدْران يموران بالحقد المتبادل. وتزامنَ الطبخُ والاستواء. ومن غير أن يدري واحدهما بمشروع الآخر! أكل الواحد من طبيخ الآخر في آنٍ معًا. يا لسخرية الأقدار! ها نحن في زمن الداروينيّة.. ولكن بحُللٍ جديدة. سيكون هناك رابح وخاسر حتمًا. والرابح سيطلع له خصم جديد، في مكانٍ ما، في ساحات الصراع اللامتناهية. وصحا السيّد ح. ص. من سكراته ليدرك أنّ نصف ثروته رحل مع رحيل زوجته لميس وابنها إلى لندن، وعرف أنّ محاميه الخاصّ سقط في خطيئة الخيانة العظمى، واختفى هو الآخر إلى المجهول. فتجلّد على شرب كأس الهزيمة.. ولم يقوَ.. فأودت به ذبحة قلبيّة حادّة. فمسكت أخته دفاتر «الحسابات القديمة» و«ملفّ انتقامها» الشخصيّ من جيلبير، وقامت بطباعةِ وتوزيع كتاب أيّوب. ونُشِرَ الكتاب عندما كان مؤلّفه قد غادر البلاد إلى غير رجعة. ووجود ريهام بدوي البارز في الكتاب كان ضربة قاضية لها. وفهم جيلبير لاحقًا أنّ أيّوب وأبو الجماجم والضابط الفلسطينيّ والحفرة والسجّادة التي تحوي الساعة الذهبيّة والسيفين والخواتم الخمسة وأبو أدهم فصول في مسرحيّة موفّقة من قبَل ح. ص. بيد أنّ كتاب أيّوب كان سيفًا ذا حدّين، وقفّازًا خبيثًا خبّأ فيه جيلبير أنامله الملوّثة. فعقد مؤتمرًا صحافيًّا مطنطنًا، عقب خروجه من التوقيف، شبه بريء! فنّد فيه مادّة كتاب أيّوب بحنكة سياسيّة بارعة وحجّة خبيثة، و«فرمَتَ» منظومة الرأي العامّ من كلّ ما تحويه من الداتا عن جيلبير: قضيّة ديب عساكر، ومسرحيّة ح. ص. فبات لا أحد يعرف أين هي الحقيقة؟ ومن هو على حقّ؟

* * *

وهناك.. تحت قوس المحكمة.. حيث الكلمات (العَدل أساس

المُلك) حاضرة حضور الجثّة في المأتم، جسد لا روح فيه. حاضرة في جمال الخطّ الكوفيّ المذهّب، وغائبة في عَدلها ومُلكها. الهيئة حارسة القانون وراء المنصّة، وفي صحن القاعة، جمهور فضوليّ يريد أن يعرف رأي العدالة في هذه القضيّة الغريبة، لا أكثر. ولم يَرد اسم جيلبير عزوري منذ بداية الجلسات حتى الآن. طلب المحامي سيف من الهيئة إبراز شاهدِه أيّوب. واقترب أيّوب إلى المنبر الصغير أمام المحكمة، وأجاب على جملة من الأسئلة وجّهها إليه المحامي. ولكنّه أعلن في نهاية المطاف، عندما وجّه القاضي إليه الكلام:

ـ من تتّهم يا أيّوب في قتل المهندس ديب عساكر؟

أجاب أيّوب:

ـ المخطِّط هو رجل الأعمال والسياسيّ جيلبير عزوري. فعَلا الضجيج والاستنكار في أرجاء القاعة إزاءَ هذا الإعلان المفاجئ. وتابع أيّوب: المنفّذ الفاشل هو الرسّامة جُهَينة غانم، والقاتل الفعليّ هو امرأة جذّابة لا أعرفها، ولكنّي قد أتعرّف عليها لو رأيتُها. ومحسوبك الحقير هو الشاهد الوحيد. وعلا الضجيج ثانية، فخبط القاضي مطرقته وساد الصمت. فوجّه القاضي كلامه أيضًا إلى أيّوب:

ـ ستوقّف أنت يا أيّوب بتهمةِ إخفاء معلومات عن القضاء. فتدخّل المحامي سيف بذكاء، وقال:

ـ صمتُ موكّلي سببُه الخوف يا سيّدي الرئيس، والحاجة المادِّيّة لجيلبير عزوري. والجميع يعرف أنّ أيّوب هو موظّف عند جيلبير يعيش من خيره. لو سمحت سيّدي الرئيس. ونظر سيف إلى أيّوب وقال:

ـ صف لنا باختصار ما أعلنته للمحكمة حتى الآن عن دوافع هذه الجريمة. فقال أيّوب:

ـ الذي خطّط جيلبير، والسبب الأوّل هو التنافس القديم بينه وبين ديب في السياسة والبزنس. والسبب الثاني هو علاقة جُهَينة زوجة ديب بروميو زلمة جيلبير، التي كانت سببًا جوهريًّا في فشل عمليّتين كبيرتين وخطيرتين. فكانت الخطّة الإطاحة بروميو وجُهينَة وديب في ضربة واحدة. ثلاثة عصافير بحصاة واحدة. وأمّا دافع جُهَينة للقتل، فهو أنّ ديب مصدر المصائب والعذابات التي كانت تجتازها.

فقال المحامي سيف:

ـ شكرًا لك سيّدي الرئيس. لقد انتهيت من استجواب شاهدي.

واستدارت الرؤوس فجأة إلى المقعد الخلفيّ من القاعة! حيث علا صوتٌ أنثويّ قويّ النبرة، خرق عباءَة الصمت البليغ الذي كنف شهادة أيّوب.

ـ أنا هذه المرأة التي رأيتها يا سيّد أيّوب في مسرح الجريمة. إسمحوا لي أن أقدّم نفسي لمحكمتكم الموقّرة. أنا المعالجة النفسيّة شروق عبد الله. التي أطلقت النار على المهندس ديب عساكر من المسدّس الذي كان بيده. ودنت بخطوات واثقة أمام المحكمة، رافعة نظّارتيها السوداوين عن عينيها. وعلا الصخب والضجيج ثانية في القاعة. واستجوب القاضي شروق، واعترفت بالجريمة والدوافع. ثم أوقفت بتهمة القتل المتعمّد مع الإصرار والتصميم. وأمّا جُهَينة فبقيت عامًا آخرَ في السجن، ثم دفعت الكفالة وخرجت عائدة إلى فردوسها المفقود.. إلى الدير.

* * *

غرفة رقم ١٠٥

المصحّ العقليّ في العاصمة

خريف ٢٠١٥

«كانَ جيلبير عاريًا في سرير مزدوج وثير. عن يمينه ريهام بدوي، وعن يساره ذكريات وهبي عاريتان هما الأخريان. وكانتا واحدة تسقيه عصير الفواكه، وأخرى تضع له السيكار في فمه فيمجّ الدخان، ثم ترجعه إلى المنفضَة قرب السرير. كانتا تغنّجانه وتدلّلانه، وتسمعانه من كلام الغزل النسائيّ أجمل ما سمعت أذن رجل. ثم مدّت ذكريات يدها إلى جارور الكومود وسحبت سكّينًا وغرزته في خاصرته، فأرسل صرخة كأنّها الرعد. ثم وقفت ريهام وأخذت مسدّسها من حقيبتها وأطلقت ثلاث طلقات ناريّة في صدره». وقفزت فجأة في سريرها والعرق يتصبّب من جبينها وقلبها يخفق بشدّة. كان الكابوس المرعب

عينه الذي راود ريهام في الأشهر القليلة، وقضّ عليها مضجعها. قامت وتصحصحت، وشربت الماء، ونفّخت سيكارة، وعملت لها كوب نسكافيه، وجلست ثانية إلى الحاسوب.

سيِّدي الرئيس،

لقد تصفّحت مؤخّرًا الكتاب الضخم (نظريّة العدالة) للفيلسوف الأميركيّ، والبروفسور في جامعة هارفرد جون راوولز، والذي أصدره عام ١٩٧١، وعُدَّ هذا المرجع على أنّه ميثاق الحركة الاجتماعيّة الديموقراطيّة الحديثة. إنّه، لعمري، لغوٌ في هذيانات مثاليّة لو فتّشنا عنها على بساط الحقيقة. صعب علينا، جدًّا.. أن نفهم النظريّات المثاليّة ونقبلها وافدة إلينا من أمم كبرى «تستحلب» الأمم الصغرى، و«تشمِّعُ» لها الحبل لتغرق في تخلّفها ودمارها. النظريّة المثاليّة إن هي إلّا عباءَة فصّلها الكبار ليلبسَها الصغار الضعفاء! وهي تشبه إلى حدٍّ بعيد، أثقال الناموس التي يلقيها الرابي الفرّيسيّ على كواهل اليهود، ولا يريد أن يحرّكها بإصبع[1]. وتحضرني هنا نادرة طريفة عن أحد القساوسة الوعّاظ، وكان يعظ يوم الأحد لجمهوره، ويحثّهم أن يعطيَ المرءُ قطعة من ثيابه للإنسان البائس العاري، وجزءًا من طعامه للجائع المشرّد. وقصد، ذات يوم، إلى بيت هذا الواعظ بائسٌ مشرّد، وكان في البيت ابن القسّيس، ففتح له الباب، وسأله قطعة ثياب، فأعطاه الولدُ الصغير جاكيت جميلة لوالده القسّ. وبعد أيّام، طلب القسّ الجاكيت، فلم يجدها! قال له ابنه:

ـ لقد أعطيتها لأحد المحتاجين كما علّمتنا يا أبي في العظة يوم

---

(١) إنجيل متى ٢٣ : ٤.

الأحد. فقال الوالد بنبرة غاضبة:

ـ الوعظ ليس لنا يا بني.. إنّه للناس فقط.

هكذا الأمم القويّة تقدّم الأُلهيّات المثاليّة، وتنظيرات الديموقراطيّة، والتعبير الماكر عن الحرّيّة، للشعوب المقهورة فتمدّها من ضعفِها وبؤسها، وتبقى هي «تقونن وتشرّع» أبشع أصناف الخداع والافتراس. لا مشكلة مع جون راوولز بأيّ حال.. وإنّما السؤال يهزّني: «لماذا أتعب نفسَه بهذا المجلّد الضّخم عن العدالة؟!» ولا زالت العدالة، كما هي دائمًا، روحًا مقيّدة في أقفاص التغنّي والتنظير، ومصلوبة على خشبة البيانات الخطابيّة والمراجع الأكاديميّة. العدالة روح لا جسد له البتّة! بالحري لم تعطَ فرصة للتجسّد. هي رصيد بعملة ميّتة لا تصرف في البنوك الحديثة. النظريّة المثاليّة تشبه ما يقال للفتاة العزباء: «الحبّ يأتي بعد الزواج» يا للكذبة! خدعة مثاليّة لإقناعها وإخضاعها. وليس كالمثاليّات يليّن العقليّة غير المرنة. لست ضدّ المثاليّة، يا سيّدي الرئيس.. ولكن ما نعيشه اليوم في كلّ بقاع هذا الكوكب، يؤكّد أنّ العدالة باتت بيانًا قديمًا ممجوجًا.. لا يلائم الحركة التذاؤبيّة لمرحلة ما بعد الحداثة وما اصطلح على تسميته بـ «الحداثة الفائقة». لقد بكيتُ يا سيّدي الرئيس عندما قرأت كلام راوولز: «إنّ العدالة هي الفضيلة الأولى للمؤسّسات الاجتماعيّة»، وثرتُ لقيمة الفرد: «لا يمكن لأيّ مجتمع أن يكون عادلاً إذا ارتكز على التضحية بالعديد من أفراده، أو المجموعات القليلة فيه»، واستنكرتُ الحديث عن معوّقات العدالة: «صراع المصالح يوجب تفاهمًا على مجموعة من المبادئ التي تحدّد توزيعًا صحيحًا عادلاً للامتيازات والصلاحيّات والمسؤوليّات». ثم يطالب راوولز في نهاية

المطاف، بتطبيق الخضوع الصارم للعدالة. وعندما عرّف راوولز (العقد الإجتماعيّ) بأنّه: «مجموعة المبادئ التي رغب الأشخاص العقلانيّون والأحرار أن يحوّلوا مصالحهم الخاصّة، ليضعوها في موضع التساوي، وفق المصطلحات الأساسيّة التي سترتبط بينهم فيما بعد»، شعرت أنّ الرجُل آتٍ من كوكب آخر. أذكر أنّ أحد مؤسّسي شركة كبيرة، عقد اجتماعًا للمجلس الإداري، أثناءَ مرور الشركة في إحدى الأزمات، وأبدى أحد المهندسين رأيه قائلاً:

ـ ولكن هذا يتعارض مع قانون الشركة! فقال له صاحب الشركة، وهو مدير المجلس في آن:

ـ القانون أنا وضعته، وأنا أستطيع تعديل موادّه ساعة أشاء. وأمسك كتيّب القانون الذي كان أمامه على الطاولة ومزّقه بغضب.

سؤال كبير يدمّرني يا فخامة الرئيس: أين أنتِ أيّتها العدالة؟ أين تُرى هي عبسة هيبتِكِ؟ أينَ هيَ مَدى قوَّتِك؟ أينَ هي أنيابُ سلطانكِ تفتكُ بالخارجين عن طاعتِك؟ إنّي أفتّش عنكِ كما فتّش نيتشه يومًا ما عن الله، ويبدو أنّكِ تنتمين إلى عالم الروح واللاهوت! يطبّق السياسيّ القانون إذا خدم مصلحته في مكان ما، وينساه حيث يتعارض مع مصلحته في مكان آخر. هناك أزمة عالميّة خطيرة! هي انفلات هستيريّ لمارد المال.. يدوس القانونَ والمواثيق الإنسانيّة والهيئات القضائيّة والسلاح الرسمي (الجيش والأمن) في الشعوب والأمم.. كجنادب تحت قدميه. والتسويات.. والتفاهمات.. التي صدّعوا رؤوسنا بها، بأنّها تاريخيّة، ما هي إلّا توزيع متّفق عليه، في هدنة موقّتة، في مسلسل صراع الذوات الكبرى اللامتناهي. إنّها استراحة موقّتة للتناهش

لا أكثر. لقد أصبح المال الإلٰه الأعظم الذي يجرّ البشر، طوابير مخيفة، إلى سبيهِ الطويل. مجموعة من الناس يقودهم راعٍ بقوّة المال، ومجموعة رعاة يقودهم كبيرُ رعاة بقوّة المال، وكبَرَاءُ الرعاة يقودهم بدورهم راع عملاق.. وبقوّة المال. وهكذا بات الجميع يمشي في طابور العبوديّة على طريق الدمار الشامل. الحرائق في كلّ دار أشعلتها قدّاحة المال، والدماء في كلّ ساح سفكتها مَدى المال، والخراب في كلّ أرض نثرَهُ طاحون المال. قال أحدهم: «إنّ المصلحة الشخصيّة صخرة انتحار لأعظم المبادئ». المال مشكولٌ بغريزةِ الإنسان، وأمّا القانون فبالعقل والمبادئ. وتبقى الغريزة، دائمًا وأبدًا، أقوى من العقل والمبادئ، فيكون الناتج للمعادلة أنّ المال أقوى من القانون. المال في رأس الهرم، وتليه المصلحة الشخصيّة، ثم السلاح، فالقضاء، وأخيرًا، في أسفل الهرم، القانون.. يا للعار! هذه هي الحقيقة المُرعبَة. ونحتاج بعدُ لقرون يا فخامتِكَ، في شرقنا المتخلّف، وغربنا المكابر أيضًا، أن يقوى العقلُ فينا على الغريزة. والغريزة لعنة مزمنة توجِدُ المشكلة دائِمًا، ويبقى العقلُ وحدَه، دائِمًا وأبدًا، حلّالَها الصحيح. ومشاكلنا تتفاقم لأنّ العقل فينا نائم.

سؤالي الأخير والخطير، يحضرني الآن يا سيّدي الرئيس، وسامحني إذا كانت رسالتي طويلة مملّة، هو:

«عندما يكون القويّ كبيرًا.. وعاليًا جدًّا.. والقانون جرادة أمام مارد عظمته، وقد علّمنا التاريخ أنّ الحقّ يقف وقفة شاهد زور خائفٍ إلى جانب القويّ، أيبقى للضعيف بعدُ حقّ يطالب به، ومن ذا الذي يُعطيه حقّه؟

* * *

ضجيج وجلبة خارج الغرفة.

إنّها العاشرة من صباح يوم سبت مشرق في ذلك الخريف المشوّش.

دخلت الممرّضة، وقالت لريهام:

ـ إستيقظي يا ريهام، هناك زائرة تنتظرك منذ نصف ساعة.

وتنحنحت ريهام فوق مضجعها تفرك عينيها وتتثاءَب، ثم نظرت أمامها.. فإذا ذكريات وهبي صاحبة الصوتِ الجريح، بطلّةٍ جذّابة وأناقةٍ آسرَة، واقفة عند باب الغرفة.

* * *

أغانيات حكاية المأساة المزمنة في شرقنا الجريح. إنَّها مجسّمات الهندسة الكونيّة المتوحّشة التي يوحيها الكبار، ويضع مخطَّطاتِها الصغار، وتنفّذها الأممُ الضعيفة المغلوبة على أمرها حتى إشعار آخر.

السّياسة والجنس والاستغلال، الجشع والسلطة والمؤامرة، الخيانة وشهوة الانتقام، نغماتٌ وإيقاعاتٌ متنوّعة متداخلة، تؤلّف حلقات هذه السمفونيّة الروائيّة.

أبطالها باتوا ضحايا الدوّامات العبثيّة. لقد استهوتهم زخارفُ اللعبة، وشَوَّقتهم بركاتُها الآنيّة الماكرة، فانحدروا في نهاية المطاف إلى قعر الهاوية.

سامي معروف رسّام وشاعر وروائيّ. واعظ، ومرشد روحيّ واجتماعيّ في السجون.

صدر له:

في قصص الأطفال: الجبل الذي يبكي، سلسلة رمزي ومرسودا.

في القصّة: الأشياء التي تعمل معًا.

في الشّعر: ذبيحة شفاه، قبور الشهوة.

في الرّواية: رقصات التّيه.

دار الآداب

هاتف: ٠١/٨٦١٦٣٣

٠١/٧٩٥١٣٥

ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

تصميم الغلاف: رغم الجندي

ISBN: 978-9953-89-488-1

